ارتياح العقول إلى رسالة الرسول

ارتياح العقول

إلى رسالة الرسول

تأليف

العلامة الشيخ

محمد صالح بن أحمد الغرسي

دار روضة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ديباجة الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد، فإن الموضوع الأصلي لهذا السِّفْر هو دلائل النبوة وأعلامها، وهو موضوع يُهِمّ كلَّ البشر منذ أول نبوة أنزلت على أول إنسان، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وقد جَعَلت الكتب الإلٰهية والشرائع السماوية الإيمانَ بالنبوة وبرسل الله صنو الإيمان بالله تعالى وبوحدانيته، لا يتم إسلام المرء ما لم يؤمن بهما معا.

ومن أجل ما لهذا الموضوع من الأهمية القصوى ركز عليه علماء الإسلام أعظم تركيز، وأولوه أكبر عناية بعد الإلٰهية والتوحيد، وكتبوا فيه الكتب الكثيرة.

ومن أهم ما كتب في هذا الموضوع أو أهمها كتاب «تثبيت دلائل النبوة» للقاضي عبد الجبار الهمداني(١).

---

(١) هو عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله، القاضي أبو الحسن الهمذاني الإستراباذي، العلامة المتكلم على مذهب الاعتزال، هو الذي تُلقِّبه المعتزلة قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على سواه، ولا يَعنون به عند الإطلاق غيرَه، ولد بين ٣٢٣ و٣٢٥هـ، كان قاضي قضاة الرِّي، وكان إمام أهل الاعتزال في زمانه، ورئيس طائفتهم، وكان شافعي المذهب =

ولأهمية هذا الكتاب وطرافة الموضوعات التي تطرق لها والأسلوب الذي تناولها به كان موضع ثناء العلماء والكُتّاب متقدميهم ومُحدَثيهم، فقد أثنى عليه ابن تيمية والذهبي وابن كثير وابن العماد وابن شهبة، وكتب عنه العلامة محمد زاهد الكوثري في مقدمة «تبيين كذب المفتري» ما يلي: «ولم نر ما يقارب كتاب تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار في قوة الحجاج وحسن الصياغة، في دفع شكوك المشكِّكين».

وقال محقق الكتاب الدكتور عبد الكريم عثمان في مقدمته: «والحق أننا نستطيع أن نعد هذا الكتاب الأول من نوعه في موضوعه، ولا نعلم بين ما وقع في أيدينا ما يفوقه أو يصل إلى مرتبته».

وقد ذكر القاضي في أكثر من موضع من الكتاب أنه قد كتبه سنة ٣٨٥هـ للهجرة النبوية.

وقد ركز القاضي وأولى عنايته لدلائل النبوة من القرآن العظيم، ولم يتعرض لدلائل النبوة من السنة النبوية، إلا قليلا، ثم إنه قد توسع في هذا الموضوع، وتطرق إلى أمور كثيرة تتعلق به وتناسبه، لكنه لم يستوعب كل ما حواه القرآن من الدلائل على نبوة محمد ﷺ، بل قد أتى على جملة كبيرة منها.

والقاضي كما ركز أعظم تركيز على موضوعه الأصلي دلائل النبوة، كذلك

= في الفروع، له المصنفات الكثيرة في طريقة المعتزلة وفي أصول الفقه، قال ابن كثير: «ومن أجلّ مصنفاته وأعظمها كتاب دلائل النبوة في مجلدين أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة»، توفي في ذي القعدة سنة ٤١٥هـ بالرِّي، ودفن في داره. انظر: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٤٢. وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكي، ج٥، ص٩٧. وطبقات الشافعيين لابن كثير، ص٣٧٣.

قد رأى أن من واجبه أن يستطرد ويتطرق إلى موضوعين آخرين هما من الأهمية بمكان، وأن يوفيهما حقهما من العناية والتركيز.

الموضوع الأول: موضوع الإمامة وخلافة الخلفاء الثلاثة بعد رسول الله ﷺ، حيث بين بالدلائل النقلية والبراهين العقلية بطلان مذهب الرافضة والباطنية في قولهم بأن الخلافة بعد رسول الله ﷺ كانت حق علي رضي الله تعالى عنه وأن الصحابة قد ظلموه واغتصبوا حقه.

وبيَّن بهذه المناسبة الصلة الوثيقة التي كانت تقوم بين أهل البيت عامة وعلي خاصة، وبين إخوانهم من المهاجرين والأنصار، وأثبت بالدلائل التاريخية الوثيقة أنهم كانوا إخوة متوادّين متحابين متناصرين على عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كما كانوا كذلك على عهد رسول الله ﷺ.

واتهم الباطنية والرافضة بأنهما كانتا مستغَلَّتَين من الملحدين المنافقين، إذ تستر هؤلاء بالباطنية وتظاهروا بالتشيع لعلي رضي الله عنه لخدمة أغراضهم في تحطيم الإسلام عن طريق تفريق المسلمين وإظهار الصحابة بمظهر المعتدين الخارجين على حدود الإسلام، وعدد القاضي منهم عددا من الفلاسفة والكُتَّاب كالحداد[١]، والوراق[٢]،..

(١) لم نقف له على ترجمة.

(٢) لعله يقصد جابر بن حيان أبو موسى الطرسوسي الفيلسوف الكيميائي، قال ابن خلكان إنه تلميذ الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، وقد ألف كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق في الكيمياء وهي خمسمائة رسالة، فتعقَّبه الشيخ صلاح الدين الصفدي بقوله: (وأنا أنزه الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه عن الكلام في الكيمياء، وإنما هذا الشيطان أراد الإغواء بكونه عزا ذلك إلى أن يقوله مثل جعفر الصادق لتتلقاه النفوس بالقبول، ورأيته إذا ذكر الحجر يقول بعدما =

وأبو سعيد الحسن بن علي الحصريّ، وابن الراوندي[1]، وجابر[2]، وابن العميد[3].

والموضوع الثاني: النصرانية وما اعتراها من التحريف والتبديل عبر تاريخها بعد رفع المسيح، فقد خصها بتفصيل طويل طريف، بين فيه مراحل التحريف

= يرمزه: وقد أوضحته في الكتاب الفلاني، فيتعب الطالب حتى يظفر بذلك المصنف المشؤوم فيجده قد قال: وقد بيَّنتُه في الكتاب الفلاني، فلا يزال يُحيل على شيء بعد شيء)، ثم نسب إلى بعض الفضلاء شعرا في جابر المذكور:

هـــذا الـــذي بمقالِـــهِ غـــرَّ الأوائـــلَ والأواخـــرْ

مـــا أنـــت إلا كاســـرٌ كـــذَب الـــذي ســـمَّاك جابـــرْ

وقال: (وتصانيفه في هذا الفن كثيرة وليس تحتها طائل). توفي بطرسوس في حدود ١٩٠هـ، وقيل ١٦٠هـ تقريبا. انظر وفيات الأعيان: ج١، ص٣٢٧. والوافي بالوفيات: ج١١، ص٢٧، ٢٨. وفوات الوفيات: ج١، ص٢٧٥. وسلم الوصول إلى طبقات الفحول: ج١، ص٤٠٥.

(١) هو أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، ذكره القاضي في الطبعة الثامنة من رجال الاعتزال، وذكر أنه ألحد وخرج عن الدين كما ذكر أنه يقال بأنه تاب آخر عمره. من كتبه التاج في الرد على الموحدين، والدامغ في الرد على القرآن، والفريد في الرد على الأنبياء. المنية والأمل ٩٢. **عثمان**

(٢) أبو عيسى محمد بن هارون الوراق المتوفي سنة ٢٤٧هـ. منهج المقال ٣٢٨. **عثمان**

(٣) هو أبو الفضل محمد بن العميد أبي عبد الله بن الحسين بن محمد الكاتب، المعروف بابن العميد، وزير ركن الدولة الحسن بن بويه، كان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم، وأما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد في زمانه، وكان يسمى الجاحظ الثاني، لُقِّب الوزير ابن عبَّاد بالصاحب لصحبته إياه، وقد مدحه المتنبي فأجازه بثلاثة آلاف دينار، وكان يُجلس المتنبي في دسته ويَقعد بين يديه فيَقرأ عليه جمهرة ابن دريد، لأن المتنبي كان يحفظها عن ظهر قلب. قال الذهبي: وكان مع سعة فنونه لا يدري ما الشرع، وكان متفلسفا متَّهما بمذهب الأوائل. توفي بالرِّيّ وقيل ببغداد سنة ٣٦٠هـ، وقيل ٣٥٩هـ. انظر: وفيات الأعيان، ج٥، ص١٠٣ ـ ١١٣، ج٧، ص٣١٠. وسير أعلام النبلاء: ج١٢، ص٢١٣.

فيها، وانتهى إلى أن النصرانية بوضعها الحالي لم يبق لها أي علاقة لا بالمسيح ولا بإنجيل المسيح، وإنما هي امتداد للحضارة الرومانية والفلسفة اليونانية، فالروم ـ الذين هم أول أمة تنصرت ـ لم يتنصروا ـ على حسب تحليل القاضي ـ ولكن النصرانية ترومت، فأخذت أخلاق الرومان وتقاليدهم وإباحيتهم، وآراء الفلسفة اليونانية وعقائدها بما فيها التثليث، وهذا التثليث الذي للنصارى قد كان فلاسفة الروم قد نحوا نحوه في أن العقل والعاقل والمعقول تصير شيئا واحدا(١).

بالإضافة إلى ذلك حمل القاضي عبد الجبار على الفلسفة اليونانية عموما وعلى من أخذ بها ممن يسمون بفلاسفة الإسلام خصوصا، وبيَّن أن كتب فلاسفة اليونان التي وصلت إلينا فيها الشيء الكثير من النقص والتحوير والتعديل أجراها أصحاب الأغراض والاتجاهات العقدية المختلفة لتأييد عقائدهم وآرائهم، وأفرد أرسطو بحملة عنيفة وخاصة في كتابه (الآثار العلوية) وانتقض نظريته في الكون والكواكب وما يراه فيها من أنها غير قابلة للقسمة والزيادة والنقصان، وأنها حية عالمة سميعة بصيرة تخلق وترزق وتحيي وتميت(٢).

وانتقد القاضي نظرية الرازي(٣) في اللذة والألم، وقوله: إن الله تعالى لا

---

(١) تثبيت دلائل النبوة ٢/ ٨٠

(٢) تثبيت دلائل النبوة ٢/ ١٩٦

(٣) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي: الفيلسوف الطبيب المشهور، جامع علوم الأولين في الطب، ولد بالرِّيّ قيل سنة ٢٥١هـ، ثم انتقل إلى بغداد، وكان فِي ابتداء أمره يضرب بالعود ويغني، ثم ترك ذلك واشتغل على كبر بكتب الطب والفلسفة، فقرأها قراءة معقِّب على مؤلفيها، فمهر وحذق بها حتى صار إمام وقته في علم الطب، وأحدَ مشهوري علم المنطق والهندسة وغيرِهما من علوم الفلسفة، يقال إن اشتغاله بالطب كان بعد الأربعين من عمره، ودبَّر مارستان الرّي، ثُمَّ مارستان بغداد =

يستطيع أن يخلق الإنسان إلا بالطريق الطبعي ويتهمه بالإلحاد[1].

وأما الكندي[2] فإنه برأي القاضي أحد الملاحدة الذين تظاهروا بالإسلام، وما فتئوا يكيدون له ويمكرون به.

وأما أصحاب النجوم وسائر من يدعي معرفة الغيب فقد كان القاضي شديد

= زمانا، ثم عمي في آخر عمره، له المؤلفات الكثيرة، سمى بعضُهم منها ٢٣٢ كتابا ورسالة، منها كتاب الحاوي في صناعة الطب في نحو ثلاثين مجلدا، قال القفطي: «إلا أنه توغّل في العلم الإلـٰهي وما فَهم غرضَه الأقصى، فاضطرب لذلك وتقلّد أراء سخيفة، وانتحل مذاهب خبيثة، وذمّ أقواما لم يَفهم عنهم، ولا هُدي سبيلَهم». توفي ببغداد سنة ٣١١هـ، وقيل ٣٢٠هـ، وقيل غير ذلك. انظر: الفهرست لابن النديم، ص٣٦٠ ـ ٣٦٤. وإخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي، ص٢٠٦ ـ ٢١٠. وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، ص٤١٤ ـ ٤٢٧. ووفيات الأعيان لابن خلّكان الأربلي، ج٥، ص١٥٧ ـ ١٦١. وسير أعلام النبلاء للذهبي، ج١١، ص٢١٩. ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي، ص٢٣٥، ٢٣٦. وسلم الوصول إلى طبقات الفحول لحاجي خليفة، ج٣، ص١٤٠، والأعلام للزركلي، ج٦، ص١٣٠، ١٣١.

(١) تثبيت دلائل النبوة ٢٩٣.

(٢) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها، ولد ونشأ في البصرة، ثم انتقل إلى بغداد فتعلم واشتغل حتى كان رأسا في الفلسفة ومنطق اليونان والهيئة والتنجيم والطب والأرثماطيقي، وله باع طويل في الهندسة والموسيقى، له في أكثر العلوم تآليف مشهورة من المصنفات الطوال والرسائل القصار، قال عنه القفطي: وكان مع تبحره في العلم يأتي بما يصنفه مقصِّرا، فيذكر مرة حُجَجا غير قطعية، ويأتي مرة بأقاويل خطابية، وأقاويل شعرية، وأهمل صناعة التحليل التي لا تتحرّر قواعد المنطق إلا بها، وقال الذهبي: كان متهما في دينه بخيلا ساقط المروءة، توفي حوالي ٢٦٠هـ. انظر: الفهرست، ص٣١٥. وإخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٧٣ ـ ٢٨١. وعيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٢٨٥ ـ ٢٩٣. وسير أعلام النبلاء، ج١٠، ص٤٦. والأعلام، ج٨، ص١٩٥.

العنف عليهم، ولفت النظر إلى حقيقة بديهية ولكنها لبداهتها قد تغيب عن المرء، وهي أن المنجم يكذب في ألف شيء ويخطئ في ألف شيء، فلا يُحفظ عليه شيء من ذلك، لأن ذلك غير منكر منه، فإذا اتفق له الصواب في شيء واحد تعجب الناس منه وحُفظ لقلته من مثله، ولأنه قد أتى من غير معدنه[1].

وأما نظرة القاضي إلى المعجزات فإنه يؤمن بالمعجزات الحسية التي وردت في القرآن والسنة الصحيحة، ويستنكر موقف البعض كالنظّام من إنكارها، لكنه يرى الإعلام عن الغيوب من أهم دلائل النبوة، ومن أجل ذلك ركز عليه في كتابه أكثر من غيره من دلائل النبوة.

وأما القرآن المجيد فيراه القاضي حجة على صحة نبوة محمد ﷺ من ثلاث نواح؛ فهو حجة من طريق فصاحته وبلاغته، وهو حجة لما فيه من الإخبار بالغيوب، وهو حجة لما فيه من التنبيه على دلائل العقول.

وأما التحدي بالقرآن فهو مقصور على جانب فصاحته وبلاغته عند القاضي، وذلك لأن التحدي يتعلق بجميع سور القرآن، والإخبار بالغيب والتنبيه على دلائل العقول مقصوران على بعض سور القرآن وبعض آياته.

والقاضي في كتابه هذا تثبيت دلائل النبوة يركز على إثبات نبوة محمد ﷺ بصورة خاصة، ويلح على جانب الإخبار عن الغيوب الواردة في القرآن، وقد يتعرض لما ورد في السنة النبوية منها، فيتتبع هذه الأخبار مبينا إلى أي حد يُصدِّقها الواقع والتاريخ.

وعندما يورد القاضي الآيات المتعلقة بمعجزات الرسول ﷺ، يردفها بما هو

---

(١) تثبيت دلائل النبوة ١٨٨

بيان لها أو بما هو تأييد لها من السنة النبوية، ومن السيرة الطاهرة، ومن أحداث التاريخ، ويُطنب في هذا الأمر ويسهب فيه حرصا منه على وفاء هذا الموضوع الأهم حقه من البيان والتأييد.

وأصل كتابنا هذا هو تهذيب لما يتعلق بدلائل النبوة من كتاب القاضي عبد الجبار.

وكتاب القاضي كتاب كبير مطبوع في مجلدين، والقاضي لم يقتصر فيه على موضوعه الأصلي دلائل النبوة كما بينا آنفا، بل قد تشعبت أطراف كتابه، وتعددت مناحيه، وطالت استطراداته الكثيرة، وإن كانت لاستطراداته من الأهمية ما لها.

ولكن لأجل أن موضوع الكتاب الأصلي هو حاجة بشرية وضرورة إنسانية، ومن أجل أن شباب العصر معرَّضون للشبه والشكوك في الإسلام عامة وفي موضوع النبوة خاصة من قبل قوى عالمية عن طريق أفراد وجماعات مستخدَمين لهذا الغرض، وقد صار الناس اليوم حتى الباحثين منهم إلا من رحم الله عازفين عن قراءة الكتب المطولة لأسباب يطول بيانها.

من أجل ذلك مست الحاجة إلى تهذيب هذا السفر العظيم الفريد في بابه، الوحيد بين أترابه، وإلى الاقتصار منه على ما يكون إسعافا لحاجة هؤلاء الشباب، وعلى ما يكون دواء ناجعا لأدوائهم التي ابتلوا بها، ويكون توفيرا لوقتهم واختصارا لطريقهم.

وذلك أنه بإثبات نبوة محمد ﷺ بالدلائل العقلية والحجج المنطقية تثبت صحة الأديان السماوية ونبوة الأنبياء عامة، وتثبت صحة الإسلام بكل تفاصيله التي جاء بها محمد ﷺ خاصة، كما يتبين به بطلان كل ما يخالفه من الأفكار والآراء والمذاهب البشرية التي ابتلي بها الناس منذ القدم ولا سيما في هذا العصر.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن عملية التهذيب هي غير عملية الاختصار، فالمختصِر متقيد بفكرة الأصل، له أن يحذف وأن يغير العبارة إلى ما يراه أفضل، لكن ليس له أن يضيف إلا مع الإشارة إلى ذلك، وأما المهذِّب فهو حر فيما يريد أن يفعله ممايتعلق بالأصل فله التغيير والحذف والإضافة.

وقد أضفت إلى هذا المهذَّب مقدمات تعتبر تتميما لموضوعه وتكميلا لغايته وهدفه. تعرضت فيها للأمور التالية:

موضوع وجود الله تعالى وركزت عليه، وموضوع النبوة إمكانها وحاجة البشر إليها، ومن هم أحق الناس بسياستهم، وتقسيم المعجزات إلى أقسامها المختلفة، وبيان أن المعجزة الحسية لا بد في دلالتها على صدق الرسول أن تكون مدعومة بالمعجزة المعنوية، والفارق بين المعجزات وغيرها من الخوارق، وبيان أهم أوجه الإعجاز في القرآن.

وأبقيت على تعليقات محقق الأصل الأستاذ عبد الكريم عثمان مما يتعلق بهذا المهذَّب، فإنها تعليقات تستحق الإبقاء.

وأضفت إليها تعليقات أخرى رأيت الحاجة ماسة إليها معظمها متعلقة بالآيات الواردة في الكتاب تفسيرا وشرحا لها.

وأضفت أيضا إلى الأصل في بعض المواضع عبارات بها يتم تهذيبه، وغيرت من بعض عباراته.

وحذفت عبارات له مبنية على مذهب المصنف مذهب الاعتزال. وذلك حتى يكون هذا المهذب للمسلمين عامة لا يخص طائفة منهم ولا أهل مذهب، بل قد أردنا لهذا الكتاب أن يكون لبني آدم عامة، لا يخص أهل دين ولا أمة من الأمم.

وأمـا التخريـج والتوثيـق للأحاديـث والآثـار الواردة فـي هذا الكتـاب ما عدا مـا قـام بهـا محقـق الأصـل عبـد الكريـم عثمـان فهي مـن عمـل صاحبنا الأسـتاذ محمـد غـازي الداغسـتاني، وقـد رمزنـا إلى عمل عبـد الكريـم عثمـان بـ**(عثمان)** فـي آخـر تعليقاته.

وأخيرا أشكر الأخوة الأفاضل: الأستاذ أحمد ابراهيم عيد المصري، والأستاذ محمد غازي الداغستاني، والطالب النجيب مؤمن الحسيني المصري على ما قدموه من خدمات جليلة لهذا الكتاب، بارك الله علينا وعليهم، ووفقنا وإياهم إلى النية الطيبة والعمل الصالح وحسن الختام، وأكرمنا وإياهم بالحسنى وزيادة.

***

بيان أن الأديان مؤسسة على أصلين: الإلهية والنبوة وأنها لا تتم ولا تثبت إلا بثبوت النبوة

مما هو جلي عند كل عاقل أن الأديان السماوية ـ والدين لا يكون إلا سماويا[1] ـ مؤسسة على أصلين:

الأصل الأول: الإيمان بالله تعالى، أي الإيمان بذات علية[2] متصفةٍ بالحياة والعلم المطلق والقدرة الشاملة، خالقةٍ للعالم وما فيه.

الأصل الثاني: الإيمان بالرسالة، أي الإيمان بأن الله تعالى قد أرسل للعقلاء من البشر رسلا منهم يبلغونهم عن الله تعالى ما أوجبه عليهم من الإيمان بالله تعالى وبصفاته، وما أوجبه الله تعالى عليهم من القيام بوظائف عبادته وأداء حقوقه عليهم، ومن القيام بما شرعه لهم من القوانين والأصول التي وضعها للتعايش فيما بينهم مما يتعلق بالأخلاق والمعاملات.

أما الأصل الأول: وهو الإيمان بالله تعالى فلا يختلف في أصله العقلاء سواء كانوا من التابعين للأديان أو من غيرهم، والناس كلهم مؤمنون بالله بطريقة من

---

(١) وأما ما سماه بعض الناس بالأديان الوضعية فليست بأديان وإنما هي أفكار ومذاهب إنسانية، فقد عرف العلماء الدين بأنه وضع إلـٰهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ما فيه سعادة دنياهم وأخراهم.

(٢) يعبر البعض بدل ذات علية بقوة علية، وهو تعبير غير صحيح لأن القوة عرضٌ يحتاج إلى محل يقوم به، وصفةٌ تحتاج إلى الموصوف.

الطرق صحيحةً كانت أو باطلة، وهو الأكثر، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] إلا ما شذ منهم من الملاحدة الذين هم دائما أقلية في التاريخ الإنساني، من أجل ذلك نرى الكثرة الكاثرة من الفلاسفة غير التابعين للأديان نراهم من المؤمنين بالله تعالى بطريقة من الطرق، ولم ينكر وجودَ الله تعالى ولم يتشكك فيه إلا قلةٌ قليلة منهم اعترضت أمامَهم بعض الشبه والشكوك الضعيفة التافهة وراجت عليهم، فلم يستطيعوا التغلب عليها بسبب قِصَر عقولهم وضعفها، وبسبب عدم إخلاصهم، أو عدم بذل جهدهم في الوصول إلى الحقيقة حتى يقفوا على بطلان هذه الشبه والشكوك، ويتحققوا من تَهَافُتها.

وذلك أن من عادة الله تعالى أنه كلما كانت الحاجة الإنسانية إلى الشيء ـ ماديا كان أو معنويا ـ أكثر يكون وجوده وتوفره أكثر، مثلا الحاجة الإنسانية إلى الهواء أكثر من كل شيء، ولو انقطع الهواء عن الإنسان دقيقة واحدة اختنق وهلك، فكان الهواء متوفرا في كل محل، وبعد ذلك تأتي حاجة الإنسان إلى الماء والمواد الأولى من الغذاء كالخبز، وهذه المواد متوفرة في كل مكان يحل فيه الإنسان إلا في الأحوال النادرة، وكذلك وجود الله تعالى من أجل أن الإيمان به هو الأصل الأول في الأديان جعل الله الدلائل عليه كثيرة خارجة عن الحد والحصر ومتوفرة، كما جعلها واضحة جلية بحيث إذا توجه العاقل إلى إدراكها وحاول ذلك بإخلاص وحياد لم يغب عنه قسم كبير منها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال القائل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ

وأقرب هذه الدلائل إلى العاقل هو نفسُه، وما اشتملت عليه، من عقله وروحه وحافظته ومداركه ومشاعره واستعداداته، ومخه وقلبه ورئته وعينه وأذنه وأنفه وفمه ولسانه ويده ورجله وما بين رجليه، إلى غير ذلك، وما حواه كل واحد من هذه الأمور من النظام العجيب الغريب الذي يناسب ما خُلق العضو له، وبه تتم فائدة ذلك العضو، وعندما يختل نظام أي عضو من هذه الأعضاء تختل فائدة ذلك العضو، وقد لفت الله تعالى نظر الإنسان إلى هذه الأعضاء وإلى هذه الأنظمة وإلى التفكر فيها بتعبير عجيب يُلجئ قارئه وسامعه إلى هذا التفكر حيث قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وتفاصيل هذه الأنظمة لا تفي ببيانها عشراتُ المجلدات.

والإنسان يعلم أنه مخلوق، ومن المقرر في عقل كل إنسان أن المخلوق لا بد له من خالق، كما يعلم بوجود هذه الأنظمة العجيبة فيه وفي كل أعضائه، ومن المقرر في عقله أيضا أن النظام لا بد له من منظِّم، فتم بهذا الطريق الواضح الجلي الدليل العقلي والبرهان القطعي على وجود الله تعالى.

ومن أجل كثرة الدلائل على وجود الله تعالى ووضوحها وجلائها وتوفرها في كل شيء لم يجعل الله العذر لأحد من العقلاء في عدم معرفة الله تعالى بعد بلوغ دعوة الرسول إليه، وكذلك قبل بلوغ الدعوة عند المعتزلة ومعظم الماتريدية، فإنهم قالوا بوجوب معرفة الله عقلا، بمعنى أنه يجب على العاقل البالغ معرفة الله تعالى ولو لم يسمع بدعوة نبي من أنبياء الله لوجود العقل الكافي في ذلك، وأما الأشاعرة وبعض الماتريدية فقالوا: لا تجب معرفة الله إلا عند بلوغ دعوة الرسول إلى العاقل واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد اعتنى الله تعالى بإيراد أنواع كثيرة من هذه الدلائل في كتابه المجيد على

وجه الإجمال على طريقة يفهمها وينقاد لها ويرتاح إليها كل العقلاء عوامُّهم وخواصُّهم أذكياؤهم وأغبياؤهم، وركز عليها وكررها، وذلك لأن من عادة الله تعالى في كتابه المجيد عند بيانه للعقائد التي أوجب على المكلف الإيمان بها أن يَقرنها بدلائلها العقلية التي ينقاد لها العقل ويرتاح إليها، وليس من عادته تعالى أن يقسر العقول قسرا على الإيمان بما أخبر عنه وبيَّنه من العقائد بدون بيان موافقتها للعقول، وبدون إيراد الدلائل العقلية التي تُثبِتها وتُضطر العقولُ إلى الانقياد لقبولها، كما أن من عادة الله تعالى في كتابه عندما يبين الأحكام التكليفية العملية أن يتعرض لبيان الحِكَم والمصالح المترتبة على هذه الأحكام الراجع نفعها إلى العباد، حتى يكون تقبلهم لها أقوى، وإقبالهم على العمل بها أشد.

قلنا آنفا: إن الإيمان بالله تعالى لم يختلف في أصله العقلاء، فقيدنا بقولنا: في أصله، لأن العقلاء قد اختلفوا في صفات الله تعالى، وفيما يجب له تعالى من الصفات وما يمتنع له وما يجوز له منها، قد اختلفوا في هذا اختلافا ذريعا منتشرا، فهذا يشرك بالله تعالى غيره، وهذا يوحده، وهذا يثنّيه، وهذا يثلّثه، وهذا لا يصفه بصفات الكمال، وهذا يصفه بصفات النقص، وهذا يقيسه بخلقه ويُجري عليه أحكام المخلوقين وصفاتهم وخصائصهم، فهذا يجسّمه وهذا يشبّهه، وهذا يسند إلى الله تعالى مجرد الخلق للعالم، ويرى أنه قد ترك الناس بعد ذلك سدى بدون أن يرسل إليهم الرسل، وينزل عليهم الشرائع ويكلفهم بالأحكام.

هكذا اختلف العقلاء الذين لم يتّبعوا الأديان أو اتّبعوا الأديان الباطلة المحرفة، هكذا اختلفوا في تفاصيل صفات الله تعالى وما يجب له وما يمتنع له وما يجوز له من الصفات، وما منهم من أحد إلا وقد قصر عن معرفة تفاصيل ذلك، وعجز عقله

عن الوصول إليها على ما هي عليه أي على الوجه الحق، وضل في ذلك وغَوَى؛ ولم يصب الحق والحقيقة فيها إلا من اتبع أنبياء الله تعالى ورسله اتباعا صحيحا، وذلك لأن وجود الله تعالى وإن كان من الوضوح والجلاء على الوجه الذي وصفناه، وكانت العقول مدركة له بسهولة وبدون عناء، لكن معرفة تفاصيل صفات الله تعالى معرفة صحيحة كاملة من مَحار العقول، ومما تبقى العقول دونها عاجزة قاصرة حائرة، ومن أجل ذلك اختلف فيها العقلاء والفلاسفة الذين اعتمدوا على عقولهم المجردة وأعرضوا عن الوحي، اختلفوا فيها اختلافا شديدا، واتّبع كل واحد ظنه، وقد قال الله تعالى عن أمثال هؤلاء آمرا بالإعراض عنهم وعن مذاهبهم الباطلة: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم ٢٨ ـ ٣٠].

وذلك أن من حكمة الله تعالى أنه قد كرّم الإنسان بنعمة العقل وفضّله به على كثير ممن خلق تفضيلا، ومن كمال حكمته تعالى أنه لم يكرمه بعقل يستغني به في إدراك الحقائق عن وحيه، وعن اتّباع أنبيائه ورسله، بل كرّمه بعقل عاجز وقاصر، فيخطيء ويصيب، ويتعلم ويستشير، ويزداد كل يوم علما، وذلك حتى يشعر بعجزه وضعفه أمام خالقه، وبحاجته وافتقاره إليه، ويعترف بعبوديته لربه وينقاد لوحيه، ويتبع أنبياءه ورسله، فيسعد بذلك في دنياه وعقباه.

وأما الأصل الثاني: وهو رسالة الرسل من الله تعالى للعقلاء فهي حاجة بشرية ورحمة من الله تعالى ولطف منه بعباده، بها تتم نعمة العقل وتكتمل فائدته ونفعه لذوي العقول، فإن العقول من أجل كونها ضعيفة عاجزة قاصرة لا يتم لها إدراك

الحقائق سواء كانت هذه الحقائق متعلقة بالدنيا وبالتعايش الفردي والجماعي، أو كانت متعلقة بالدين وبمعرفة الله تعالى، لا يتم للعقول ذلك ولا يسعد أصحابها بها إلا إذا سارت هذه العقول في ضوء وحي الله تعالى الذي هو الحق المطلق، وانقادت لرسل الله وأنبيائه، واتبعت ما جاؤوا به من عند الله تعالى من المعارف والحقائق والعقائد والشرائع والتكاليف، وإلا كان العقل وبالا على صاحبه، وكان مصدر ضلاله وسبب شقائه في دينه ودنياه، وفي دنياه وعقباه.

من أجل هذه الحاجة الماسة الشديدة للإنسان إلى وحي الله تعالى وإلى رسله كان من رحمة الله تعالى بعباده ومن لطفه بهم أنه لم يُبق الإنسانَ في يوم من الأيام بدون نور الوحي وبدون نبوة، فجعل الله أولَ إنسان ـ وهو سيدنا آدم عليه السلام ـ أولَ أنبيائه، ثم أرسل رسله تترى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وذلك حتى تتمّ الحجة البالغة لله تعالى على الناس، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فحجة الله على عباده لا تتم وتكليفه لهم لا يتحقق بعد تكريمهم بنعمة العقل إلا بإرسال الرسل، قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ولكن من أجل أنه من السهل الميسر لكل أحد أن يدّعي الرسالة عن الله تعالى زورا كما قد حدث هذا كثيرا في التاريخ الإنساني من أجل ذلك لم يترك الله تعالى أمر رسالته هملا بحيث يستطيع أن يستغل دعوى الرسالة عن الله تعالى الكَذَبة والـمُهَوَّسون، وكان من حكمته تعالى أنْ ضَبَطَ الأمرَ، وجعل أمر الرسالة من الميسر لكل عاقل أن يفرق بين الصادق في هذه الدعوى عن الكاذب فيها، فأقام الله

تعالى على صدق الصادق في هذه الدعوى آيات وبينات كثيرة من نفسه ومن خارج نفسه، اختصه بها لا يشاركه فيها غيره، تدل هذه الآيات دلالة قاطعة على صدقه في دعواه، وعلى أنه مؤيَّد بهذه البينات من عند الله تعالى تصديقا له في دعواه، قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومن أجل أن الرسالة هي الأصل الثاني الذي قامت عليه الأديان السماوية جعل الله الآيات والبينات الدالة على صدق الرسول في دعواه الرسالة عن الله تعالى من الكثرة والوضوح الشديد بحيث لا يلتبس الأمر فيها على العاقل، ولا يبقى عنده شبهة في صحة هذه الدعوى عندما يتوجه إلى الأمر بصدق، ويحاول إدراك الحقيقة بجد، ويترك العصبية والكبر والهوى، وهذه الأمور الثلاثة هي التي تحول دون إدراك الحقيقة، وتكون سببا للعناد وعدم الانقياد للحق بعد تبينه.

ومن أجل كثرة دلائل النبوة ووضوحها وجلائها لم يجعل الله لأحد من العقلاء بلغته الدعوة العذرَ في عدم التفاته إلى دلائلها وفي تعاميه عنها وفي عدم إيمانه بالرسول الحق. قال الله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] وقال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فعندما تصل الدعوة النبوية لأحد من العقلاء البالغين يصير مكلفا بالنظر في هذه الدلائل، وبالإيمان بالرسول الذي قامت هذه الدلائل على صدقه في دعواه الرسالة عن الله تعالى.

فظهر من البيان الآنف أن الدين لا يكمل والنجاة من العذاب الأبدي لا تتحقق إلا بالإيمان بهذين الأصلين إيمانا صحيحا: الإيمان بالله تعالى على الوجه الذي جاء به رسل الله صلى الله تعالى عليهم وسلم، والإيمان برسالة الله وبرسل الله كلهم وبخاتمهم محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، قال الله تعالى ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وظهر أن الدين مطلقا لا يتم إلا بالإيمان برسل الله، وأن الدين الإسلامي لا يتم إلا بالإيمان برسالة خاتم الأنبياء محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

وبثبوت رسالته يثبت الإسلام كله بكل تفاصيله وفروعه، ويثبت أن كل ما جاء به حق من عند الله تعالى، ولا يحتاج الإسلام في ثبوته بعد ثبوت رسالة محمد ﷺ إلى إثبات أمر آخر.

فالفرق بين الإسلام والكفر هو الإيمان بالرسالة وعدمها، والإيمان برسالة محمد ﷺ وعدم الإيمان بها، وليس الفرق هو الإيمان بالله تعالى وعدم الإيمان به، فإن معظم الكفرة يشتركون مع المسلمين في الإيمان بالله تعالى.

ومن أجل أن الله تعالى جعل محمدا ﷺ خاتم الأنبياء وجعل دينه خاتم الأديان جعله مرسلا إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، ولم يقبل الله من أحد من عباده إلا الإيمان بمحمد ﷺ وبدينه، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الحج: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه:

حدّثنا محمّد بن عبادة، أخبرنا يزيد، حدّثنا سليم بن حيّان، وأثنى عليه، حدّثنا

سعيد بن ميناء، حدّثنا ـ أو سمعت ـ جابر بن عبد الله، يقول: (جاءت ملائكةٌ إلى النّبي ﷺ وهو نائمٌ، فقال بعضهم: إنّه نائمٌ، وقال بعضهم: إنّ العين نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: إنّ لصاحبكم هذا مثلًا، فاضربوا له مثلًا، فقال بعضهم: إنّه نائمٌ، وقال بعضهم: إنّ العين نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجلٍ بنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً وبعث داعيًا، فمن أجاب الدّاعي دخل الدّار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الدّاعي لم يدخل الدّار ولم يأكل من المأدُبة، فقالوا: أوِّلوها له يفقهْها، فقال بعضهم: إنّه نائمٌ، وقال بعضهم: إنّ العين نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا: فالدّار الجنّة، والدّاعي محمّدٌ ﷺ، فمن أطاع محمّدًا ﷺ فقد أطاع الله، ومن عصى محمّدًا ﷺ فقد عصى الله، ومحمّدٌ ﷺ فرقٌ بين النّاس).

ومن أجل ما بيناه من أن الدين عامة ينبني على هذين الأصلين، وأن الدين الإسلامي لا يثبت إلا بثبوت رسالة محمد ﷺ كان تركيزنا في هذا الكتاب على إثبات هذين الأصلين مع تخصيص نبوة محمد ﷺ بمزيد من التركيز والبيان والاستدلال.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

***

ضرورة التحقق من صدق رسالة محمد ﷺ، وبيان أن أوثق البراهين على ذلك البراهين القرآنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأشهد أن سيدنا وشفيع ذنوبنا محمداً رسول الله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد: فإن موضوع هذا الكتاب هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ، وهو موضوع لا يخص بعض أفراد البشر ولا بعض أقوامهم ولا بعض شعوبهم ولا بعض عصورهم ودهورهم، بل هو موضوع يُهِم كل فرد من عقلاء البشر بلا استثناء منذ ادَّعى محمد ﷺ النبوة إلى أن تقوم الساعة.

وذلك أن محمدا ﷺ الذي قد سماه قومه على شدة عداوتهم له بـ(الصادق الأمين) قد ادعى بعد مضي أربعين سنة من عمره لم يتهمه فيها أحد من الأقربين إليه بكذبة واحدة ولا خيانة فذة، ادعى أن الله تعالى قد أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا يُبلِّغهم دين ربهم وشرائعه التي قد شرعها لهم، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن شرعه الذي قد أتى به ناسخ لما مضى من الشرائع، وادعى أن من

آمن به وبرسالته وأطاعه فيها رضي الله تعالى عنه وجعله في سعادة دائمة وأدخله دار الكرامة والخلد «الجنة»، ومن كفر به وعصاه جعله الله تعالى في شقاء دائم وأدخله دار الخزي والعذاب الخالد «النار».

وهـذا الموضـوع أخطـر موضـوع يُهـم كل فـرد من أفـراد البشـر ويعنيـه بعد معرفـة الله تعالى.

فأول واجب على كل عاقل أن يتحققَ من صدق محمد ﷺ في دعواه هذه التي هي أخطر دعوى قام بها أحد من البشر، ويتبيَّنَها ويُولِيَها من الاهتمام أبلغه ومن البحث أصدقه، حتى يطلع على حقيقة الأمر وجَلِيَّتِه.

وعلى العاقل ـ مادام عاقلا ـ أن يترك وهو في سبيل البحث عن حقيقة هذه الدعوى وتمحيصها كل نوع من أنواع الهوى والعصبية حتى يتيسر له الوصول إلى الحكم السليم في هذا الموضوع الخطير، ولماذا الهوى؟ ولمصلحة من يتعصب؟ وعلى حساب من يتزمت؟

قد تكون في الهوى والعصبية مصلحة ما لكن في غير هذا الموضوع، أما هذا الموضوع فالمصلحة الحقيقية فيه لكل فرد أن يترك الهوى ويدع العصبية جانبا، ويدأب في البحث عنه حتى يكون على بينة من الأمر، ويصل إلى كبد الحقيقة، ثم ينطلق مما تحقق منه؛ فإنه ينبني على التحقق من هذا الموضوع تصحيح اعتقاد، وتسديد سلوك، ثم إن المسألة مسألة مصير كل فرد من العقلاء في دنياه وعقباه.

فيجب على العاقل قبل كل شيء أن يكون هذا الموضوع الشغل الشاغل له يبحث ويسأل ويقرأ ويستعين ويستنجد ويستغيث بكل من يأمل فيه العون والنجدة والغوث حتى يقف على جلية الأمر.

هذا الموضوع الذي هو أخطر المواضيع هو موضوع هذا الكتاب:

هل محمد نبي أرسله الله تعالى حقا؟ هل الإسلام وحده هو الدين المرضي المقبول عند الله؟ لماذا لا تكون اليهودية أو النصرانية أو غيرهما؟

هذه المشكلة تأخذ مأخذا غير قليل من كثير من الناس، بل تأخذ مأخذا كبيرا من جم غفير وقطيع وفير من شباب اليوم، وفي المقابل نرى الكثير من الناس منصرفين حتى عن التفكير فيها، وذلك إما لما ران على قلوبهم من الشبه والشكوك المثارة ضد النبوة عامة وضد نبوة محمد ﷺ خاصة من قبل اللذين دأبهم إثارة الشبه والشكوك ضد الأديان عامة وضد الإسلام خاصة، وإما لما يرونه في هذا الانصراف من الارتياح إلى ما تهواه أنفسهم من المتعة واللذة والإباحية، والتخلص من التكاليف الدينية، فينصرف هؤلاء عن التفكير في هذه المشكلة وعن البحث عن الحقيقة فيها خوفا من أن تصدمهم الحقيقة، فتكدر عليهم ارتياحهم، وتثقلهم بالتكاليف الدينية.

وأما الذين تشغل هذه المشكلة بَالَـهُم وتأخذ مأخذا من عقولهم فعامتهم عن السبيل الصحيح إليها عازفون، وعن الصراط المستقيم إليها متنكبون، وذلك لأنه من الطبيعي أن يكون هؤلاء عازفين عن الدليل النقلي والسبيل الادعائي إليها، كما أنه من الطبيعي أن تكون بغيتهم في التوصل إلى الحقيقة هو الدليل العقلي المجرد الذي لا يشوبه نقل وادّعاء، وهم يظنون أن القرآن وما حواه من الدلائل إنما هو من هذا الباب أي مجرد نقل وادعاء وإخبار عن النبوة عامة وعن نبوة محمد ﷺ خاصة، بدون أن يكون فيه دلائل عقلية وبراهين قطعية تلجئ العقل وتضطره إلى الاعتراف بنبوة محمد صلى الله تعالى عليه آله وسلم وبرسالته.

والسبب في ظنهم هذا هو عدم قراءتهم للقرآن أو عدم تدبرهم له، والله تعالى يقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فلا يتذكر منه إلا أولو الألباب الذين يتدبرونه، فهو كتاب هداية لأولي الألباب ولأصحاب العقول الذين يُعمِلون عقولَهم، ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد ٢٤]، فالقرآن كتاب تذكر لأصحاب القلوب المتدبرة المتفتحة. والإنسان عبارة عن عقل متدبر وقلب متفتح متذكر.

والقرآن العظيم عندما يقرأه العاقل بتدبر ويُعْمِلُ في فهمه لَبَّهُ ليتذكر به بقلب متفتح واع ليس عليه أقفاله يَلقَى فيه العجب العجاب، ويُلفِي فيه من الدلائل العقلية القطعية الكثيرة على صحة نبوة محمد ﷺ ما يطمئن لها عقله ويرتاح لها قلبه وينثلج لها صدره مما تغنيه عن غير القرآن.

فمن أجل ذلك آثرنا في كتابنا هذا أن تكون الدلائل الواردة فيه إلا قليلا دلائل قرآنية.

وهذه الدلائل القرآنية كما أنها براهين عقلية قطعية على نبوة محمد ﷺ، هي في نفس الوقت دلائل عقلية قاطعة بأن القرآن كلام الله تعالى العليم الخبير بما كان وبما يكون، أنزله على قلب رسوله محمد، وليس هو من وضع محمد ﷺ بمفرده أو بإعانة من الآخرين، ولا يمكن أن يكون كذلك.

وهذا المنهج الذي انتهجناه في هذا الكتاب كما هو أقوم منهج يطمئن له القلب ويرتاح له العقل وينثلج له الصدر، كذلك هو منهج ينبني عليه تصحيح اعتقاد، وتسديد سلوك، وتَوَثُّق من المصير في الدنيا والعقبى؛ وكذلك هو اختصار للطريق، وتوفير للزمن وللوقت.

وذلك أننا إذا آمنا بصحة نبوة محمد ﷺ يلزم من ذلك الإيمان بكل ما يترتب عليه من الإيمان بكل ما أتى به محمد ﷺ من تفاصيل الإسلام وتفاريع الأحكام، كما يلزم من ذلك رفض كل ما يخالف ذلك جملة وتفصيلا بدون أن نكلف أنفسنا عناء النظر في الجزئيات الكثيرة التي لا تكاد تنتهي.

وهذه المسألة لها من الأهمية ما لها، لا سيما في هذا العصر الذي تعددت فيه الفلسفات وتشعبت فيه المذاهب والمباديء والآراء، فإن مناقشة كل جزئية والبحث عن كل فكر أمر يطول ويطول فالسبيل الصحيح هو التركيز على مناقشة الأساس الذي تقوم عليه هذه الجزئيات، فإذا صح صح ما ينبني عليه، وبذلك نختصر الطريق والمجهود، ونستفيد من الوقت.

وهـذا مـا هدفنـا إليه في هـذا الكتاب، فإنـه إن صحت نبوة محمـد ﷺ بالأدلة العقليـة صـح مـا ينبني علـى هـذا الاعتقـاد جملـة وتفصيـلا، وانهـار مـا يخالفها ويناقضهـا مـن المذاهـب والمبـادئ والآراء جملـة وتفصيـلا، وثبـت أن الإسـلام هـو الحـق الوحيـد وسـبيل النجـاة الفريـد، وأن كل خطـوة فـي غيـر هـذا الطريـق ضـلال وضَياع.

وبذلك تتم الفائدة المتوخاة من أخصر سبيل وأصح طريق.

وهنا أمر آخر من الأهمية بمكان التنبيهُ عليه، وهو أنه إذا ثبت بالدليل العقلي القاطع أن محمدا ﷺ رسول الله حقا إلى جميع الناس فعلى الناس كلهم تصديقه والإيمان بنبوته لاسيما المنتسبون إلى سائر الأديان من يهود ونصارى وغيرهم، وذلك لأنه ما من آية دعتهم إلى الإيمان بأنبيائهم إلا ولرسول الله محمد ﷺ مثل تلك الآية، وأكثر منها، وأعظم منها، وأثبت منها، وأوثق منها، ويفضل جميع الأنبياء

بآيته الكبرى الخالدة الباقية إلى قيام الساعة، وهي القرآن العظيم المشتمل على أنواع وأفراد يصعب حصرها من الآيات والمعجزات، وفي القمة منها تحديه الناس كلهم بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، وتسجيله عليهم بأنهم لا يفعلون ولن يفعلوا، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤]، فلم يفعل هذا أحد من بني البشر إلى يومنا هذا، ولن يفعله أحد إلى يوم القيامة.

وكتابنا هذا وإن كان المقصود الأصلي فيه هو إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ، فإنا رأيناه أن نصدره بقضية إثبات وجود الله تعالى وما يتعلق بها من المسائل المهمة، لأنها كالأصل والقاعدة لمسألة إثبات النبوة، فنقول ومن الله التوفيق:

* * *

إثبات وجود الله تعالى

مقدمة هذا البحث[1]

وتشتمل على تمهيد وثلاثة مطالب:

أما التمهيد: ففي بيان أن الله تعالى واجب الوجود.

والمطلب الأول: في بيان أنه هل للدين أساس من الصحة؟ وهل يهم الإنسانَ درس ذلك؟

ويندرج تحته فصول ثلاثة:

الفصل الأول: بيان أن الدين كما أنه حقيقة هو حاجة بشرية للحفاظ على الأخلاق.

الفصل الثاني: بيان أنه لا يتم بناء الأخلاق على الدين ما لم يعتقد أن الدين حقيقة.

الفصل الثالث: بيان أن العلم بوجود الله وبوجوب وجوده في القمة من جميع العلوم والمعارف.

والمطلب الثاني: في المقارنة بين الإسلام والنصرانية المحرفة، ويندرج تحته فصلان:

الفصل الأول: في بيان أن الأصل الأول لِداءِ إنكار وجود الله تعالى عند

---

(١) هذه المقدمة أخذناها من كتاب (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) لشيخ الإسلام مصطفى صبري، لكن ليس بنص كلامه، بل بتهذيب وحَذف وإضافة والعنونة لمباحثها، وبدون تقيُّد بعبارته.

معظم الملاحدة المعاصرين ولفساد الأخلاق عند عامة الناس هي النصرانيةُ المحرَّفةُ.

والفصل الثاني: في بيان أن الأصل الثاني لذلك الداء تقليدُ المثقَّفين من العالم الإسلامي للملاحدة في الغرب، وقد أوردنا تحته مسائل مهمة متعلقة به.

والمطلب الثالث: في بيان موقف العقل والعلم من الدين، وقد أوردنا تحته مجموعة من المسائل المهمة.

* * *

التمهيد

إثبات وجود الله تعالى ـ الذي هو رأس الدين وأساسه الأعظم وركنه الأول ـ عنوانه المعبر عنه في علم الكلام «إثبات الواجب» لكون وجود الله تعالى الذي يثبته أهل ذلك العلم وجود من يجب وجوده ويمتنع عدمه، أي لا يجوّز العقل عليه إلا الوجود، ويرى عدمَه مُحالًا. ووصف وجوب الوجود وصفٌ خاص بالله تعالى، وأما ما سواه تعالى من الموجودات فكلها ممكنة وجائزة لا ضرورة لا لوجودها ولا لعدمها، وأما الله تعالى فلا يمكن أن لا يكون موجودا، وفَرْضُ عدمه هو فرضُ عدم من يجب وجودُه، وهو تناقض ومحال.

وكون الله تعالى واجب الوجود نعتقده ونجزم به من دون أن نراه مستدلين على ذلك بوجود ما سواه من الكائنات الممكنة الوجود التي نراها ونشاهدها والتي لا يمكن لها أن توجد لولا وجود ذلك الموجود الواجب الوجود ولولا إيجاده إياها.

وهذا القسم من الكتاب مسوق لإيضاح هذا الاستدلال الذي توليناه بتوفيق الله تعالى وعنايته. وقبل الشروع في المقصود وهو إثبات وجود الله نتعرض لبيان ثلاث قضايا نجعلها مقدمة له في المطالب الثلاثة التالية:

المطلب الأول
هل للدين أساس من الصحة؟
وهل يُهمّ الإنسانَ درسُ ذلك؟

هل من الصحيح أن القضاء على فكرة الديانة الراسخة في فطرة الإنسان من تمام تحرير البشر كما يراه بعض الناس في العصر الحديث؟

نحن لا نجهل عندما ندعو كل من يعدّ نفسه عاقلا من أهل التفكير والنظر إلى درس كتابنا هذا، لا نجهل أن من المبادئ العصرية الحديثة المُسَلّمةَ عند فريق من الناس وجوب القضاء على فكرة التدين الراسخة في أذهان الأمم من مبدأ تاريخها، وأن القضاء عليها يعد عندهم من تمام تحرير البشر، ولا ريب في أن هذا المبدأ المُعادي لفكرة التدين مبني على اعتقاد أن الدين بشقيه: الإلٰهية والنبوة لا أساس له من الصحة، وزعْمِ أنه لا وجود لله تعالى إلا في أوهام معتقدي ذلك وأذهانهم.

غير أنه إن كان الله تعالى موجودا، وكانت النشأة الأخرى واقعة بما فيها من محاسبة الإنسان على ما سبق له في حياته الدنيا وجزائه عليها إن خيرا فبالخير وعلى رأسه الإيمان بالله الذي خلقه، وإن شرا فبالشر وعلى رأسه الكفر والإلحاد، وإن كان الأمر على ما يعتقده المؤمنون بالله تعالى، وكان المكذِّبون هم الواهمين المتوهّمين، إن كان الأمر كذلك يكون التدين ومعرفة حقيقة الدين والوقوف على حقائقه في أقصى درجات الأهمية، كما يكون ضلال المنكرين والويل الذي يحيق

بهم أقصى درجات الضلال والويل، وعليه فتكون الحياة الدنيا التي نعقد كل آمالنا عليها ونكرّس كلَّ جهودنا على اجتناء سعادتها واجتناب شقاوتها كالدَّور المدرسي الذي لا يقام لسعادته ولا لشقاوته وزن إلا على قدر ما يفتح لمن يجتازه من باب السعادة أو الشقاوة في الدَّور الذي يأتي من بعده.

وخطورة القضية إنما هي في تحقّق الحياة الآخرة أو عدم تحقُّقها، وهذا هو الذي يجب أن يعنى به العاقل المفكر في عواقب الأمور. وهذا الأمر هو الذي نركز على أصليه اللذين ينبني هو عليهما وهما الإلٰهية والنبوة في كتابنا هذا مقلِّبين وجوه النظر فيهما، مبتدئين بمسألة وجود الله تعالى مالك يوم الدين والدنيا.

نعم من المحال عادة أن يهتم الناس كلهم بما فيهم عامتهم بهذا الأمر، وأن يحققوا هذا الأمر حتى يقتلوه بحثا ويصلوا إلى كبد الحقيقة فيه، فإن عامة الناس في شغل شاغل عن مثل هذا الأمر، وكثير منهم ليسوا بمستعدين لتحقيقه.

لكنه من واجب حكماء الأمم وعقلائها وخاصتها ونخبتها الذين يهتمون بأمر أنفسهم ويسعون لذلك أولا، ويهتمون بأمر أممهم ثانيا، ويسعون لإنقاذ أممهم وإسعادها، ويؤثرون فيهم ويشكّلون الرأي العام عندهم، من واجب هؤلاء القيام بهذا الأمر أوّلا ثم تلقينه للعامة ثانيا، حتى يكون درس أمر الدين من هذه الفئة الخاصة مقبولا عند الجميع، ويصبح ما تقرر بينهم معمولا به عند الكل كما هو الحال في سائر المسائل، وحتى يكون ما يلقنونهم إياه متلقًّى عندهم بالقبول. ويندرج تحت هذا المطلب فصول ثلاثة.

***

الفصل الأول

بيان أن الدين كما أنه حقيقة

هو حاجة بشرية للحفاظ على الأخلاق

ثم إنه لو صرفنا النظر عما يحيق بمنكري الدين من الويلات في دنياهم وأخراهم، فمما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان ضرورة الحفاظ على الأخلاق في الأمم من أجل الحفاظ على أمنها وسعادتها، ثم من أجل تقدمها في حَلَبة الرهان في الحياة الدنيا، ومن أجل أن تقوم حق القيام بواجبها فيه في الذود عن كيانها وكرامتها ووطنها واستقلالها فيه، وهذا ما يقصده شاعر مصر بقوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإنْ همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولا شيئ يعدل الدين في الحفاظ على الأخلاق. نعم لا يُنكر ما للعلم وما للقوانين الحكومية من التأثير في تقويم الأخلاق، لكن تأثيرهما تأثير ضئيل ظاهري ليس له عمق في داخل الإنسان، فإن تأثير القوانين لا يتجاوز الظاهر، وتأثير العلم أدبي بحت، ألا يُرى أن تعميم التعليم في الأمم الراقية لا يغنيهم عن وضع قوانين زاجرة، كما لا ينقذهم من الخواء الأخلاقي؟!

و أما الدين فهو المهذِّب للأخلاق تهذيبا جذريا، والمقوِّم لها ظاهرا وباطنا، والمصلِح لها إصلاحا داخليا عميقا، ومع تأثيره الجذري الداخلي هو مؤيَّد بالقوانين وبالعقوبات الشاملة للظاهر والباطن، مع أن تعميم الدين أسهل من تعميم العلم.

ثم إن من الفلاسفة من يرى تلازما بين الدين والأخلاق، ويرى أن أي

أمة تفتقد الدين تفتقد الأخلاق معه، فقد نفى (اسبنسر Spencer) الأخلاق العلمية، وقال (هنري بوانكريه Henri Poincaré) في كتابه (الأفكار الجديدة): «ليس هناك أخلاق علمية ولن تكون، وإنما يكون العلم مساعدا للأخلاق بالوساطة» ويقول (فيخته Fichte): «إن الدين من غير أخلاق خرافة، والأخلاق من غير دين عبث».

ولم ير (كانت Kant) ضمانا للأخلاق يوثق به غير الدين، حتى إن هذا الفيلسوف انتقد جميع الأدلة المنصوبة لإثبات وجود الله تعالى، وبنى الإيمان بالله تعالى على دليل الأخلاق، فأوشك أن لا يعترف بوجود الله لولا ضرورة الحاجة إلى وجوده لصيانة الأخلاق، ورأى أجدر وصف لمن ينكر وجود الله تعالى أن يقال: إنه كافر بالأخلاق.

والحاصل: أنه لا يتم صلاح الدنيا وسعادتها من غير استناد إلى الدين.

***

الفصل الثاني
لا يتم بناء الأخلاق على الدين
ما لم يُعتقد أن الدين حقيقة

نعم، هناك فريق من المتعلمين والمثقفين يوافقون على أن التدين ضرورة اجتماعية لأدائه إلى الحفاظ على الأخلاق التي لا يتم صلاح الأمم وسعادتها بدونها، لكنهم لا يوافقون على أن الدين حقيقة واقعية، بل يعتقدون أن الدين أكذوبة ينبغي أن يُتَمَسَّكَ بها حتى تكون أساسا تقوم عليه أخلاق الأمم، ويرى

هـذا الفريـق مـن النـاس أن مـن واجـب العامـة أن يكونـوا متدينيـن مخلصيـن في تدينهـم، ومـن واجب الخاصـة مع معرفتهـم بحقائق الأمـور أن لا يتظاهـروا بهذه المعرفـة ويحترمـوا عقائـد الأمـة، وأن يسـعوا للحفاظ عليهـا حتـى لا ينهار صرح الأخـلاق عندهم.

وأقول أولا: إن أداء الدين إلى الحفاظ على الأخلاق يتوقف على اعتقاد كونه حقيقة من الحقائق، فلا يتحقق الإخلاص في الأخلاق إلا بالإخلاص في الدين، وهذا الفريق من الناس إن كانت عندهم أخلاق فهي أخلاق زائفة مشبوهة، بل هذا الفريق من الناس مضطر دائما إلى أن يتصف بأسوأ الأخلاق وبأساس مساويها وهو الكذب والنفاق، بل كثيرا ما يضطر هذا الفريق أن يُدلي بتصريحات في صالح التدين، وأن يتظاهر باحترامه للدين وللمتدينين وبأنه من المتدينين اعتقاديا، ويرى نفسه مضطرا إلى القيام ببعض أعمال المتدينين، ويكون هذا الفريق لا سيما إن كان من رجال السياسة متلوِّنا في أقواله وأعماله وتصرفاته ومعاشرته مع الناس حسبما تقتضي مصالحه، ويكون بذلك نموذجا لسوء الأخلاق، وأسوة سيئة في فساد الأخلاق وفي الكذب والنفاق، يسري هذا الفساد منه إلى من حوله ومن يعاشره ويصاحبه، ويكون سرطانا في جسم أمته ينبغي تجنبه، بل يجب استئصاله، حيث يعتبر هؤلاء مخادعة الناس من حقوق أنفسهم لفقدانهم الدين الذي يدعو إلى رحمة الناس وإنصافهم، ويؤسس بين طبقات الناس المتفاوتة أخوة صادقة.

وهؤلاء قد قسموا محاسن الأخلاق ومساويها بينهم وبين العامة، فاختاروا للعامة أحسنها وصحيحها القائم على التدين، واختاروا لأنفسهم مساويها وزيوفها القائمة على الكفر بالله تعالى.

و أقول ثانيا: أيّ حقيقة هذه التي يعرفها هذا الفريق من الناس ضد الدين ولا يعرفها العامة من الناس؟ أليست معرفتهم المزعومة هذه عبارةً عن الجهل بالحقائق الدينية مع الإعراض عن درسها ونقاشها؟

و إني أدعوهم لكي يقفوا على الحقائق الدينية إلى قراءة مثل هذا الكتاب قراءة تمعُّن، ثم مناقشة ما يحتاج إلى المناقشة من المسائل مع أهل الدُّربة والخبرة في الموضوع.

وأما اختلاف الخاصة عن العامة في العقلية الدينية فهذا هو الداء العُضال العُقام الذي أصيب به الغرب أولا، ثم سرت عدواه إلى الشرق، فقلده الشرقُ فيه حذو القُذّة بالقُذّة عن جهل بالفارق العظيم بين دين الغرب المحرَّف الذي يمجه العقل ودين الإسلام الأصيل المحفوظ عن التحريف والتغيير الموائم للفطرة والعقل.

***

الفصل الثالث

العلم بوجود الله

وبوجوب وجوده في القمة من جميع العلوم و المعارف

ثم أقول: إن كان للعلم عند الإنسان قيمة وخطورة لا يجوز معهما أن يشغله عنه شاغل فمن الضروري أن يكون العلم بوجود الله وبوجوب وُجوده في القمة من جميع العلوم والمعارف البشرية، لأنه على تقدير وجود الله تعالى تكون جميع العلوم مع العقول المهتدية إليها كلها من خزائنه وَجوده.

و يكون عدم الاعتراف بوجوده أشنع ما يتصور وما لا يتصور من سوء الأدب وكفران الجميل.

والعقل الذي امتاز به الإنسان على غيره من الموجودات الطبيعية حتى قال (شاتوبريان Chateaubriand): «إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي» يتطلب من صاحبه أن لا يتفانى في الطبيعيات بحيث تكون الطبيعيات كل همه وتستغرق كل وقته، بل يتطلب من صاحبه أن يفرز من أثمن أوقاته ـ مهما كانت مشغولة ـ قسطا لأن يفكر فيه في منشأه ومصيره والمحيط الذي يتنفس هواءه ويُشبع بصرَه من النظر في أنحائه، فلو وجد أحدُنا نفسه عقب استيقاظه من النوم ذات صباح في صرح لم يره من قبل، وهو أعظم وأفخم وأبدع وأوسع ما يكون، فلا شك أنه يندهش ويكون أول ما يسأل عنه ويبحث عنه مالك القصر، وأهم ما يفكر فيه مهندسه ومُنشِئُه وبانيه. فهل عظمة صرح العالم وسعة حدوده وارتفاع سمكه فوق ما يتصوره المتصورون مغنيةٌ عن أن يكون له مالك يُبحث عنه، وعن أن يكون له مهندس ومنشئ وبانٍ يُفكَّر في وجوده ويُعترَف بسعة إرادته وعظمة قدرته وحكمته وعلمه، ومغنية عن أن يفكر في أن هذا الصرح الأعظم كيف نشأ ومن أنشأه؟!

ومثل هذا الصرح العظيم في ضرورة حاجته إلى الخالق البارئ المصور هذا المخلوقُ العجيب الذي هو العالم الأصغر وهو الإنسان ونشأته وتكوّنه، وما يمر فيه من أطوار، وما يتقدم نشأتَه من مقدمات من الدافع الخفي القوي الذي دفع أبويه إلى اللقاء من أجل بقاء النوع الإنساني من حيث يشعران أو لا يشعران، وهما ليسا بموجدي هذه الغريزة في أنفسهما بل وجداها حاضرة في داخليهما لَـمَّا جاء أوانها، ثم تكوُّن الإنسان في بطن أمه من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام، ثم تحولها إلى خلق آخر في قرار مكين، ثم خروجه من هذا القرار في سبيل سلس أمين، ثم تنقله في أطواره من طفولته إلى صباه إلى سن التمييز إلى البلوغ إلى

الشباب إلى غير ذلك من أطواره التي يمر فيها، أليس وجود هذا المخلوق العجيب ووجود كل واحد من هذه الأحوال والأطوار وتقلب الإنسان فيها من المحال عقلا لولا أن يكون هناك خالق بارئ مصور على كل شيء قدير؟!

و كل واحد من هذه الأحوال والأطوار معجزة، من المستحيل وجوده لولا أن يكون له خالق على كل شيء قدير.

ولا يَمنع من كونها معجزات تعدّدُ أمثالها وكثرتُها، بل كل واحد من الأمثال المتكثرة معجزة مستقلة تنبئ عن الخالق البارئ المصور.

والتفكير في هذه الأمور وفي حاجتها إلى الخالق البارئ المصور هو أول واجب على المكلف كما قرّره المتكلمون، وكان ينبغي أن يشغل هذا التفكير ذهنَ كل عاقل أكثر من أن يشغله أي شيء، لكنه عاق الإنسان عن هذا التفكير أوّلا قدومه إلى هذا العالم طفلا ليس من شأنه الإدراك والتفكير فيه وفي خالقه، ثم عند بلوغه سن التفكير يعوقه عنه تقادم عهده بالعالم وبنفسه وتعوّده على عدم التفكير فيهما، ولولا ذلك لكان كل عاقل منصرفا قبل التفكير في أي شيء إلى التفكير في هذه الأمور لا يشغله عنه شاغل ولا يعوقه عنه عائق.

❃ ❃ ❃

المطلب الثاني
المقارنة بين الإسلام والنصرانية المحرفة

وهو يشتمل على فصلين:

الفصل الأول
لبيان أن النصرانية قد أضرت ببني آدم عامة
وبالمسلمين خاصة
وبيان أنها الأصل الأول لفساد العقائد وللإلحاد،
ولفساد الأخلاق عند عامة الناس

المسألة الثانية: من المسألتين اللتين أردنا الإلمام بهما قبل الدخول في المقصود الأصلي: هي الكلام على النصرانية، والمقارنة بينها وبين الإسلام مقارنة أصلية إجمالية بدون دخول في الفروع والتفاصيل، فإن لذلك مقاما آخر قد وفّى حقه المتقدمون من علماء الإسلام والمتأخرون منهم.

والذي دعانا إلى التعرض لهذا الأمر مع عدم كون هذا البحث من موضوع هذا الكتاب هو أن النصرانية الحالية بعد تحريف المحرفين لأصلها المنزل من عند الله تعالى على سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام[1]:

---

(١) وذلك لأن سيدنا عيسى قد أرسله الله رسولا لبني إسرائيل مصدِّقا للتوراة وعاملا بها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قد أضرت ببني آدم عامة وبالمسلمين خاصة؛ وذلك أن الله تعالى قدر أن تكون للغربيين في الأعصار الأخيرة قوة مادية وغلبة عسكرية وحضارية على أمم العالم، ووافق ذلك أنهم كانوا من قديم الزمان قد اعتنقوا النصرانية المحرفة دينا لهم، فلما تفتحت عقولهم وأخذوا يرتقون في العلوم التجريبية والصناعات، رأى عقلاؤهم أن دينهم الذي هم عليه لا يتفق مع العقل والعلم، وعز عليهم أن يبحثوا لهم عن دين آخر، أو شغلتهم عن هذا البحث مشاغلُهم الكثيرة.

وأما الإسلام ومحاولة دراسته ومعرفة أصوله فقد حال بينهم وبين هذا الأمر الدعايات القديمة الكاذبة المتتابعة ضده من قبل الكنيسة ورجال الدولة، لعداوة قديمة راسخة ترجع إلى عهد ظهور الإسلام، وانتقاصه من أراضيهم وممالكهم، ثم زادها رسوخا زحف الصليبيين على بلاد الإسلام وما جرى فيه من الصدام العنيف ومن المجازر البشرية التي تقشعر منها الجلود، ثم زحف العثمانيين على بلاد النصارى.

والقليل من النصارى الذين درسوا الإسلام درسوه بأعين كلها بُغْضٌ للإسلام، وبعقول شوشها منطق النصرانية، ولما رأى هؤلاء النصارى عدم ائتلاف دينهم بالعقل والعلم، واعتقدوا أن سائر الأديان لا تختلف عن النصرانية في هذا الأمر، عند ذلك ارتد بعضُهم عن الدين، ودعا الناسَ إلى الإلحاد، وكثيرٌ منهم اتخذوا لأنفسهم دينا فلسفيا مبنيا على العقل المحض(١) وهم الإلـٰهيون منهم.

---

(١) وقد فاتهم أن الدين يجب أن يكون معقولا أي متلقىً من العقل بالقبول، ولكن لا يكون عقليا أي مما وضعه العقل الإنساني، وذلك لأن الدين الذي هو إلـٰهي بالطبع يجب أن يأتي من عند الله، ولذلك قال «بول ژانة Paul Janet» في «المطالب والمذاهب»: الدين يتميز بثلاثة أشياء: النبي، والكتاب المقدس، وثالثها نسبته إلى ما وراء الطبيعة والأخلاق. وقال «أجوست سباتييه =

فعندما تفتحت عقولهم و شعر العقلاء منهم بأن دينهم لا يتفق مع العقل والعلم أخذوا يدرسون مسألة الإلـٰهية، وأشبعوها بحثا من غير تعرض لمسألة النبوة والوحي، كما قال العالم الكبير مترجم كتاب بول ژانه Paul Janet إلى التركية، فأوشكوا أن يتفقوا على القطع بوجود الله تعالى مع الاختلاف في حقيقته، وأما الملاحدة والماديون منهم فقد سَبَحوا في مشكلة بعد مشكلة لإيضاح وجود الكائنات وما انطوت عليه من نظام، ووقعوا في حيرة من أمرهم عند محاولة تفسيرهم للحياة والعقل والإرادة بالأسباب الطبيعية.

وفضلا عن هذه الموجودات العالية (الحياة والعقل والإرادة) فإنهم ـ بالرغم من كونهم ماديين ـ لم يفهموا ماذا يَفْرُقُ بين الأجزاء الفردة للمادة، كما عجزوا عن بيان المبدأ الذي يوضح ما بينها من المناسبات والمواصلات الحركية وغير الحركية.

والذين فهموا ذلك من الماديين اعترفوا بأن المادة مستندة إلى الله تعالى الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

فلا مانع من القول بأن فكرة الإلـٰه الواحد والاعتقاد به هي العقيدة السائدة الناجحة في الغرب بين علمائهم، وهي العقيدة التي تتفق مع الفطرة كما تتفق مع

= August Sabatier»: «إن الديانة الطبيعية تقصر أن تكون ديانة، وذلك لأنها تحرم الإنسان من الصلاة، فتدع الله والإنسان بعيدين أحدهما عن الآخر، فلا تكون بينهما صلة صحيحة، ولا مخاطبة باطنية، ولا عمل إلـٰهي في الإنسان، ولا رجوع من الإنسان إلى الله. وإذا تعمقت في جوهر هذه الديانة وجدتها جزءا من الفلسفة، ولدت في عهد سلطان المذهب العقلي «الراسيوناليزم Rasyonalizm»، وهو مذهب فلسفي ينكر الوحي ويدعي تعليل كل شيء بالعقل، وأصولها الثلاثة ليست إلا موادا ثفلية لا روح فيها، بقيت في قاع البوتقة التي ذابت فيها جميع الديانات المادية».

ما جاء به الأنبياء ودعوا إليه من التوحيد، لكن بدون أن يؤمن هؤلاء العلماء بنبوة الأنبياء ورسالتهم من عند الله تعالى.

***

الفصل الثاني

في بيان أن الأصل الثاني لداء الإلحاد المنتشر في العالم الإسلامي هو تقليد المثقفين في العالم الإسلامي للملاحدة في الغرب

وقد أوردنا تحته مسائل مهمة متعلقة به

وهناك شريحة كبيرة في العالم الإسلامي من المثقفين ثقافة غربية قد تورطت في تقليد الغرب تقليدا أعمى، قلدته في الإلحاد المطلق أو في إنكار النبوة والرسالة، وقد ورطهم في هذا التقليد أمران:

الأول: جهلهم بالإسلام وعدم دراستهم له.

والثاني: ولوعهم بفلسفة الغرب، وقراءتهم ما وصل إلى أيديهم من كتب الفلسفة ومن غير تثبت في اختيار الكتب المؤلفة فيها، ومن غير تفرغ لها وتعمق في دراستها بعد الاختيار، هذا مع إعوازهم إلى الاستقلال الفكري لتمييز الحق من الباطل عند دراستها، بل يقرأونها منبهرين بها، ومنهزمين أمامها هزيمة نفسية.

وأصل البلاء أمران: الأول: كون دين الغرب النصرانيةَ المحرَّفة التي لا تتفق مع العقل والعلم.

والثاني: الولوع بتقليد الغرب والتفاني فيه بسبب الانبهار بما يجري فيه.

فعقل الغرب المنفتح وعلمه المتقدم في خصام من دينه المحرَّف المبدل المنحرف عن سبيل العقل، وليس في الشرق المسلم شيء من نوع هذه الخصومة إلا في عقول مقلدي الغرب تقليدا أعمى، الذين لا يعلمون من الإسلام إلا اسمه، فتراهم يجاهِرون بالخصومة بين الإسلام والعقل، وبين الإسلام والعلم تقليدا لموقف الغربيين من دينهم.

ومما يجب التنبيه عليه أن مشكلة الخصومة مع العقل والعلم لا وجود لها في المسيحية التي جاء بها سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام من عند الله تعالى، فإنها كالإسلام متفقة مع العقل والعلم ومع المباديء الصحيحة، ومن واجب المسلم الإيمان بها كما قال تعالى في صفة المسلمين: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [البقرة: ٤].

وإنما المشكلة في النصرانية المبتدَعة بعد سيدنا المسيح عليه الصلاة والسلام التي أُسست على التثليث، وعلى رفع المسيح فوق منزلة النبوة، فهذه النصرانية هي التي يناوئها الإسلام، ويناوئها العقل والعلم، وتناوئها المسيحية النازلة من عند الله تعالى. فإن هذه الديانة ديانة وضعية ولا يجوز عدها من الديانات المنزلة الإلـٰهية السماوية.

ومن أجل هذه الخصومة البواحة بين هذه الديانة المحرفة الوضعية وبين العقل والعلم نرى الفلاسفة الغربيين اعتبروا الإلـٰهية مطلبا من مطالب الفلسفة، وأفاضوا في الكلام على وجود الله تعالى، فأثبته من أثبته منهم وأنكره من أنكره، من غير

تعرض منهم لا للتثليث ولا لمسألة النبوة، حيث لم يتصدوا لهما ولم يعدوهما من المطالب الفلسفية كما اعتبروا الإلـٰهية منها، وعدوا الحياة الآخرة أيضا مطلبا من مطالبها.

وليس ذلك إلا لما علمه هؤلاء الفلاسفة وتحققوا منه من أن التثليث الذي هو أصل النصرانية المحرفة وأن النبوة التي توارثوها في المسيح على أنها نوع من الإلـٰهية، عقيدة واضحة البطلان بينة الفساد لا تستحق أن تكون من مطالب الفلسفة، ولا أن يبحث عنها في العلوم الفلسفية حتى على وجه النفي والإنكار، لوضوح عدم قبول العقل والعلم لهذه العقيدة، ولبداهة ذلك، والبديهيات ليست من المطالب الفلسفية.

وليس ذلك لأن العقل يقف دونها ويعترف بالعجز عن إدراكها ويعتبرها فوق العقل ووراء إدراكه، بل لأن العقل يمج هذه العقيدة ويرفضها ويتعارض معها كل التعارض، فإما أن يتخلى الإنسان عن عقله أو يتخلى عن الإذعان لهذه العقيدة ولقبولها، ثم سحب هؤلاء الفلاسفة حكم النبوة المتوارثة عندهم على النبوة مطلقا، فلم يتعرضوا لها أصلا.

وقد تخلى النصارى عن عقولهم حيث أذعنوا لهذه العقيدة واعتبروها أصل دينهم، ثم حاولوا التخفيف من وطأة هذا الباطل على عقولهم مرة بدعوى: أن عدم الائتلاف مع العقل أمر لا يخص الديانة النصرانية بل يعم جميع الأديان، فخففوا المصيبة عن أنفسهم بإشراك غيرهم فيها، والمصيبة إذا عمت هانت، ومرة أخرى بدعوى: أن الدين فوق العقل، وليس من مُدرَكاته.

***

الدين الصحيح موافق للعقل؛ لا يخالف العقل، وليست أصوله فوق إدراكه:

وكلا الدعويين باطلتان؛ أما الدعوى الأولى: وهي دعوى أن الدين يخالف العقل ويناقضه فإنما تنطبق على الأديان الباطلة، وهي الأديان الوضعية أو المحرفة، والمحرفة أيضا وضعية إلا ما بقي فيها من بصيص الأصالة مغمورا بتحريفات المحرفين، ومن أجل هذا البصيص الباقي فيها وضع الإسلام لها أحكاما خاصة وعامل أهلها معاملة خاصة.

وأما الديانة السماوية الباقية على أصالتها وصحتها فهي بريئة من هذه التهمة الباطلة والوصمة الظالمة، وذلك أن العقل أعظم هبة كرم الله بني آدم بها. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وبه امتاز الإنسان عن بقية الموجودات والحيوانات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠] يريد آدم عليه السلام.

والعلم الذي هو نتيجة العقل وأثره المترتب عليه هو من أعظم ما امتن الله تعالى به على عباده حيث قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [القلم: ٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] في آيات كثيرة بهذا المعنى.

وأما الدين فهو «وضع إلٰهي نازل من عند الله على ذوي العقول من أجل هدايتهم وإسعادهم في دنياهم وعقباهم». فالعقل والعلم والدين الصحيح كلها من عند الله، أكرم الله تعالى بها عباده وامتن بها عليهم، والله تعالى عليم خبير لا يناقض نفسه، ولا يُتصور فيما نزل من عنده التعارض والتناقض.

وأما الدعوى الثانية: وهي دعوى أن الدين فوق العقل، وليس من مدرَكاته،

فهي كالدعوى الأولى ليست في صالح الدين من شيء، ولا يصح لعاقل أن يستند إليها في تسويغ الإيمان بالدين الغير المعقول وفي تقبله واعتناقه، بل هي نفسها دليل على بطلان هذا الدين الذي تقال فيه وتنطبق عليه.

وذلك أن أسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والعقل، والخبر الصادق.

والخبر الصادق يحتاج في إثبات صدقه إما إلى الحواس السليمة أو إلى العقل، فإذا كان الخبر خبرا عن المحسوسات فقد يثبت صدقه بالحواس، وقد يثبت بالعقل كالخبر المتواتر والخبر المحتف بالقرائن، وأما إذا كان الخبر إخبارا عن المعقولات فلا سبيل إلى إثبات صدقه إلا بالعقل، كما في إخبار الرسول عن رسالته ودعواه أنه مرسل من عند الله تعالى، فإنه لا سبيل إلى إثبات صدق ذلك إلا بالعقل، فإنه لا دليل على صدق الرسول في دعواه الرسالة إلا المعجزات الخارقة للعادة ودلائل النبوة، ودلالة المعجزات ودلائل النبوة على صدق الرسول لا تكون إلا عن طريق العقل، نعم المعجزات نفسها قد تكون حسية لكن دلالتها على صدق الرسول لا تكون إلا عقلية. ولو كانت دلالتها حسية لما اختلف العقلاء في قبولها والإيمان بها وبمقتضاها، فإن العقلاء إنما يختلفون في المعقولات والنظريات دون المحسوسات والبديهيات.

ثم إن الأديان النازلة من عند الله تعالى لا يثبت صدقها وكونها نازلة من عند الله تعالى إلا بثبوت النبوة وثبوت صدق مدعي الرسالة في دعواه هذه، وهذه الدعوى إخبار عن أمر غيبي معقول وهو الرسالة من عند الله تعالى، وليست إخبارا عن أمر محسوس، والخبر عن المعقول لا سبيل إلى إثبات صدق المخبر فيه إلا العقل، ولا دخل للحس في ذلك، فلا سبيل إلى إثبات صدق رسالة الرسول إلا العقل، فالعقل

هو الشاهد العدل الوحيد لثبوت الدين ولصحته، فإذا أبطلنا شهادة العقل وألغيناها عن الاعتبار فقد أبطلنا الدين وألغيناه من الأساس، فالدين الوحيد هو الدين الذي يشهد العقل بصحته كالدين الإسلامي.

وأما إن كان هناك دين فوق العقل لا يشهد العقل لا لصحته ولا لبطلانه ـ وهذا الدين لا وجود له إلا في عالم التصور والخيال، ولا وجود له في الواقع ـ أو إذا كان هناك دين يعارض العقل ويناقضه ـ وهذا هو حال كل الأديان الوضعية والمحرفة ـ فالشاهد العدل الوحيد يشهد ببطلان هذا الدين.

ومما ينبغي التنبيه عليه أننا عندما نقول: إن الدين يجب أن يكون معقولا ـ أي يجب أن يشهد العقل لثبوته وصحته ـ إنما نقصد بذلك أنه يجب أن تكون أصوله التي ينبني عليها غيرها معقولة يشهد العقل لصحتها، وهذه الأصول هي النبوة والإلـٰهية وصفاتها العقلية وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة، ومن هذه الأصول التوحيد، فإذا شهد العقل لهذه الأصول بالصحة تنسحب شهادته هذه على كل ما ينبني عليها، فإن الشهادة للأصول بالصحة شهادة لكل ما ينبني عليها بالصحة.

ولا نقصد بهذا القول أن تفاصيل الدين كلها وتفاريعه كلها يجب أن تكون مما يثبت العقل صحتها، نعم كثير من تفاصيل الدين الحق وتفاريعه ولا سيما كلياتها عبادات كانت أو معاملات أو غيرها قد قامت الدلائل العقلية على صحتها، وعلى بناء السعادة الدنيوية والأخروية عليها، وعلى ارتباط المصالح الإنسانية بها، وقد توسع كبار علماء الإسلام في الكلام عليها عندما تكلموا عن مقاصد الشريعة وعلى حكمة التشريع في الإسلام، لكن من تفاصيل الشريعة الإسلامية وتفاريعها ما لا

يظهر هذا الأمر فيها، لكنه لا يوجد في تفاصيل الشريعة الإسلامية وتفاريعها فرع واحد يعارض العقل ويناقضه، ولو وجد في الكتب الإسلامية شيء يتعارض مع العقل الصريح أو مع العلم القطعي فهذه المعارضة دليل على بطلان هذا الأمر وفساده. ودليل على أن هذا الأمر دخيل في الإسلام. والله تعالى أعلم.

***

بيان أن دعوى النصارى أن الدين فوق العقل اعتداء على الدين وعلى العقل وعلى الله، وإساءة للمسيح بإشراكه بالله:

وبعد بيان فساد هاتين الدعويين بما ذكرناه نعود فنقول:

كل من يدعي لنفسه العلم والفلسفة مع الدين من النصارى يتورطون في الدعوى الثانية، فعندما يرون عدم ائتلاف دينهم مع العقل يقولون تسلية لأنفسهم: إن الدين فوق العقل، وإن الدين محله القلب دون العقل.

فهم بدعواهم هذه كما يكونون مستهينين بالدين بأنه لا يتفق مع العقل كذلك يحطون من قدر العقل وينالون من كرامته، وينزلونه من منزلته السامية إلى مستوى عدم الوثوق بأحكامه وقراراته وشهادته. ومن جهة أخرى: كما يكونون معتَدِين على الله تعالى وعلى عظمته وجلاله ووحدانيته في ذاته وصفاته وأفعاله، يكونون مسيئين لنبيه المسيح عليه الصلاة والسلام بإشراكه لله في إلٰهيته وربوبيته، وفي ذاته وصفاته وأفعاله.

وهكذا صار العقل عندهم مجروحا في عدالته مطعونا في شهادته، فسهل عليهم الاستهانة به، والجنوح إلى عدم الوثوق بأحكامه في شتى مواقفه وشهاداته وقراراته، وبناء على ذلك تراهم ينزلون الأدلة العقلية دون منزلة الأدلة التجريبية،

وتبعهم على هذا المثقفون ثقافة غربية المقلِّدون للغرب تقليد الأعمى من أبناء المسلمين.

وهكذا لم يقتصر ضرر الاستهانة بالعقل على الغرب، بل تعدى إلى العالم الإسلامي وإلى أبناء المسلمين.

وهذا خلاف منهج الإسلام وعلمائه البانين عقيدة وجود الله تعالى ـ وهو أعظم مطلب علمي فلسفي ـ على الدلائل العقلية البحتة، المعتَزّين بكون دلائلهم عقلية منطقية، وذلك لبداهة أن وجود الله تعالى لا يثبت ولا يصح إثباته إلا بالدلائل العقلية، وأما التجربة فمجالها إنما هو المادة والمحسوسات، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

* * *

استهانة النصارى بالعقل أدت إلى انتشار الإلحاد في العالم، وإلى الاستخفاف بالعلوم العقلية، وإلى فشو اللاأدرية، فالنصرانية هي أصل الداء وجذر البلاء:

ثم إن الاستهانة بالعقل في سبيل المحافظة على النصرانية المحرَّفة لم يقتصر ضرره على الإسلام بل تعدى ضرره إلى الأديان عامة، وفتح الباب على مصراعيه للإلحاد، وأدى إلى انتشار الإلحاد بين النخبة من المثقفين والكتاب والشعراء، ثم تعدى ضرره إلى الفلسفة أيضا حيث استخفت النخبة من رجال العلم بفلسفة ما وراء الطبيعة القريبة الصلة بالدين أولا، ثم بالفلسفة مطلقا ثانيا، فسلبوها اسم العلم، وصرفوا اسم العلم عن مسماه، واحتكروه فيما لا يستحقه، حيث خصّوه بالعلم المبني على الإحساس والتجربة وسموا هذا العلم بالعلم المثبت إجلالا لهذا

العلم، وحطوا من قدر العلوم العقلية، ولم يلبث ضرر الاستخفاف بالعقل عند هذا الحد، بل فَتح البابَ للشك والريبة واللاأدرية في ساحة المعقولات والمحسوسات على حد سواء. حتى إن «ديكارت Descartes» الذي هدم مذهب الريبة وقضى عليه القضاء المبرم بقوله: «أشك فأدرك فأنا موجود» ولم يقض على هذا المذهب إلا بعقله وفضل عقله، هذا الفيلسوف الذي هدم مذهب الريبة بهذه الوجيزة من كلامه قد أسيء فهم فلسفته، وانتُحِل له مذهب الشك في كل شيء. فإن أريد بما عزي إليه من الشكِّ الشكُّ فيما لم يقم عليه برهان فلا اختصاص لذلك بديكارت، وإن أريد به الشك في كل شيء مطلقا ولو قام عليه برهان كما يدعيه الريبيون، فذلك الفيلسوف قد قضى على مذهب الشك بالشك نفسه.

ومن أجل ما ذكرناه من الصلة بين النصرانية ومذهب الشك والريبة (الحسبانية) نرى الحسبانية قد تسلطت على فلسفة علماء الغرب على طول تاريخها منذ فلاسفة اليونان، ولم تستطع الفلسفة من تخفيف وطأة الحسبانية عليها إلا عند تقدم العلوم المادية المبينة على الإحساس والمشاهدة، وذلك لأن تَعَارُضَ الحسبانية بالحواس التي هي العمدة في الاعتراف بوجود الكائنات أشد من تعارضها بالعقل، فقبل تقدم العلوم المادية كانت الحسبانية تغالط العقل وتخدعه وتتسلط عليه، فلما تقدمت العلوم المادية فقدت الحسبانية سلطتها وعاد إلى العقل والفلسفة نوع من القيمة والاعتبار. وأما إعادة الاعتبار إلى العقل كما هو حقه فلا يمكن مادامت النصرانية متسلطة على العقول والعواطف ومتحكمة فيها، فإنها أصل الداء وجذر البلاء. كما بينا آنفا.

***

الإسلام على العكس من النصرانية أصوله مبنية على العقل كما أنه صديق للعلوم النافعة العقلية منها والتجريبية:

وأما فلاسفة الإسلام ـ وهم المتكلمون ـ فهم على العكس من فلاسفة أوربا تماما، نراهم محافظين على قيمة العقل تمام المحافظة، عادّين إياه أول أسباب المعرفة، بانين أصول دينهم عليه، فما شهد العقل بصحته من حقائق دينهم عضوا عليه بالنواجذ، وما رده العقل فهو المردود عندهم، فمن أجل ذلك لم تجد الحسبانية في يوم من الأيام إلى عقولهم سبيلا، ومن أجل ذلك نراهم يصدرون متونهم العقائدية بقولهم: «حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية» ويردفون ذلك بقولهم: «وأسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل»، ويثلثون بتقسيم الحكم العقلي إلى ثلاثة أقسام: الوجوب، والجواز، والاستحالة، فهاهنا ثلاثة أمور: الإيمان، والعقل، والمشاهدة بالحواس والتجارب، والأمر الرابع: العلم المبني على العقل المحض، أو مع المشاهدة. فالإيمان في النصرانية يفترق عن العقل، وعن العلم المبني على العقل المحض، وعن العلم المبني على العقل مع المشاهدة.

وأما الإسلام فالإيمان فيه يجامع كل ذلك، حتى العلم المبني على المشاهدة كما قرره العلماء، فالإسلام مبني على العقل وصديق للعلوم بجميع أنواعها، وقد فرض على المؤمنين به تعلمها، إما فرضا على الأعيان، أو فرضا على الكفاية، كما أبطل الحسبانية المعادية للعمل المنكرة للمحسوسات، وأما النصرانية فمضطرة لأجل الحفاظ على نفسها إلى القضاء على العقل وعلى العلم المبني عليه معا.

قال المفسر أحمد حمدي الألمالي في مقدمته القيمة لترجمته التركية لكتا بـ «المطالب والمذاهب» في تاريخ الفلسفة لبول ژانه إلى التركية: «إن رقي أوربا ابتدأ بسعيها لإنقاذ العقل من الانطفاء إزاء تعبد النصرانية، ولإيقاف النصرانية في حدود عاطفتها القلبية، وهذا السعي لم يحصل لأوربا إلا بعد احتكاكها بالإسلام والمسلمين، ووقوفها على عقلانية الإسلام، وعلى ما كان عليه المسلمون من التقدم والحضارة، فحضارة أوربا حضارة متصدعة متعارضة العقل والعاطفة، وهذا التصدع أعظم ثلمة في حضارة أوربا جعلتها محرومة من الكمال الإنساني، ويوشك أن يأتي يوم تقضي هذه الثلمة على بنيانها الحاضر من القواعد، فبينما نحن غابطون للأوربيين يجب علينا أن نرتعد خوفا من هذه الثلمة».

***

لو كان دين فلاسفة الغرب الإسلام لكانت فلسفتهم منسجمة مع دينهم، ولساد الأخلاق الفاضلة بلادهم، ولكانت فلسفتهم أقوم مما عليه الآن، ولأَثْرَوا علم الكلام الذي هو الفلسفة الإسلامية بجهودهم. ولما ألحد المثقفون في العالم الإسلامي:

فلو كان دين الفلاسفة الغربيين الإسلامَ بدل النصرانية لما كان دينهم في واد وفلسفتهم في واد، ولما سادت فوضى الأخلاق والاجتماع في بلادهم مؤذنةً بانهيار حضارتهم وانتهائها الى الدمار، وزيادة على ذلك ـ وهو الأهم عندنا ـ لَـمَا ألحد المثقفون منا ثقافة أوربية بسبب اعتقادهم بفقدان الانسجام بين عقولهم وقلوبهم تقليدا للعقلية الغربية النصرانية في ذلك، ثم لو كان دين الغرب الاسلام لوجدوا في فلسفتهم ما ينير لهم سبل الحقيقة، وأصبحت فلسفتهم أرقى وأقوم من حالتها

الحاضرة، ولأصبح علم أصول الدين في الاسلام أثرى مما عليه الآن بانضمام خدماتهم إليه، وهم في حالتهم هذه قد خدموه بعض الخدمة، وأيدوه بعض التأييد وهم لا يشعرون، وقد استفاد علماء الإسلام المتأخرون من خدماتهم هذه ومن أقوالهم المتعلقة بهذا الصدد في تقرير حجتهم وتعزيز قضيتهم قضية الاسلام، قضية دين التوحيد، ويطلع الباحث على نماذج من هذه الاقوال في محلها.

وكفى الكلام إلى هنا عن النصرانية المحرفة.

وما كنت أريد التناوش بالنصرانية لولا أن أصحاب الغيرة الدينية الزائفة من عقلاء الغرب النصراني حاولوا ان يعبثوا بالعقل ويحطوا من منزلته مما يؤدي الى عدم الوثوق به وبأحكامه وشهادته والى الاعتقاد بأنه لا بأس باعتقاد أن العقل لا يعترف بوجود الله تعالى الذي هو أساس الدين، وذلك بعد أن عبث رجال الدين المسيحي الاوائل بعد سيدنا المسيح بدينهم وحرفوه إلى وضع لا يتفق مع العقل، ثم ترتب على الحط من منزلة العقل وعلى اعتقاد عدم ائتلافه مع الدين ضرر عظيم على ضعاف العقول والدين من المسلمين المثقفين ثقافة غربية، فاعتقدوا ذلك في دينهم أيضا تقليدا للنصارى في اعتقادهم ذلك في دينهم.

***

بيان أن العقل والعلم لا يتعارضان مع الدين الصحيح، وتخبط الذين يعتقدون التعارض بينهما:

وقد آن الأوان أن نشرع في المسألة التي نهدف إلى بيانها، وتلك هي إثبات أن العقل والعلم لا يأبيان أي دين أنزله الله تعالى على عباده بواسطة أنبيائه الكرام صلوات الله وسلامه عليهم مادام هذا الدين محفوظا كما أنزل من عند الله تعالى، ومن هذه الأديان الاسلام.

وأغرب نواحي المسألة التي نحن بصدد معالجتها أن القائلين بوجوب إبعاد العقل والعلم من الدين لاعتقادهم أنهما لا يعترفان بوجود الله الذي هو أساس الدين: أنهم أنفسهم يعترفون بوجود الله، أو على الأقل يدّعون الاعتراف به، ولكن من غير طريق العقل والعلم، وعليه فأصحاب هذه العقلية إما أن لا يكونوا من أصحاب العقول، أو يكونوا من المتسترين المستبطنين للإلحاد. وإلا فكيف يتصور العاقل المعترف بوجود الله تعالى وبالدين أن يكون العقل الذي هو أشرف خلق الله تعالى، والعلم الذي هو أشرف الصفات عند الله تعالى أول كافر بالله وأول كافر بالدين الذي أمر الله تعالى عباده أن يدينوا به.

ثم إن الذين نناقشهم الحساب في مسألة الدين والعقل والعلم ينكرون أولا أن يكون لأساس الدين سند من العقل، وينكرون ثانيا أن يكون له سند من العلم، ثم عندما يستبينون قيام الدليل العقلي على وجود الله تعالى يعودون فيعترفون باستناد أساس الدين إلى العقل، لكنهم من أجل الحفاظ على دينهم المعارض للعقل يحاولون الحط من منزلة العقل ومن قيمة الدليل العقلي الذي لم يُدعم بالتجربة بادعاء عدم كفايته في إثبات المسائل إثباتا علميا، فيكون آخر دعاويهم أن الدين وإن استند الى العقل المجرد لكنه لا يستند إلى العلم لعدم ثبوت وجود الله تعالى عن طريق العلم لعدم كفاية الدليل العقلي المجرد الذي لم يُدعم بالتجربة في إثبات وجود الله إثباتا علميا، ويترتب على هذه الدعوى دعوى أخرى وهي: أن العلم لا يثق بالعقل المحض ما لم يؤيده الإحساس والتجربة، ومن البديهي أنه لا سبيل إلى إثبات أساس الدين عن طريق الاحساس المجرد والتجربة المجردة، وأنه ليس لعاقل أن يدعي أنه قد أحس بوجود الله تعالى عن طريق إحدى الحواس، أو أثبت وجوده عن طريق التجربة، لأن الله تعالى ليس من المدرَكات عن طريق الحواس

ولا عن طريق التجارب. فأمامنا وأمام كل من يعنى بهذا الموضوع العظيم تدقيق النظر في موقف العقل والعلم من الدين.

***

المطلب الثالث

في موقف العقل والعلم من الدين، وفيه إثبات وجود الله تعالى بالدليل العقلي

ونورد تحته مسائل مهمة متعلقة به

من واجبنا قبل كل شيء أن ننبه على غلط عظيم تورط فيه فريق من أدعياء العلم العصري المقلدين للغرب تقليد الأعمى، وذلك أن هذا الفريق يظن أن من لا يعترف بوجود الله تعالى من الغربيين يعتمدون في إنكارهم لله تعالى على العقل والعلم، وبناء على هذه الدعوى الباطلة يكون الإلحاد مذهب العقل والعلم، لأنهما يتعارضان مع وجود الله تعالى على زعمهم، وبناء على هذا الخطأ يزعم هؤلاء المقلدة أن قواعد الدين مبنية على التسليم بما ورد في الكتب المقدسة من غير أن تستند تلك القواعدإلى العقل والعلم، ويزعمون أن الدين محله القلب في الإنسان وليس العقل، مع أن كل ما يراه ويذهب إليه الملاحدة من علماء الغرب المحدثين هو أن وجود الله تعالى لا يثبت بالتجربة التي تدور عليها ثقة العلم الحديث، ويدعون حصر اليقين العلمي في المحسوسات والمجربات، ليحاولوا بهذا الحصر الحط من قيمة العقل المحض حتى يتوسلوا بذلك الحط إلى الحط من قيمة ما يعتمد عليه المسلمون من الاستدلال العقلي بوجود الكائنات على وجود الله تعالى، بحجة أنه استدلال عقلي وهو غير صالح للاعتماد عندهم، فالعقل إذن أكبر نصير لمسألتنا أي مسألة إثبات الواجب الذي هو رأس الدين وأساسه.

وأما العلم الذي يزعم هؤلاء المقلدة أنه المناوئ الثاني للدين بعد العقل فالحق أن مناوأته للدين ـ إن صحت ـ فإنما تنشأ من كون العلم مبنيا على التجربة والمشاهدة الأجنبيتين عن الدين وعن كل المعقولات، اللتين لا صلة لهما بالدين لا نفيا ولا إثباتا.

فلا وجه من الصحة لما يزعمه هؤلاء المقلدة للغرب من أن العقل يناوئ الدين، والعلم يتبعه في ذلك، بل العقل يناصر الدين ويؤازره، وأما العلم فلا يتعرض للدين لا بالنفي ولا بالإثبات. كما أنه لا وجه من الصحة لما يرمي به هؤلاء المقلدة الدينَ من كون قواعده مبنية على التسليم المحض بما ورد في الكتب المقدسة من غير استناد إلى أي دليل من العقل، وذلك لأن العقل أقوى سند لقواعد الدين كما سيأتي بيان ذلك، ومن أجل ذلك يسعى أعداء الدين الغربيون في توهين هذا السند ليحطوا من قيمة الدليل العقلي الذي يستند إليه الدين، ويعادون العقل مع الدين زاعمين أنه لا قيمة للاستدلال العقلي المجرد عن التجربة والمشاهدة.

ونحن ندافع عن العقل ليتسنى لنا عن طريقه الدفاع عن الدين، ومن حسن حظنا في موقف المعارضة مع الملاحدة أن يكون العقل في جانبنا، ندافع عنه ويدافع عنا.

فلو لم يكن لنا في مطلبنا وهو إثبات وجود الله تعالى إلا كوننا في موقف الدفاع عن العقل، وخصومنا في موقف الحط من شأنه لكفانا.

ومن الغريب الطريف أن خصومنا وخصوم العقل بسبب خصومة الدين: لا يتجاسرون على التظاهر بمعاداة العقل وعلى المجاهرة باتخاذه خصما لهم، بل يسعون لإخفاء موقفهم من العقل، فيغالطوننا بدعوى أن العقل لا يتفق مع أسس الدين وقواعده، كأن العقل في جانبهم في الخلاف القائم بينهم وبين الدين وأهله،

وأقوى جواب لهم وأشده إلزاما أن نقول لهم: فلماذا إذن تحاولون الحط من قيمة العقل المحض، والتوهين من منزلته السامية؟

***

بطلان زعم من يزعم أن قواعد الدين لا تأتلف مع العقل أو مع العلم:

الحاصل أن الذين لا يقدرون الدين حق قدره فريقان؛ فريق منهم: يتوهم ويزعم أن قواعد الدين ـ أيَّ دين كان ـ مبنية على التسليم بما ورد في الكتب المقدسة من غير فحص في أصول هذه القواعد، ويزعم أنها لا تأتلف لا مع العقل ولا مع العلم.

وفريق ثان: يعترف بأن العقل يؤيد قواعد الدين، وإنما يخالفها العلم.

ومرادهم من العِلمِ العلمُ الحديث المبني على التجربة والمشاهدة، وربما ينعتون هذا العلم الذي لا يتفق مع قواعد الدين بزعمهم بـ «العلم المثبَت»، فهم لا يعتبرون علم الفلسفة الإلـٰهية الذي يوازيه علم الكلام في الإسلام من العلوم المثبتة مهما كانت قواعده مبنية على الأدلة العقلية القطعية، وذلك لأن هواة العلم الحديث المفتونين به لا يسلمون بكون الأدلة العقلية أدلة قطعية مفيدة ليقين، وذلك لأنهم ينظرون إلى التجربة على أنها الوسيلة الوحيدة للعلم، ولا يقيمون للاستدلال العقلي وزنا، ومن أجل كون مزاعم الفريق الثاني أشبه بالحق، وفي بطلانها شيء من الخفاء وكون خطرها على المتعلمين العصريين أشد يكون جل نقاشنا في هذا القسم من الكتاب معهم.

أما الفريق الأول فبطلان مزاعمهم واضح لا يحتاج إلى مزيد من التنبيه لظهور جهلهم بموقف الدين من العقل والعلم، وبموقف الفلاسفة الغربيين من هذه

الثلاثة، يظهر جهلهم هذا بأول نظر في كلامهم، وذلك أنهم عندما ادعوا التنافي بين الدين وبين العقل والعلم قيدوا العلم بالعلم الحديث المثبت إما صراحة أو ضمنا، حيث أنهم قد يطلقون العلم في هذ المقام بناء على ملاحظة أنه لا علم عندهم يعتد به غير العلم الحديث الذي يسمونه بالمثبت. وكان الداعي إلى هذا التقييد الصريح أو الضمني منهم أنهم رأوا أن العقلاء لا يساعدونهم ولا يؤيدونهم في دعواهم «أن العقل مناوئ للدين»، كما لا يؤيدهم فى ذلك العلم القديم المبني على العقل المحض؛ فهذا التقييد منهم دليل على خطأهم في دعواهم هذه كما أنه دليل على أن أهل الدين لا يُعوِزُهم الدليل العقلي.

ثم إنه من أوضح الدلائل على خطأهم هذا أن العلماء الإلـٰهيين من المسلمين وغيرهم يعتمدون في إثبات وجود الله تعالى على البراهين العقلية ويستندون إليها.

فمن أجل وضوح خطأ الفريق الأول في زعمهم معاداة العقل لقواعد الدين، أغفل الفريق الثاني العقل من معاداة الدين وتشبثوا في معاداة الدين ـ جهلا منهم ـ بأذيال العلم الحديث فقط المبني على التجربة الحسية، فالجمع بين العقل والعلم الحديث في مناوأة الدين من الفريق الأول خبط ظاهر وخلط سافر.

***

لا أقوى حجةً من المؤمنين بالله، وبيان سبب إلحاد الملاحدة، وبيان أن الإلحاد يؤدي إلى الزعم بأن الأثر التافه يحتاج إلى المؤثر دون الأثر العظيم:

ثم نقول للذين يعتبرون العقل معارضا للدين وعدوًّا له: لا يوجد قضية يؤيد فيها العقل أحد الطرفين المتنازعين ضد الآخر أقوى من تأييده لمثبتي وجود الله

تعالى ضد الملحدين، وذلك لأن الكائنات من أصغرها إلى أكبرها بما فيها من النظام والترتيب والتأليف والتشكيل البديع المحير للعقول كلها عبارة عن آثار وأفعال، ومن القضايا البديهية المتقررة في عقول جميع العقلاء أن الآثار لا بد لها من مؤثر، والأفعال لا بد لها من فاعل، وهذا ما ذهب إليه الإلـٰهيون فقالوا بوجود الخالق البارئ المصور، وقالوا: إننا وإن لم نعرف هذا الخالق بحقيقته وكنهه فلا جرم أننا ندرك ضرورة وجوده واتصافه بصفات الكمال، وذهب الملاحدة إلى عدم وجود فاعل مؤثر لهذه الأفعال والآثار بحجة أنهم بحثوا عن الخالق للعالم فلم يجدوه ولم يروه بأي آلة راقية، ولا وصلت عقولهم إلى إثباته.

ولا شبهة في قوة حجة المؤمنين بالله تعالى وسخافة حجة الملاحدة عند استفتاء المسألة من العقل، فإن العقل استفتيته أو لم تستفته يحكم ببداهة وجود المؤثر عند رؤية الآثار، وأما عدم رؤية الله تعالى فلأن الله تعالى ليس مما يدرك بالأبصار ولا بسائر الحواس، كما أن الإنسان لا يدرك روحه وعقله وسائر قواه الباطنية كعلمه وشجاعته وجوده، وإنما تعلم هذه بآثارها ويستدل عليها بها، لأن هذه القوى مما لا تدرك بالأبصار ولا بسائر الحواس الظاهرة.

وأما عدم توصل عقولهم إليه فلضعف عقولهم وقصورها وخطأها، والله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فإن العقل يخطئ ويصيب، فإذا أخطأ كان خطأه عظيم الأثر، وإذا أصاب كانت إصابته عظيمة الأثر، والآية الكريمة تشير إلى عظم خطورة عمى القلوب بالنسبة إلى عمى الأبصار، فيفهم منها عظمة الفرق بين إصابتهما أيضا، كما تدل الآية على عظم أهمية العقل بالنسبة إلى الحواس.

وكأني بالملاحدة الضعاف العقول من أجل عدم رؤيتهم لله تعالى، ومن أجل ما يرونه في العالم من العظمة والبداعة ودقة النظام المقتضية في موجده من القدرة الهائلة والعلم المحيط ما يحير العقول ضعافها وأقوياءها، كأني بهم بسبب انبهارهم أمام عظمة هذا العالم يقعون في حيرة من أمرهم ويقولون: من يقدر على خلق هذا العالم العظيم الذي يعجز العقل عن تصور عظمته وعن تقرير مداها؟! فالأولى أن لا يكون له خالق وأن يكون موجودا بنفسه، وكأنهم يقولون: إن الأثر التافه والنظام المحدود يحتاج إلى المؤثر والخالق، وأما الأثر العظيم والنظام الشامل الدقيق فلا، وفاتهم أنه كلما عظم الأثر عظم حاجته إلى المؤثر، وأما القول بأن الأثر التافه يحتاج إلى المؤثر ولا يحتاج الأثر العظيم إليه فهل هذا إلا تفكير معكوس ورأي منكوس ترفضه العقول وتمجه الألباب؟!!

***

العالم ممكن بمادته وصورته لا يقضي حاجة وجوده من نفسه، بل يحتاج في ذلك إلى واجب الوجود:

وأما زعم أن العالم موجود بنفسه ولا يحتاج في وجوده إلى موجد وخالق يوجده فبطلانه واضح، وذلك أنه من المبادئ الأولى للفلسفة ومن الأصول الأولية لعلم الكلام أن حكم العقل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الوجوب والجواز والاستحالة، أي إن كل ما يتصوره العقل إما أن يكون واجب الوجود يحكم العقل بأنه يستحيل عليه العدم، أو يكون ممكن الوجود يُجَوِّزُ العقلُ عليه كلًّا من الوجود والعدم على حد سواء، أو يكون مستحيل الوجود يحكم العقل بعدم إمكان وجوده، وبوجوب عدمه، فهذه قسمة عقلية حاصرة لا يجوز العقل لما يتصوره قسما رابعا.

فالموجود قسمان؛ إما واجب الوجود وهو الذي يكون وجوده بنفسه ومقتضى ذاته، ولا يجوز عليه العدم، ولا يجوز أن يكون له موجد يوجده، وإلا لانقلب إلى ممكن الوجود وجائزه، وهو الله الخالق البارئ المصور، وإما ممكن الوجود وجائزه، وهو الذي لا يكون وجوده ولا عدمه ضروريا، وتكون قابليته لكل من الوجود والعدم على السواء، أي لا يلزم لا من وجوده ولا من عدمه أي محال، وهذا القسم كما لا يكون وجوده مقتضى ذاته وإلا لما كان ممكنا ولانقلب إلى واجب الوجود، كذلك لا يترجح أحد الجانبين فيه من الوجود والعدم على الآخر إلا بمرجِّح آخر أجنبي عنه، وإلا لزم الرجحان بدون مرجح، وهو محال وممتنع عقلا، ومثال هذا هو العالم المعبر عنه بما سوى الله.

و المعدوم أيضا قسمان: معدوم هو محال لا يجوِّز العقل وجودَه كاجتماع النقيضين وكشريك الباري تعالى، ومعدوم ممكن يجوِّز العقل وجودَه.

هذه القسمة الثلاثية: من المبادئ العقلية الأولى التي يترتب عليها كل الأحكام العقلية، ومن أجل ذلك أجمع عليها العقلاء، وقال إمام الحرمين: العقل عبارة عن معرفتها، أي عن معرفة أن هذا الأمر واجب الثبوت، وأن ذلك الأمر جائز الثبوت، وأن الأمر الآخر ممتنع الثبوت، وهذه القسمة هي الأصل الأول والفيصل في حكم العقل على الأمور العقلية بالوجوب والصحة والامتناع، ومن أجل ما لهذه القسمة من المنزلة القصوى صدر بها علماء العقيدة كتبهم العقدية وبنوا عليها تفاصيل العقائد.

فظهر من هذا أن العالم أي ما عدا الله من الموجودات أمر ممكن لا يقضي حاجته من نفسه وإلا لكان واجب الوجود، وكل ما هو ممكن موجود يحتاج في

وجوده إلى موجد أقوى منه يوجده، وهو واجب الوجود، فالعالم في وجوده يحتاج إلى واجب الوجود، وهو ما يسميه الإلـٰهيون بالله.

وبعد هذه المقدمة المهمة ننتقل إلى المقصود الأصلي وهو إثبات وجود الله تعالى بالدلائل العقلية، لكننا نقتصر منها على الدلائل الواردة في القرآن العظيم لقوتها ووضوحها، ولا نعرج على الدلائل الفلسفية الكلامية لخفائها وعدم وفائها بالمقصود منها، وهو طمأنينة العقول وثَلَج الصدور.

❊ ❊ ❊

الدلائل القرآنية على وجود الله تعالى:
دليل الخلق والإنشاء، ودليل النظام، ودليل الفطرة

مما هو مشاهد أن العالم متغير من عدم إلى وجود، ومن صغر إلى كبر، ومن لون إلى لون، ومن طعم إلى طعم، ومن رائحة إلى رائحة، إلى غير ذلك من أنواع التغير والتقلب والتدرج والتطور في أطوار مختلفة.

كما هو معلوم لكل عاقل أن العالم من ذراته إلى مجراته مشتمل على نظام محكم متقن لا يحيط بعشر معشار عشيره علم العلماء ولا حكمة الحكماء ولا خبرة الخبراء.

ثم إن السؤال الذي شغل عقول العقلاء منذ القدم وينبغي أن يكون هو السؤال الأول الذي يشغل عقل كل عاقل من صغار العقلاء وكبارهم وحكمائهم وعامتهم، هو أن هذا العالم كيف وجد؟ ومن أين أتاه هذا التغير والتقلب والتطور والتدرج، ثم من أين له بهذا النظام المتقن الغريب العجيب؟

هناك فكرتان تحاولان الإجابة على هذا السؤال الأهم بالنسبة لجميع العقلاء.

الفكرة الأولى: فكرة مادية لا ترى وراء هذا الكون ووجوده وتغيره وتطوره وما حواه من النظام والإتقان قوة تفسر نشوءه وخلقه وتَغَيُّره وتَطَوُّره وتنظيمه وترتيبه، وتدعي في مادة هذا العالم القِدَمَ، وفي تغيره وتطوره وفي محكم نظامه الاتفاقَ والمصادَفةَ.

الفكرة الثانية: فكرة إلـٰهية إيمانية ترى أن لهذا الكون بوجوده وتغيره وتطوره ونظامه خالقا فاطرا مبدعا حيا عليما قديرا مريدا، لا حدود لقدرته وعلمه وإرادته.

ثم إن هاتين الفكرتين متناقضتان، أيهما ثبتت بطريقة عقلية علمية بطلت الفكرة الأخرى، ولا سبيل لإثبات إحدى الفكرتين وإبطال الأخرى إلا العقل والعلم الذي هو ثمرة العقل.

ونحن في مقالنا هذا نثبت بإذن الله تعالى، الفكرة الإيمانية الإلـٰهية، ولا نتعرض للفكرة الأخرى إلا في ضمن إثبات الفكرة الإلـٰهية.

فنقول: القضية قضية وجود الله تعالى، أو وجود واجب الوجود كما يعبر المتكلمون.

وأفراد الدلائل على وجود الله تعالى وآحادها لا يحصرها عد ولا حد، وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الكريمات.

وكما قال القائل:

وفي كل شـــيء لــه آية تــدلُّ علــى أنــه واحدُ

وأما أنواع الدلائل على وجود الله تعالى فهي أيضا كثيرة وقد بينها العلماء والفلاسفة والمتكلمون، وألّفوا فيها المؤلفات الكثيرة، وأهم هذه الأنواع من الدلائل هو ثلاثة أنواع:

دليل الخلق والإنشاء، ودليل النظام، ودليل الفطرة.

وهذه الدلائل الثلاثة هي أوضح الدلائل وأيسرها وأسهلها وأقربها إلى

العقول، حتى كادت تكون بديهية ضرورية، أو هي بديهية كما عليه كثير من العلماء. ومن أجل ذلك قد ركز الله تعالى على هذه الدلائل الثلاثة في كتابه المجيد، وكرر دليل الخلق ودليل النظام في أكثر من ثمانين آية، جمعهما في قسم من الآيات وأفرد كل واحد منهما في قسم آخر منها.

فمن أجل ذلك نركز نحن في مقالنا هذا على هذه الدلائل الثلاث، ونتجاوز ما عداها من الدلائل الفلسفية والكلامية الغامضة.

***

دليل الخلق والإنشاء

الدليل الأول: دليل الخلق والإنشاء. مثلاً نرى أن هذا الإنسان أو هذا الحيوان لم يكن ثم نراه قد وجد، ونرى هذا الشجر أو هذا الزرع لم يكن ثم نراه قد وجد.

ومنشأ هذا الدليل ما نعلمه وما نشاهده من الموجودات المخلوقة أي الموجودة بعد العدم، وذلك أن الإنسان قد فطر على العلم والقطع بأن المخلوق أي الموجود بعد العدم لا بد له من خالق ومنشئ، مثلا عندما يرى الإنسان عمارة يجزم بأن لها مصمما وبانيا وإن لم يشاهد المصمِّم ولا الباني ولم يعرفه، وليس هذا الجزم إلا لما تقرر في عقل الإنسان من أن الإنشاء لا بد له من منشيء والمخلوق لا بد له من خالق، هذه القضية قضية بديهية قد فطر عليها الإنسان، لكن الإنسان قد يغفل عن البديهيات والفطريات إما لاستيلاء الغفلة على قلبه، ولاعتياده على رؤيتها، أو لتراكم الشبه والشكوك على فطرته ورَيْنِها على قلبه وطبعها عليه، فيقدم على إنكار البديهيات ويتشكك في الفطريات، وينكر وجود الله تعالى أو يتشكك فيه. وهل وجود العمارة أغرب وأعجب من وجود الإنسان مثلا حتى يتأتى للماديين إنكار وجود الخالق للإنسان أو التشكك فيه، مع أنه لا يخطر ببال أحد منهم تجويز إنكار وجود الباني والمصمم للعمارة مهما كانت صغيرة واهنة واهية، ومن أجل أن وجود الخالق للمخلوق أمر بديهي فطري استعمل الله تعالى لتقريره أسلوبا عجيبا غريبا وهو أسلوب التهكم والاستفهام الإنكاري لخلافه للإشارة إلى أن هذا أمر لا ينكره إلا من مرض عقله وفسدت فطرته، قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، وهذا استدلال عقلي من الله تعالى على بطلان الفكر المادي بأمر لا يمكن لأحد أمامه إلا التسليم للحق أو الخروج عن العقل ومخالفة الفطرة

والبديهة، وذلك أن وجود أفراد الانسان وكونه بعد العدم أمر قطعي ضروري، ولا يتصور العقل لوجودهم بعد العدم إلا ثلاثة احتمالات لا رابع لها، فإذا منع العقل احتمالين منها ولم يجوزهما تعين الاحتمال الثالث، الاحتمال الأول: أنهم ﴿خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ أي من غير إيجاد ولا موجد، الاحتمال الثاني أنهم ﴿هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم، وكلا الاحتمالين محال بديهي الاستحالة، فتعين الاحتمال الثالث: وهو أن لهم خالقا عليما قديرا مريدا خلقهم.

***

بطلان القول بالطبيعة:

وليست الطبيعة التي يدندن بها الملاحدة الماديون ويسندون خلق العالم على هذا النظام الغريب العجيب إليها إلا عبارة عن أحد هذه الأمور الثلاثة:

إما عبارة عن العدم وعن أمر متوهم متخيل لا تحقق له في الواقع، وقد أشار الله تعالى إلي إنكاره بقوله: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾.

وإما عبارة عن سنن الله تعالى التي وضعها في خلقه، وعن الأسباب العادية التي ربط الله بها المسببات وأخفى قدرته وإرادته تحتها ابتلاء للعباد، والكل من السنن والأسباب والمسببات بإرادة الله تعالى وقدرته وخلقه، فالطبيعة على هذا مطبوعة مخلوقة، وليست طابعة ولا خالقة.

وهل يُجَوِّزُ عقلُ عاقل لما لا حياة له ولا علم ولا إرادة ولا قدرة من هذه السنن والأسباب أن يفعل شيئا فضلا عن أن يوجد الأشياء ويخلقها ويدبرها على هذا النظام العجيب، وقد أشار الله تعالى إلى إنكار هذا بقوله: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، وذلك أن بني آدم من جملة الأسباب.

وإما أن تكون الطبيعة عبارة عن الحي العليم المريد القدير، فقد اختلف

الماديون على هذا الاحتمال مع الإلـٰهيين في الاسم، ولم يختلفوا في الحقيقة، لأن هذا هو الله تعالى، أطلقوا عليه اسم الطبيعة.

هذه احتمالات ثلاثة لما يسمونه بالطبيعة، ولا يتصور العقل لها احتمالا رابعا، وقد نفى الله تعالى تجويز العقل للاحتمالين الأولين وأنكر القول بهما على العقلاء، ولو كان هناك احتمال ثالث باطل لأشار الله تعالى إليه وأدخله في الإنكار. فإذا بطل الاحتمالان الأوَّلان لِما يسمَّى بالطبيعة تعيَّن الاحتمال الثالث لها.

***

اتفاق العقلاء على إثبات القديم:

ومما ينبغي التنبيه عليه أن الماديين متفقون مع الإلـٰهيين في إثبات القديم، فإنهم يثبتون مادة قديمة للعالم، وهم مضطرون إلى ذلك لأنهم لو قالوا بحدوث مادة العالم لاضطروا إلى القول بالمحدث لها، وهو الله تعالى، كما أن الإلـٰهيين يثبتون وجود الله تعالى القديم.

والفرق العظيم بين الفريقين أن الماديين يثبتون قديما ميتا وهو المادة، ويسندون وجود العالم على هذا النظام العجيب إلى تطور هذا الميت، وتطور الميت بنفسه أمر يرده العقل وتأباه الفطرة، فإنه تطور ليس ورائه مُطوِّر، فكما أن المادة التي قالوا بها وفرضوا قدمها هي مادة ميتة كذلك هذا التطور الذي فرضوه تطور متخيل ومتوهم ميت يمج القولَ به العقلُ ويحيله.

وأما الإلـٰهيون فيثبتون قديما حيا عليما مريدا قديرا يسندون وجود العالم على هذا النظام العجيب إلى إرادته وقدرته، فالفرق بين الفكرتين كالفرق بين الحياة والموت وبين الحي والميت، فليعتبر المعتبرون!

***

بطلان الدور والتسلسل:

إذن فالعقلاء كلهم متفقون على إثبات موجود هو قديم ليس لوجوده ابتداء، إما مادة ميتة قديمة، وإما رب حي عليم قدير قديم، وإنما اتفقوا على وجود القديم من أجل أن لا يتحقق الدور، وينقطع التسلسل في الحوادث اللذان هما محالان باتفاق العقلاء، وذلك لأننا إذا فرضنا أن مادة العالم محدثة أو أن رب العالم محدَث لاحتاج هذا المحدَث إلى خالق يحدثه، وهذا الخالق إما قديم، فتنتهي السلسلة عنده، ويكون هو الله، وإما حادث فيحتاج إلى خالق يحدثه، وهكذا. فإذا لم ينته العالَم إلى القديم يلزم إما أن تتسلسل الحوادث لا إلى نهاية، وإما أن يحصل الدور، وهو أن يُفرض المحدَث المحتاج إلى الخالق خالِقا للخالِق الذي خلقه، وكلاهما محال يحكم العقل بامتناعهما.

أما كون الدور محالا فلأنه يستلزم تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها، وكونَه علة لنفسه ومعلولا لها، وهذا محال ضروري الاستحالة.

وأما كون التسلسل محالا فلأن التسلسل عبارة عن كون المحدثات المتسلسلة غير منتهية إلى نهاية، وأنها لا أول لها، وأنه ليس لمجموع السلسلة عدم سابق، وهذا تناقض يؤدي إلى القول بسبق العدم على مجموع السلسلة وعدم سبق العدم عليها، وذلك لأن المفروض في هذه السلسلة أنها مؤلفة من أفراد كل واحد منها حادث، والحادث هو المسبوق بالعدم، والمؤلف من الأفراد الحادثة المسبوقة بالعدم حادث مسبوق بالعدم، فمجموع السلسلة حادثة مسبوقة بالعدم، فانتهى القول بتسلسل الحوادث لا إلى نهاية إلى امتناع القول بالتسلسل، وإلى أن التسلسل ممتنع محال، وإلى القول بالتناقض، وهو عدم انتهاء السلسلة وانتهاؤها.

وقد أورد المتكلمون لبطلان التسلسل دلائل أخرى، لكنها دلائل دقيقة غامضة، من أجل ذلك لم نعرج عليها. وهذا الدليل دليل واضح يغني عنها.

وقد استدل شيخ الإسلام مصطفى صبري على امتناع التسلسل بأن العالم من أجل أنه ممكن يجوز عليه كل من الوجود والعدم لا يكون وجوده من ذاته، بل لا بد أن يستند في وجوده إلى موجود هو أقوى منه، وهو واجب الوجود حتى يتم وجوده، وقال تنظيرا له: إن العالم بمنزلة الأصفار لا يمثل بنفسه شيئا، وواجب الوجود بمنزلة الأرقام تتصف بصفة الرقمية وتصبها على الأصفار عندما تدخل عليها، والأصفار مهما كثرت لا يحصل منها عدد، فإذا انضمّ إلى أولها رقم من الأرقام كساها صفة العددية وجعل منها أرقاما حية، فكذلك الممكن الذي هو جائز الوجود والذي يجوز عليه كل من الوجود والعدم لا يوجد بنفسه، ولا يدخل الوجودَ ولا يتصف به ما لم تنضم إليه إرادة واجب الوجود.

فمن أجل ما ذكرنا اتفق العقلاء على انتهاء العالم إلى شيء قديم إما مادة قديمة أو رب قديم.

***

بيان بطلان سؤال من خلق الله:

وبهذا ظهر الجواب على من يشكك ويقول: خالق العالم هو الله تعالى، ومن هو الذي خلق الله تعالى؟

والجواب: أن الله تعالى لا بد أن يكون قديما ليس لوجوده أول، ولا يجوز أن يكون مُحْدَثا مخلوقا له خالق، وإلا لدار الأمر أو تسلسل، وأما القول بالخالق القديم فيقتضي انتهاء السلسلة بدون أن يقتضي محالا من المحالات.

فاتضح بهذا الذي قررناه أن لهذا الكون ربا خلقه وأنشأه، وأن هذا الرب حي عالم مريد قدير حكيم وأنه واجب الوجود، وجودُه مقتضى ذاته، قديم لا يجوز أن يكون له خالق ولا أول.

❋ ❋ ❋

ليس عند الماديين دليل واحد على فكرتهم:

وأما الماديون المنكرون لوجود الخالق فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يقيموا دليلا واحدا على عدم وجود الله تعالى، وكل أفكارهم وأقوالهم قائمة على الاستبعاد والتشكيك والتنقل من أمر يستبعدونه إلى أمر آخر بمجرد الاستبعاد، فيسندون خلق العالم وتطوره إلى الطبيعة المتخيلة المتوهمة المعدومة أو الميتة فرارا من القول بالرب الحي العالم المريد القدير الحكيم مع أنهم معترفون بالنظام في الخلق والاتقان في الصنع والإحكام في الوضع. فأي من الفكرتين أحرى بالاستبعاد؟! وأي من الرأيين أحق بالقبول؟!

يقول (جورج هربرت بلونت GEORGE HERBERT BLOUNT) أستاذ الفيزياء التطبيقية: (لا يستطيعون أن يقيموا دليلا واحدا على عدم وجود الله) ويقول «أندرو كونوواي إيغي Andrew R. A. Conway» العالِم الفيسيولوجي ورئيس قسم العلوم الكلينيكية بكلية الطب بجامعة شيكاغو: (إن أحدا لا يستطيع أن يثبت صحة الفكرة التي تقول: إن الله غير موجود، وقد ينكر منكر وجود الله لكنه لا يستطيع أن يؤيد إنكاره بدليل)[1]، والله تعالى أعلم.

❋ ❋ ❋

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ٨٣، ١٤٧.

دليل النظام أو دليل الآفاق والأنفس

الدليل الثاني: دليل النظام، أو دليل الآفاق والأنفس:

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

قد تقرر في عقول جميع العقلاء أن النظام عندما يوجد في شيء لا بد أن يكون له منظم، ومهما كان النظام بسيطا وضعيفا عندما يشاهده الإنسان يعتقد بأن له منظما، ويسفّه عقل من يقول عن هذا النظام: إنه قد حصل صدفة بدون منظم، ويعُد هذا القائل من الجهال ومن الحمقى أو من المجانين، ولا يرى هذا القائل أهلا للنقاش والمجادلة في قضية من القضايا.

نعم يجوز العقل تجويزا بعيدا في النظام الضعيف البسيط أن يكون قد وُجد صدفة بدون منظم، وأما عندما يقوى النظام ويتعقد ويتشعب فلا يبقى عند أحد من العقلاء احتمال للصدفة والاتفاق، وذلك لأن تَقَوِّي النظام وتشعبه بمنزلة زيادة المخبرين وزيادة القرائن الدالة على الصدق في خبر المخبرين، فكما يحصل التواتر ويحصل العلم الجازم بصدق المخبرين لكثرة المخبرين وكثرة القرائن الدالة على صدق خبرهم، كذلك تَقَوِّي النظام وتشعبه يحصل عند العلم به العلم الجازم بوجود المنظم وبانتفاء احتمال الصدفة والاتفاق في وجود هذا النظام.

وقد مثل المتأخرون لما ذكرنا بما يلي: إذا رأيت حرفا هجائيا منتظما مخطوطا حضر إلى ذهنك أن ثمة كاتبا لهذا الحرف، وربما جوّزتَ فيه المصادفة على بعد، فإذا رأيت كلمة مكتوبة ذات معنى ابتعد احتمال المصادفة، فإذا رأيت سطرا كان

احتمال المصادفة أبعد، فإذا رأيت صفحة انتفى احتمال المصادفة، فإذا رأيت كتابا اشتدّ استحالة أمر المصادفة.

ونحن نمثل بمثال آخر: إذا رأيت ثلاثة أحجار على شكل أثفية تصلح لأن يوضع عليها القدر تعتقد عندما يقع نظرك عليها أنه قد رتبها مرتب على هذه الهيئة مع تجويزك تجويزا بعيدا أن يكون حصول هذا الشكل لهذه الأحجار الثلاثة على طريق المصادفة، وعندما ترى هذه الأحجار قد أثبتت عن طريق السياعة بالطين أو الإسمنت يبتعد عندك احتمال المصادفة بحيث تجزم بانتفاء هذا الاحتمال، فإذا رأيت الرماد في داخل هذه الأثفية مع اسوداد ما حولها بالدخان يقوى عندك هذا الجزم إلى أعلى درجات القوة، ولا تجوز احتمال المصادفة هنا لا واحدا في المليون ولا واحدا في المليار والمليارات، وتسفّه رأي كل من يجوز في هذا الأمر احتمال المصادفة، وتعده من الحمقى أو البلهاء أو المجانين.

إذن فالنظام الموجود في العالم وفي كل أجزائه وفي كل جزئياته وفي كل ذراته، ـ وكما يقولون: من الذرة إلى المجرة ـ نظام لا يحيط عقول العقلاء، ولا علم العلماء، ولا تحليلات المحللين، ولا بحوث الباحثين، ولا تشريحات المشرحين، إلا بجزء قليل منه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الاسراء: ٨٥].

هذا النظام العجيب الغريب الذي حيّر عقول العقلاء والحكماء، أليس الحكم على هذا النظام بأنه قد حصل اتفاقا وصدفة بدون منظِّم ومرتِّب، أليس هذا الحكم خروجا عن العقل، وركوبا لمتن الجهل والضلال؟

وقد ركز الله تعالى في كتابه الكريم على هذين الدليلين ـ دليل الخلق والإنشاء، ودليل النظام ـ في آيات كثيرة تجاوزت الثمانين كما يقول الآمدي، جمع الله تعالى بينهما في قسم منها، وأفرد قسما منها لكل واحد منهما.

دليل الأنفس:

قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

من دليل النظام دليل الأنفس، فقد جعل الله تعالى من الإنسان بما اشتمل عليه من النظام العجيب وغرائب الصنع نسخة صغيرة من العالم الكبير يتسنى للإنسان أن يكتفي بالتفكر فيه عن التفكر في العالم الكبير.

قال الإمام الراغب الأصفهاني(١): ولما كانت معرفة العالم كله تصعب على الإنسان الواحد لقصور أفهام بعضهم عنه، واشتغال بعضهم بالضرورات التي تعوقهم عنه، جعل تعالى لكل إنسان من نفسه وبدنه عالـَمًا صغيرا أوجد فيه مثال ما هو موجود في العالـَم الكبير، ليجري ذلك من العالـَم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر والليل والنهار، فإن نشط وتفرغ للتبسط في العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالم، فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه، ويتسع فهمه، وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠].

قال الغزالي في المنقذ من الضلال (٦٣): «ولا يطالِعُ التشريحَ وعجائبَ منافع الأعضاء مُطالعٌ إلا ويحصل له العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان،

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ١٥٥.

ولا سيما بنية الإنسان». وقال الآمدي في المأخذ (١٦): «إن حدوث التأليفات العجيبة في بدن الإنسان المعلومة بالتشريح من غير فاعل حكيم قادر عليم مستحيل بالضرورة». هذا.

«فلو نظرنا إلى الإنسان وأجهزته مثلا لرأينا أن كل عضو من أعضائه يقوم بوظيفة معينة، وأنه موضوع لغاية محددة مرسومة، فالعين مثلا وضعت وصممت لتقوم بوظيفة الرؤية، وكل أعضائها وأنسجتها وضعت وصممت لخدمة هذه الغاية؛ والأذن صممت ووضعت لتقوم بوظيفة السمع، وكل عضو من أعضائها صمم ليقوم بوظيفة خاصة تخدم هذه الغاية الكبيرة، وهكذا كل عضو في جسم الإنسان رسمت له وظيفة محددة واضحة يقوم بها، فمن الذي حدد الغايات وصنع كل جهاز وكيَّفَه ليقوم بهذه الغاية؟

إن الناظر في جسم الإنسان أو أي كائن حي آخر يرى أن مصممه وخالقه عالم بما يريد من كل عضو، فالقلب والرئتان والمعدة والأمعاء والكبد والكليتان واللسان والأسنان والغدد المختلفة وغيرها كلها واضحة الأهداف والغايات، فدل ذلك على أن مصممه عالم بالغايات وصمم كل عضو وخلقه ليقوم بتنفيذ هذه الغايات والأهداف بدقة.

ألا ترى أن الذي جعل لسان المزمار في سقف الحلق مثلا يعلم أن وجوده في مكانه ضروري لمنع دخول الطعام إلى الرئتين؟ وأن الذي وضع الصفراء والبنكرياس على علم بأن وجودهما ضروري لتحليل المواد الدهنية؟ وأن الذي وضع الكبد والكليتين في مكانهما على علم بمهمتهما وضرورتهما للجسم؟ وأن الذي وضع في الأذن مادة مرة سامة وفي الفم مادة حلوة (أعني

اللعـاب) علـى علـم بمـا يصنع؟ فلمـاذا لم يكـن الأمر علـى العكس لـو كان الأمر كلـه خبطـا واتفاقا؟!

وما أصدق قول القائل «إن الذي خلق العين على علم بقوانين الضوء، وإن الذي خلق الأذن على علم بنواميس الصوت»، ولو لم يكن خالق العين عالما بقوانين الضوء في الانكسار والالتقاء وغيرهما لما حصلت الرؤية، ولو لم يكن خالق الأذن على علم بنواميس الصوت لما حصل السمع.

إن المصادفة لا يمكن أن تفسر هذا الأمر ألبتة، لأن المصادفة قد تقع في أمر واحد أو اثنين، ولا يمكن أن تجتمع في آلاف أو ملايين الموافقات»[1].

***

دفع شبهة واردة على دليل النظام:

وهنا شبهة يوردها الملاحدة على هذا الدليل، وهي أن هذا النظام الذي ذكرتموه صحيح أنه موجود في قسم كبير من العالم، لكنه لا يُرَى اطراده في كل العالم وكل أجزائه، فقد يُرَى في قسم من أجزاء العالم الفوضى وعدم النظام، فليس النظام مطرد الوجود في كل أجزاء العالم.

والجواب: أولا: أنه لا يلزم من عدم العلم بالنظام عدم النظام، ولا العلم بعدمه، فقد يكون في هذا القسم من العالم نظام محكم لكنه خفي لا نطلع عليه ولا ندركه، وعقل الإنسان عاجز عن إدراك نفسه وحقيقته وحقيقة صاحبه وروحه، فكيف له أن يحيط بكل دقائق مخلوقات الله تعالى وعجائب صنعه.

---

(١) نبوة محمد من الشك إلى اليقين، فاضل صالح السامرائي، ص٢٣ ـ ٢٤.

وثانيا: إن سلمنا أن هذا القسم من العالم ليس فيه نظام فقد يكون الله تعالى خلق هذا القسم هكذا لحكمة أو حِكَم يعلمها هو، وليس كل حِكَمِه تعالى في خلقه معلومة للناس كافة، وعقول الناس عاجزة عن إدراك معظم حكم الله تعالى في خلقه، وقاصرة عن إدراكها، ولا تدرك منها إلا النزر اليسير.

وقد يكون من الحكمة في ذلك أن الله تعالى قد خلق الإنسان وعرضه للابتلاء، ومن ابتلائه تعالى للإنسان أنه لم يجعل الدلائل عليه تعالى من الوضوح والجلاء بحيث لا يختلف فيها العقلاء، ولا بحيث لا تعتريها الشبه والشكوك، فمع نصبه تعالى الدلائل القوية الجلية الكثيرة عليه تعالى لم يجعل لا وجوده تعالى ولا هذه الدلائل بحيث لا تكون مدارا للشبه والشكوك تحقيقا للابتلاء.

وثالثا: إن هذا القسم الكبير من العالم الذي يشاهد فيه النظام مشاهدة جلية لا يختلف فيها العقلاء، كاف في الدلالة على وجود المنظم لهذا النظام، ولا نحتاج في إثبات وجود الله تعالى إلى علمنا بوجود النظام في كل أجزاء العالم، ولا إلى وجوده فيها.

***

دليل الفطرة

الدليل الثالث: دليل الفطرة:

قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

المراد بدليل الفطرة أن الشعور بوجود الله تعالى والإذعان بخالق قادر فوق المادة مركوز في الإنسان، وأمر غريزي فيه، فطر الله تعالى الإنسان على هذا الشعور، لا يغير شعورَه هذا ريب المرتابين، ولا تُزلزله شكوك المشككين، وهذا الشعور قد يخفى ويكمن في الإنسان، لكنه تظهر هذه الفطرة ظهورا جليا في الإنسان عندما تتقطع به الأسباب، وتنعدم عنده الحيل في مواجهة ما ينوبه من المخاطر والكوارث والبلايا، فتراه حينئذ يندفع إلى اللجوء إلى الخالق الذي وجوده مركوز في فطرته، وإلى التضرع إليه في دفع ما ينوبه ويحيق به، لا يرده عن ذلك رادّ من شبه أحاطت بقلبه مهما كثرت، ولا يصده صادّ من شكوك تركزت في نفسه مهما قويت، ولو قُيِّدَ لسان هذا المضطر أو إِيفَ لنطق جنانه وأفصحت عن ذلك إشاراته وأركانه، ووجد حرارة تدفعه إلى بارئه، وتضطره إلى الاستكانة لـمُنشئه، حالة لا تزعزع رواسيَها عواصف الشبهات، ولا تُميل رواسخَها رياحُ التمويهات، لا جرم أن هذا الشعور لا صنع فيه للبشر، ولا كسب فيه بتقليد ولا نظر، بل هو لازم من لوازم الإنسانية، وصفة من صفاتها الذاتية، اشتبك فيها اشتباك اللحم بالعظم، وسرى في قواها سريان الدم في الجسم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

هـذه الفطـرة لا يسـتطيع أحـد أن يبدلهـا ولا أن يقتلعهـا مـن نفـس الإنسـان، لأنهـا خلـق الله، ولا أحـد يسـتطيع أن يبدل خلـق الله كما قال تعالـى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وأقصى ما يستطيع أن يفعله الإنسان والنفس والشيطان بالنسبة إلى هذه الفطرة أن يبقوها كامنة، أو أن يُكمِنوها بعد ظهورها، وأن يضعوا دون ظهورها وظهور آثارها على الإنسان العوائق والموانع من الشبه والشكوك؛ والغفلة عنها، وانهماك صاحبها في الشهوات وحظوظ النفس، وتعويده عليها وعلى ملازمتها، فإن هذه الأمور من شأنها أن تعوق الإنسان عن الاستماع لصوت الفطرة والانصياع له، ذلك الصوت المدوِّي الملِحّ في إيقاظ الإنسان من نوم غفلته.

وهذا ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها» رواه أبو هريرة، ثم قرأ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].(١)

وبقولـه فيمـا يرويـه عن ربـه: «إني خلقـتُ العبـادَ حنفـاءَ كلَّهُم وإنهـم أتتهم الشـياطين فاجتالتهـم عـن دينهـم، وحرمَـت عليهم مـا أَحْلَلْـتُ لهـم، وأمَرَتْهم أن يشـركوا بـي ما لـم أنزل بـه سـلطانا»(٢).

هذه الفطرة الكامنة في نفس المولود تظهر فيه في صور مختلفة:

---

(١) رواه البخاري: ١٣٨٥، ومسلم ٢٦٥٨.

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم عن عياض بن حمَّار: ٢٨٦٥.

منها: وجود نزعة التدين في الإنسان، حتى عرّف بعض الفلاسفة الإنسان بأنه حيوان ديِّن.

ومنها: ظهورها عند الشدائد في صورة الالتجاء إلى الله تعالى وحده، فعند الشدائد تظهر هذه الفطرة كما هي عليه، وكما خلقها الله تعالى، ويندر ألا يمر على الإنسان في حياته لحظات أو أوقات عاش فيها هذه الحالة من اللجوء إلى الله تعالى في الشدائد.

ومنها: تخلي كثير من الملاحدة أو أكثرهم عن الإلحاد إلى الإيمان بالله الواحد القهار عندما تتقدم بهم السن وتنضج عقولهم، وتتغلب على ما يعوق دون الفطرة من الموانع ومن الشبه والشكوك العارضة.

ومنها: ظهور التساؤلات الفطرية في الإنسان عن الكون والإنسان وعن البارئ لهذا العالم، وانبعاثُ هذه التساؤلات من أوائل سن التمييز، وتشتد هذه التساؤلات وتلح على ذهن صاحبها في فترة المراهقة ومناهزة البلوغ، قبيل جريان القلم، وبدء سن التكليف.

وفي هذه المراحل يأتي دور البِيئة والمربي والوالدين، وينقسم الناس بحسب ما تقوم به البِيئة والمربي والوالدان إلى باقٍ على ما تقتضيه الفطرة من الشعور بوجود الخالق البارئ المصور، وإلى منصرف عنه. وينقسم الناس بحسب تلقينات البيئة والمربي والوالدين وتوجيهاتهم إلى مؤمن بالله الواحد القهار، وإلى ملحِدٍ به.

***

خاتمة في بيان أن معرفة الله تعالى معرفة ضرورية ودفع بعض الشبه عنها

علِمنا مما قدمنا أن معرفة وجود الله تعالى معرفةٌ ضرورية لابتنائها على أمرين ضروريين بديهيين؛ الأول: أن المخلوق لا بد له من خالق، والثاني: أن النظام لا بد له من منظم، وعلمنا أيضا أن معرفة وجود الله تعالى ـ زيادة على كونها ضرورية ـ هي أمر فطريّ مركوز في فطَر جميع الناس، وهم مجبولون عليها .

وهنا يأتي السؤال التالي: إذا كانت معرفة الله تعالى بهذا المستوى من الوضوح والجلاء، وإذا كانت فطرية قد جُبل الناس وفُطروا عليها، فلماذا يلحد فريق من الناس وينكر وجود الله تعالى؟

الجواب: أنه كما لا تكون كل العلوم ضرورية، كذلك ليس من شرط الضروري أن يكون معلوما لكل الناس، فكم من ضروري يجهله كثير من الناس، بل كم من ضروري ينكره كثير من الناس.

وبالجملة إن وجود الله تعالى من الضروري الذي قد يخفى على كثير من الناس لوجود الموانع لإدراكه مما قدمناه، ومن المقرر أن حصول كل شيء مشروط بانتفاء الموانع عنه، فوجود الله تعالى من الضروري الذي يحتاج إلى التنبيه عليه بتقرير الدلائل الدالة عليه، كما يحتاج إلى دفع الموانع والعوائق عن إدراكه من الشبه والشكوك وغير ذلك، فالدلائل المساقة لإثباته هي من قبيل التنبيهات، وليست من قبيل الاستدلال على النظريات. والله تعالى أعلم.

وقد انتهينا من موضوع وجود الله تعالى الذي جعلناه مقدمة للمقصود الأصلي في هذا الكتاب وهو إثبات رسالة محمد ﷺ، وبعد ذلك ننتقل إلى ما يتعلق بالرسالة فنقول:

بيان أن إرسال الله للرسل وإظهاره لخوارق العادات على أيديهم أمران جائزان عند العقل وما يتعلق بذلك

الرسالة: كون الإنسان مبعوثا من الحق إلى الخلق لتبليغ دينه وأحكامه وشرائعه للناس، يخبر الله تعالى الرسول بإرساله له بطريق من طرق الوحي، أو يخلق الله علما ضروريا بذلك في الرسول، وبهذا القدر تتحقق صفة النبوة والرسالة فيما بين الرسول وبين الله، ثم يأمره الله تعالى بتبليغ ذلك للناس حتى يكون هذا التبليغ سبيلا إلى علم الناس برسالته لهم.

لكن من عادة الله تعالى وحكمته أن يقرن الرسالة بأمرين بهما تثبت صحة دعواه الرسالة عند الناس، وتقوم الحجة عليهم.

أحدهما: أن يكون الرسول على صفات عالية وخلق عظيم من الصدق والأمانة وغيرهما من الفضائل، تجعل منه أهلا للنيابة عن الله تعالى في تبليغ دينه وأحكامه وشرائعه، ومحلا لوثوق الناس به وللانقياد له ولاتباعه، قال الله تعالى إشارة إلى ذلك الأمر: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وثانيهما: أن يقرن الله تعالى ذلك بإظهار الخوارق للعادة على يديه، يكون هذا الإظهار تصديقا لدعواه الرسالة، وإقامة من الله للحجة البالغة على الناس، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

الرسالة من الله مبنية على تحقق عالم الغيب، وعلى جواز خرق العادة:

فالرسالة علاقة غيبية بين الله تعالى وبين رسوله قائم ثبوتها عند الناس على أمر خارق للعادة، وهو ما يسمى بالآيات والبينات بلغة القرآن، وبالمعجزات في عرف العلماء، فثبوت الرسالة موقوف على ثبوت أمرين، الأول: وجود عالم الغيب وعدم انحصار الموجود بعالم الشهادة، وهو ما يدرك بإحدى الحواس الخمس، وثانيهما: جواز خرق العادة، فنقول:

وجود عالم الغيب ومنه وجود الله تعالى والملائكة والجن والوحي والرسالة والحشر والحساب والجنة والنار وغيرها قسمٌ منه وجوده واجب وعدمه محال، وهو الله تعالى بصفاته، وقسم منه وجوده جائز ليس وجوده واجبا ولا مستحيلا وهو ما عدا الله تعالى من الغيوب، وكل من القسمين قد قام الدليل القطعي على وجوده، أما الله تعالى فوجوده مدلول عليه بوجود العالم على هذا النظام العجيب كما تقدم بيانه، وأما ما عداه تعالى من الغيوب فقد دل على ما يجب الإيمان بخصوصه منها أيضا الدلائل القطعية المبيَّنة في محلها من كتب العقيدة وكتب الكلام.

***

من الغيب حقيقة الإنسان:

أقول: ومن الغيب الإنسان نفسه، وذلك لأن حقيقة الإنسان من عالم الغيب، وأما الذي منه من عالم الشهادة فهو جسده، بيان ذلك أن روح الإنسان غيب، وعقله غيب، وصفاته الروحية والعقلية من علمه وذكائه وشجاعته وجوده وكرمه وأضدادها كلها غيب، وكذلك ميوله ورغباته وطموحاته كلها غيب، لا يُحَسُّ شيءٌ

من هذه الأمور بإحدى الحواس الخمس الظاهرة، وإنما يُحَسُّ بها صاحبها بحسه الباطني، ويستدل على وجودها غيره بآثارها وبالقرائن الدالة عليها.

* * *

من الغيب العلاقة بين السبب والمسبب:

ومن الغيب أيضا العلاقة بين السبب والمسبب ولماذا كان هذا سببا لذلك ولم يصر سببا لضده أو لشيء آخر، هذه العلاقة أيضا من الغيب، وذلك لأن المشاهد من السبب والمسبب هو مجرد المقارنة بينهما، وهذا هو كل ما يمكن أن تصل إليه تجربة المجربين، وأما أن السبب هل هو مؤثر في المسبب أم المؤثر هو قدرة الله تعالى فقط أو مع السبب، وإذا كان السبب مؤثرا في المسبب فلماذا كان أَثَّرَ فيه، ولماذا كان سببا له لا لضده ولا لشيء آخر؟ فهذه كلها من الغيب، لا سبيل إلى العلم بها بالحواس والتجربة، ومن أجل ذلك يُعلن علماءُ التجربة أنهم إنما يستطيعون الإجابة على كيف فقط، وأما الإجابة على لماذا فهم عاجزون عنها، وهي خارجة عن موضوع بحثهم.

نعم عندما يرى الإنسان المقارنة المستمرة بين السبب والمسبب يحكم وهمه بأن السبب هو المؤثر في المسبب، لكن هذا الحكم حكم للوهم لا للعقل، يجوز العقل فيه الخطأ ويجوز أن يكون المؤثر في المسبب شيء آخر كقدرة الله تعالى، والإنسان بطبعه أطوع للمخيلات والوهميات منه لليقينيات، فبناء على ذلك يعتقد تأثير السبب في المسبب، ويرى هذا التأثير أمرا حتما لا يجوز تخلفه، لكن عندما تواجهه بالسؤال بـ (لماذا) يبقى باهتا حيران.

فعندما تسأله لماذا أثرت النار الحرارة ولم تؤثر البرودة، ولماذا كان الثلج

بالعكس، ولماذا كان تركيب السم مؤثرا في مرض الحيوان وموته ولم يؤثر في شفائه، ولماذا كان تركيب العسل بالعكس؟ يبقى باهتا متحيرا ليس عنده أي جواب، إلا أن يقول: هكذا وجدنا هذه الأمور تؤثر هذه التأثيرات، الجواب هو هذا فقط، هو التجربة فقط، والتجربة لا تدل إلا على وجود الأمر الذي ثبت بها، لا تدل على أكثر من ذلك، ولا تدل على امتناع خلاف ما ثبت بها، ولا على كون خلافه محالا لا يمكن وجوده، بل كان من الممكن أن تُثْبِت التجربة خلاف ما أثبتته أو نقيض ما أثبتته، مثلا إذا كنت لا تعرف النار، وحاولت أن تتعرف عليها أول مرة، فحاولت الاقتراب منها كان من الممكن عندك أن تجدها باردة قارصة، وكان من الممكن أن تجدها مثل سائر الأجسام لا حارة ولا باردة.

***

الحل المعقول لمشاكل الخلق هو الإيمان بالله وبقدرته المطلقة:

والجواب الصحيح لهذه الأسئلة لا يوجد إلا بعد الإيمان بالله تعالى وبقدرته المطلقة، وبعلمه المحيط الشامل، وبالإيمان بأن الله هو خالق الأسباب والمسببات، وبأنه هو الذي ربط بينها ربطا مستمرا، وهو الذي وضع هذا النظام العجيب في العالم، ثم الإيمان بأن الله عندما يريد أن يخرق عادته وأن يغير هذا النظام بالحذف والإضافة أو يريد أن يغيره تغييرا كاملا، وعندما يريد أن يقطع الربط بين الأسباب والمسببات ويخلق المسببات بدون أسبابها، يتحقق ما يريده، لأن هذه الأمور كلها من الجائزات والممكنات التي يجوز عليها كل من الوجود والعدم، ولابد في وجودها من خالق، ولعدمها بعد وجودها من معدم، وهو الله تعالى، وليس خرق

النظام وتغييره بأصعب من إيجاده وخلقه، وخلق المسبب وحده ليس أصعب من خلقه مقرونا بسببه العادي، فإن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وليست هذه الأمور من الواجبات التي يستحيل تغييرها وتبديلها، فإنه لا واجب الوجود إلا الله تعالى.

هذا الإيمان هو الحل المعقول المريح الوحيد لكل ما يواجه الإنسان من مشاكل الخلق، ولكل ما يشغل عقل الإنسان وباله منها.

***

الفارق بين المحال العقلي والممكن الخارق للعادة:

والأصل في هذا الباب أنه لا بد من التفرقة بين المحال العقلي والممكن الخارق للعادة، وقد يسمى هذا بالمحال العادي، وقد بينا الفرق بين المحال والممكن سابقا، وذلك أن المحال هو الأمر الذي لا يمكن وجوده في حد ذاته، وبناء على ذلك لا تتعلق قدرة الله به، فإن قدرة الله إنما تتعلق بالممكنات، ومثال المحال كون الشيء الواحد متقدما على نفسه ومتأخرا عنها، وأكبر منها وأصغر منها، وكون الشيء الواحد في آن واحد أبيض وأسود، وكونه في مكانين مختلفين، وكون الدنيا مع كبرها داخلة في قشر بيضة مع صغرها، وكون الله تعالى معدما لنفسه، وخالقا لها ولمثلها.

فهذه الأمور وأمثالها محالات لا تتعلق قدرة الله بها.

وأما الممكن فهو الأمر الذي يجوز عليه الوجود والعدم على حد سواء، لا يلزم من أحدهما أي محال، وثبوته بالتجربة إنما يدل على وجوده فقط، ولا يدل على عدم إمكان عدم وجوده واستحالته.

والممكن قسمان: قسم: جرت عادة الله تعالى بخلقه مقرونا بسببه العادي، وهو معظم الموجودات الممكنة، وهذا هو عادته المستمرة، عندما لا يريد خرقها لأجل أمرٍ ما ولسبب ما.

وقسم: يخلقه الله تعالى بدون هذه المقارنة أي يخلقه مفصولا عن سببه العادي وبدونه لسبب ما، وهذا هو الممكن الخارق للعادة، وينقسم إلى أقسام، ومنه معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والسحر، وكلا القسمين بالنسبة إلى قدرة الله تعالى على حد سواء، فإن الله تعالى القادر المطلق الذي قارن بين السبب والمسبب، وخلقهما مقترنين قادر على أن يفصل بينهما ويخلق المسبب بدون هذا السبب العادي، والله الذي خلق هذا النظام في العالم قادر على أن يُعَدِّلَه بالحذف والإضافة، كما أنه قادر على أن يغيره تغييرا كاملا.

***

كل مخلوقات الله تعالى معجزات:

وفي الحقيقة إن كل مخلوقات الله تعالى معجزات، وليس هناك مخلوق لله هو معجز ومخلوق غير معجز، فإن الإنسان كما أنه عاجز عن الإتيان بمثل خارق العادة كذلك هو عاجز عن الإتيان بمثل ما هو غير خارق للعادة من مخلوقاته تعالى، ولو اجتمع خبراء العالم كلهم على أن يخلقوا الحياة في جماد، أو يخلقوا ذبابة أو بعوضة لباءوا بالفشل وعادوا خاسئين حسيرين، والفرق بين مخلوقات الله تعالى أن معظمها معجزات مألوفة، من ألفة الناس بها يتوهمونها غير معجزات، وقليل منها معجزات غير مألوفة.

وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٣ـ ٧٥].

والحقيقة أن مشكلة الذين ينكرون إمكان وجود خوارق العادات أن إنكارهم إما مبني على عدم الإيمان بالله تعالى وبقدرته المطلقة التي يجوز تعلقها بكل الممكنات، وعلى توهم الملازمة العقلية والحتمية بين الأسباب ومسبباتها، أو مبني على عدم التفرقة بين المحال العقلي وبين الممكن الخارق للعادة، وتوهم الممكن الخارق للعادة من المحال الذي لا يمكن وقوعه، ولا تتعلق قدرة الله تعالى به.

فتبين أنه ليس عند منكري خوارق العادات أي دليل عقلي على إنكارها، والموجود عندهم مجرد الاستبعاد الذي يعتقدونه جهلا منهم استحالة عقلية، لعدم ألفتهم بالخوارق.

* * *

جواز خرق العادة، وتعريف المعجزة:

وأما جواز خرق العادة: والمراد بالخارق هنا المعجزة الاصطلاحية فقد عرفها العلماء بأنها «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة له من أحد»، والمراد بالتحدي هنا دعوى الرسالة، والمراد بخارق العادة أمر ممكن في نفسه يجوز عليه كل من الوجود والعدم، ليس محالا عقليا، لكنه ممتنع في العادة بمعنى أنه لم تجر عادة الله بوقوعه، لكونه خارجا عن نظام السبب والمسبب الذي خلق العالم عليه، وموجودا على خلافه: كانقلاب العصا حية، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فإن هذه أمور ممكنات، وليست من المستحيلات

التي لا يجوز العقل وقوعها. وإبداعُها ليس أبعد من إبداع الأرض والسماء وما بينهما، وقد بينا هذا آنفا، والجزم بعدم وقوع بعضها كانقلاب الجبل ذهبا والبحر عسلا لا ينافي إمكانها الذاتي، ومن أجل ذلك قال العلماء: «التجويز العقلي لشيء لا ينافي العلم اليقيني بخلافه» لأن العادة المطردة أحد أسباب العلم.

ثم إن وقوع خوارق العادات ـ ومنها معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ـ أمر مشاهد لكثير من الناس، ومنقول بطريق التواتر للآخرين، إن لم تتواتر أفرادها فالقدر المشترك منها لا شبهة في تواتره، فوجب قبوله والاعتراف به.

***

الخوارق للعادة بعد ثبوتها تكون من المجربات، وبيان أن التجربة تدل على تحقق الأمر الذي ثبت بها، ولا تدل على امتناع خلافه واستحالته:

وبعد هذا نقول: إن الخوارق للعادة بعد مشاهدتها أو ثبوتها بطريق التواتر تكون هي أيضا من المجربات[1]، إلا أنها نوع آخر من المجربات لا يعارض وجودُها وجودَ النوع المألوف من المجربات ولا يناقضه، وذلك أن التجربة إنما تدل على وجود ما ثبت بها فقط، ولا تدل على عدم إمكان خلافها ولاعلى كون خلافها محالا. مثلا أثبتت التجربة أن الأفراد التي رآها عامة الناس من النار محرقة، ثم رأى واحدٌ من الناس أو جماعةٌ منهم أن واحدا أو جماعة من الناس يدخلون النار أو يتناولون النار بأيديهم بدون أن تحرقهم أو تؤثر فيهم، فهذه تجربة أخرى مخالفة

(١) المراد بالمجرَّبات هنا ما هو مقابل للعقليات، والمراد بها ما ثبت بالعقل الصرف بدون دخل للتجربة وللحس فيه، فيدخل في المجربات بهذا المعنى المحسوسات والمتواترات.

للتجربة الأولى، لا تنفيها ولا تعارضها ولا تناقضها، بل تدل هذه التجربة الثانية غير المألوفة على أن الإحراق ليس صفة حتمية لازمة للنار لا يمكن تخلفه عنها، وتدل مع ذلك على أن للنار خالقا مريدا قديرا جعل لها خاصية الإحراق، وعندما يريد سلب هذه الخاصية عنها يسلبها وتبقى النار نارا بدون خاصية الإحراق، هذا مثال وقس عليه غيره من الأسباب العادية.

فثبت بهذا البيان أن الأمرين الذين يتوقف عليهما وجود الرسالة من الله تعالى أمران جائزان بل واقعان، ولم يبق مانع أمام العقل من حكمه بأن الرسالة أمر جائز الوقوع، ولا مانع من وقوعها.

ثم نقول: إن طريق النقل وطريق الرواية التي قررها علماء الحديث لنقل السنة النبوية ونقل المعجزات النبوية التي هي إما طريق التواتر أو طريق الآحاد الصحيح المتصل بنقل الثقات عن الثقات، هي أصح طريق يمكن أن يتصوره العقل لنقل الأخبار، وهذه الطريقة هي التي توفر الدليل العلمي على ثبوت المعجزات لسيدنا محمد ﷺ، ولا يساوي هذا الطريق في الصحة ولا يدانيه طريقُ نقل أي رواية تاريخية أخرى.

وأخيرا نريد أن ننبه على أمر، وهو أن التعريف الذي تقدم ذكره للمعجزة خاص ـ بحسب الظاهر ـ بالمعجزة الحسية، ولا يشمل المعجزة المعنوية، لكن العلماء كثيرا ما يطلقون المعجزة على كل واحدة من الحسية والمعنوية إما على سبيل التوسع والتسامح، أو بملاحظة دخول المعنوية منها تحت التعريف المذكور وعدها من أفراده، وسيمر هذا بنا في الصفحات التالية، فكن على ذُكْرٍ منه.

خلاصة هذا البحث:

١ ـ إن المعجزة ما هي إلا أمر خارق للعادة ومخالف لقاعدة العلة والمعلول والسبب والمسبب يظهره الله تعالى للناس آية على صدق نبي من أنبيائه، وإقامة للحجة عليهم.

٢ ـ إن خرق العادة والفصل بين السبب والمسبب العاديَّين أمر ممكن بل هو واقع في نفس الأمر.

٣ ـ إننا لا نعرف السنن الكونية وقاعدة العلة والمعلول العاديَّين والربط بينهما إلا بالتجربة، والتجربة لا تثبت إلا وجود الأمر المجرَّب، ولا تثبت امتناع خلافه.

٤ ـ وبناء على ذلك لا يجوز لعاقل ادعاء الشمول والحتمية فيما ثبت عن طريق التجربة، ولا الاستدلال بها على استحالة المعجزات.

و بعد ذلك ننتقل إلى بيان أن الرسالة من الله تعالى حاجةٌ بشرية، وأنها مقتضى حكمة الله تعالى، ومقتضى رحمته بعباده ولطفه بهم.

* * *

حاجة الناس إلى رسل الله وبيان أن إرسالهم مقتضى حكمة الله ورحمته بعباده ولطفه بهم

مما يذكره التاريخ وتؤيده النصوص الدينية أنه قد ظهر على مدار الزمان في الأمم السابقة أشخاص يدَّعون أن الله تعالى قد أرسلهم لهداية الناس، يَدْعونهم إلى توحيد الله وعبادته، وإلى العدل والإحسان إلى الخلق، وإلى الأخذ بالمعروف والأمر به والابتعاد عن المنكر والنهي عنه، ويبينون للناس أن الله تعالى قد أعد لمن صَدَّقَهم وآمن بهم وعمل بما جاءوا به سعادةً أبدية، وأعد لمن لم يؤمن بهم وبما جاءوا به شقاء أبديا في حياة ثانية ينتصف فيها المظلومون من الظالمين، ويخلد الناس فيها إما في الجنة أو في النار، ويسمى هؤلاء الذين يتكلمون نيابة عن الله تعالى بالأنبياء والرسل.

فهل يا ترى كان هؤلاء المدعون لهذه الدعاوى صادقين في دعاويهم العظيمة هذه التي لا يوجد دعوى أعظم منها، وهل أن مقتضى حكمة الله تعالى ورحمته ولطفه بالناس أن يرسل إليهم أفرادا من البشر ينوبون عن الله تعالى في تبليغ أحكامه إليهم؟ وهل الناس بحاجة إلى هؤلاء الأفراد أو هذا النوع من الدعاة إلى الله تعالى وإلى دينه؟

عندما نقرأ القرآن نراه يقرر أن إرسال هذا النوع من الناس مقتضى حكمته تعالى وربوبيته ورحمته ولطفه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن

﴿شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١]، كما نرى أن القرآن يقرر أن هذا أمر واقع وأن الناس بأمس حاجة إليهم، قال الله تعالى: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥]، وقد قرر القرآنُ هذا في آيات كثيرة لا يقل عن تقرير الله في القرآن لربوبيته وإلـٰهيته.

وبعد هذا نقول: إن الله تعالى قد كرم بني آدم بمكارم كثيرة وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وأعظم هذه المكارم وأفضل هذه النعم هو العقل الذي به امتاز الإنسان عن بقية الحيوانات، وبه استحق أن يكون خليفة الله في أرضه، لكن الله تعالى لم يمنح الإنسان من العقل القدر الذي يستغني به عن ربه، ويكتفي به عن وحيه وعن رسله، بل أعطاه من العقل القدر الذي يكفيه في أصول معاشه الدنيوي من مطعمه وملبسه ومسكنه ومنكحه، دون معرفة أحكام تفاصيل حياته الدنيوية، ودون معرفة ربه حق المعرفة، ودون معرفة كيفية إقامة العلاقة بخالقه ورازقه.

أما معرفة الإنسان لأحكام تفاصيل حياته الدنيوية الفردية والاجتماعية، وتمييز الخير فيها من الشر، ومعرفة أموره الدينية من معرفة ربه وكيفية إقامة العلاقة بخالقه ورازقه، فالعقل فيه عاجز وقاصر، ولا يتم للإنسان الاستفادة من العقل في هذه الأمور إلا إذا سار في ضوء وحي الله تعالى وتعليماته، وإلا ضل العقل وغوى، وتردى بصاحبه في مهاوي الردى، فكان الإنسان بأمس الحاجة إلى وحي الله وإلى رسل الله حتى ينيروا لهم الصراط المستقيم الذي إذا سار الإنسان فيه اهتدى

لمصالحه الدنيوية والأخروية وفاز بسعادة الدارين، وإليك بعض التفصيل لهذا فنقول:

الرسالة أمر ضروري للبشر، كما أنها مقتضى ربوبية الله تعالى وحكمته ورحمته بعباده ولطفه بهم من أوجه متعددة:

١ ـ من الواجب على العاقل قبل كل شيء أن يعرف خالقه ورازقه الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، والعقل الإنساني يستقل بمعرفة وجود الله تعالى لظهور الدلائل والبراهين الدالة على ذلك ووضوحها وكثرتها، ومن أجل ذلك عد فريق من العلماء معرفة الله تعالى واجبة بالعقل دون الشرع، بمعنى أن الشرع ورد أو لم يرد، وبعد ورود الشرع وصلت دعوة النبي إلى المكلف أم لم تصل إليه، فإن معرفة الله واجبة على المكلف في كل هذه الأحوال.

لكن القدر الذي يستقل العقل الإنساني به من معرفة الله هو المعرفة الإجمالية دون المعرفة التفصيلية، وهي معرفة ما يجب لله تعالى من الصفات، وما يجوز له وما يمتنع عليه، فإن العقل عاجز وقاصر عن إدراك هذه التفاصيل، والدليل على ذلك أن الكثرة الكاثرة من الفلاسفة مؤمنون بالله تعالى على وجه الإجمال، وأما تفاصيل صفات الله تعالى فهم مختلفون فيها اختلافا ذريعا، بل لم يؤمن بالله تعالى بالطريقة التي وردت على لسان الأنبياء واحد من الفلاسفة، وكثير منهم مشركون بالله غيرَه.

ومما يؤيد هذا أننا نرى الفلاسفة عندما يتحدثون عن مسائل ماوراء الطبيعة يختلفون فيها اختلافا ذريعا، وقلما يتفق اثنان منهم في مسألة على رأي واحد، وأما أنبياء الله تعالى ورسله فقد اتفقوا كلهم فيما أخبروا به من أمور ما وراء الطبيعة،

وفيما أمروا به من محاسن الأخلاق، وفيما أتوا به من أصول الشرائع، وما ذلك إلا لأن مصدرهم الذي تلقوا عنه معلوماتهم واحد، وهو الوحي من قبل الله تعالى، وانما اختلفوا في بعض تفاصيل الأحكام وتفاريع الشرائع حسبما يناسب حال أممهم الذين أرسلوا إليهم.

فالعاقل إذن بأمس حاجة إلى إرسال الرسل من قبل الله تعالى حتى يتمكن من معرفة خالقه على الوجه الحق، وعلى الوجه الذي يجب عليه.

٢ ـ إن الإنسان من أجل أنه مخلوق لله تعالى وأن الله قد أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة لا يكفيه في القيام بواجبه أمام ربه مجرد معرفة خالقه وإن كانت هذه المعرفة صحيحة، بل يجب عليه أن يقوم باعترافات يومية بربوبية ربه له وبعبوديته لربه، وذلك من أجل القيام بواجب شكر نعم ربه عليه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وهذه الاعترافات هي ما تُسمّى بالعبادة لله تعالى، والعقل الإنساني عاجز عن إدراك ما يليق بالله تعالى من أجناس العبادات وأنواعها وتفاصيلها، كما أنه عاجز عن تنظيمها تنظيما لائقا بالله وبعبوديته لله.

فالعاقل بأمس حاجة إلى رسل الله تعالى حتى يتمكن من هذه المعرفة الواجبة عليه، ويقدر أن يقوم بواجبه أمام ربه وخالقه.

٣ ـ إن الله تعالى قد أخبر في جميع ما أنزله من كتبه أن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى أبدية، وأخبر أن من عرف الله كما يجب وأطاعه وقام بحق عبادته فإن له السعادة الأبدية في تلك الحياة، وأن من كفر به ولم يعرفه كما يجب ولم يطعه فإن له الشقاء الأبدي، نعم هذه الحياة الأخرى بعد الموت لا يستقل العقل بمجرده بإثبات وجودها، وليس عنده الدلائل العقلية المجردة القاطعة على تحققها، لكنه

مما لا يجوز أن يختلف فيه العقلاء أن هذه الحياة الأخرى مما يُجَوِّزُ العقل تحققها ووجودها، ولا يوجد عند أحد من العقلاء دليل واحد يدل على كون هذه الحياة الأخرى ممتنعة أو محالة، والموجود عند المنكرين لها إنما هو مجرد استبعادات خارجة عن العقل، قد أورد الله تعالى هذه الاستبعادات في كتابه ورد عليها ردا عقليا مفحِما ملزِما، وذلك في آيات كثيرة نورد منها الآيات الواردة في آخر سورة يس من قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ إلى آخر السورة.

وعجيب أمر هذه الآيات، وأعجب منها أمر من تدبرها ولم يذعن لها ولم يؤمن بها ولم يؤمن بمرسلها ولم يؤمن برسولها.

ولولا أنبياء الله تعالى ورسله وإخباهم عن الله تعالى بوجود هذه الحياة وتحققها لبقي الإنسان مبتلى بهذه الاستبعادات الخارجة عن العقل، ولبقي جاهلا بربه لا يعرفه حق المعرفة، ولبقي جاهلا بما يجب عليه أمام ربه من القيام بعبادته، فيُحرَم السعادة الأبدية ويستحق الشقاء الأبدي.

وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾.

٤ ـ إن الإنسان عندما يؤمن بما يؤمن به مستندا إلى رسل الله المؤيدين بالآيات والبينات القاطعة في صدقهم في دعواهم الرسالة من الله تعالى يكون مطمئن القلب مرتاح البال منثلج الصدر بما يؤمن به، فإنه يشعر أنه قد استند في ما آمن به إلى ركن متين وإلى خبرِ صادق أمين، وإلى نصوصٍ لا يتطرق إليها احتمال الشكوك والشبه، فتغمر السعادة باطنه وتعمر ظاهره، فيعمل بما آمن به من الأحكام والتكاليف براحة نفسية واطمئنان عقلي وحماس قلبي، ويضحي في سبيل ما آمن به عن هذا الطريق

بالنفس والنفيس، وهذا هو السر فيما قام به أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان من الأعمال العجيبة في سبيل الله وسبيل الدعوة إلى دينه وفي سبيل نشر الإسلام من التضحية بالنفس والنفيس في هذا السبيل، ومن قضائهم مع قلة عددهم وضعف عُدَّتهم في فترة وجيزة من الزمن على مجموعة من الدول كانت أقوى دول في العالم وأعظم إمبراطوريات في ذلك العصر.

وأما الذي يفتقد هذا السند من الإيمان فيفتقد السعادة النفسية واطمئنان القلب وانشراح الصدر، ويكون منزعج البال شقي الحال، تظهر آثار هذا الانزعاج والشقاء على سيماه وفي تصرفاته وعلى فلتات لسانه، تغمر الشبه والشكوك عقله، وتملأ الظلمة وعدم الاطمئنان قلبه، فلا يستريح إلى يقين ولا يتحمس لدين، ولا يحترم أي نظام وقانون، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٥ ـ إن العقل البشري ـ كما قلنا ـ عاجز وقاصر عن إدراك الحكم الصحيح في تفاصيل ما يتعلق بمصلحة الإنسان ومضرته في كثير من المسائل الإنسانية الرئيسة، والدليل على ذلك اختلاف مفهوم الحق والعدل عند الناس، واختلاف الوسائل الموصلة إلى الحق والعدل عندهم، والدليل على هذا اختلافهم في المباديء والاتجاهات التي ينبغي أن تحكم الإنسان، والتي ينبغي أن يسير الناس في حياتهم عليها، حتى يتحقق فيهم العدل ويعيشوا في سعادة، ثم اختلاف الدساتير التي توضع لضبط أمور الدولة والأفراد، واختلاف القوانين المتشعبة عنها.

فمن الناس من يرى الصواب في الاتجاه المادي في الحياة، ومنهم من يرى

العكس، ومنهم من يرى المبدأ الرأسمالي هو الصواب، ومنهم من يذهب إلى الشيوعية، ومنهم من يذهب إلى الاشتراكية، وناس يدعون إلى الإنسانية، وآخرون يدْعون إلى القومية، وآخرون يدعون إلى الحرية، وآخرون يدعون إلى الديكتاتورية، وآخرون إلى التحفظ، وآخرون إلى الانطلاق والانفلات، وكل هؤلاء أرباب عقول، ولا يُتصور أن يكون كل على الحق.

فهذا الاختلاف بين هؤلاء العقلاء يدل دلالة قاطعة على أمرين:

الأول: أن العقل البشري عاجز وقاصر عن إدراك الحق في أهم ما يخصّ البشر أنفسهم من مفهوم الحق والعدل ومن الوسائل الموصلة إليهما المحققة لسعادة البشر.

الثاني: من المقرر عند العقلاء أن العاجز القاصر لا بد أن يكون تحت وصاية الآخرين، فالعقل البشري لا بد أن يكون تحت وصاية ربه عن طريق رسل الله وأنبيائه. فالرسالة ضرورة إنسانية من أجل الوصول إلى الحق ومن أجل تحقق العدل. وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقال: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

٦ ـ إن التشريعات البشريةَ إضافةً إلى العجز والقصور الفطري في عقل واضعيها يسيطر عليها الهوى والمصلحة الضيقة في الغالب، وإن نجت من الهوى في نطاق بلد معين لم تنج منه بالنسبة لخارج هذا البلد، ولا أدل على ذلك من تشريعات الدول التي تمس مصالح الدول الأخرى أو تمس مصالح القوميات التي ليست في سدة الحكم من تلك الدولة، وهذا ما يشاهد في تشريعات تلك الدول عامة، وفي تشريعات الدول الكبرى مع الصغرى حيث تبيح لأنفسها من أجل مصلحتها

استعمار الدول الصغرى أو تقويضها بشتى الطرق لامتصاص خيراتها، كما يشاهد هذا في تشريعات دول تسوغ ظلم فريق من أبناء البلد الواحد لاعتبارات سخيفة لا يقرها عقل سليم كما نشاهده في تشريعات أمريكا بالنسبة إلى السود من مواطنيها.

٧ ـ إن التشريعات الصحيحة الصالحة للتطبيق هي التشريعات التي تحظى بقدر كبير من الاحترام والخضوع لها ولواضعيها، وهذه الصفة لا توجد إلا في التشريعات التي تأتي من قبل الله عن طريق أنبيائه حيث ينظر الناس إليها على أنها أحكام ربانية يجب على المؤمن رعايتها وتطبيقها في السر والعلن، ويعدون ذلك من العبودية لله تعالى، ومن وسائل التقرب إليه.

وأما ماعداها من التشريعات البشرية فهي دائما عرضة للإخلال بها في السر والعلن عندما تخالف الأهواء والمصالح الفردية أو الجماعية، كما أنها عرضة للتفلت منها أو التحايل عليها حتى عند واضعيها عندما تخالف أهواءهم ومصالحهم، وكثير من التشريعات البشرية أضحت ميتة أو ولدت ميتة لا يراعيها أحد، ويخالفها الناس علنا دونما خوف من سلطات الدولة ولا وجل، والسلطات نفسها لا تراعيها أو لا تعلمها.

ومن أمثلة ذلك محاولة الولايات المتحدة الأمريكية حظر شرب الخمر على مواطنيها، فأصدرت قانونا بحظر الخمر صنعا وبيعا ومتاجرة وشربا واستيرادا، وهددت بالعقوبات القاسية لمن يرتكب شيئا من ذلك، ومهدت لتشريع هذا القانون بكل وسائل الإعلام، واستعانت بالمختصين من أطباء واجتماعيين وأساتذة لبيان مضار شرب الخمر، وأنفقت في سبيل ذلك ملايين أو مليارات الدولارات، ثم كانت النتيجة أن فشلت الدولة الجبارة الفشل الذريع الكامل واضطرت إلى إلغاء

القانون، ولم يكن هذا الفشل ـ مع أن هذا القانون كان حقا وعدلا ـ إلا لأن الهوى كان أكبر من القانون، ولأن احترامه واحترام واضعيه كان مفقودا في القلوب.

وبخلاف ذلك كان تحريم الخمر في الإسلام حيث اجتنبه الناس اجتنابا كاملا، وأراقوا ما كان عندهم بسكك المدينة المنورة بمجرد كلمة وردت في القرآن، وهي: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة ٩٠] مع أن هؤلاء كانوا قد عاصروا الجاهلية وتعودوا على شرب الخمر، ولم يكن ذلك إلا لأن نفوسهم كانت عامرة بالخضوع لله تعالى وممتلئة هيبة واحتراما لأحكامه.

٨ ـ من المعلوم إجمالا وتفصيلا أن الله تعالى قد خلق هذا الكون على نظام دقيق مُتْقَن مُحْكَم، وخلق الإنسان كذلك، وهيأ الأرض للحياة عليها ولظهور الإنسان السيد في هذه الأرض، وسخرها للإنسان ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فليس من المناسب بحكمته تعالى أن ينظم الإنسانَ وينظم كل شيء ويهيئه لمنفعته، ويترك الإنسان نفسه بلا نظام ولا قانون يتخبط في ظلمات الاختلافات والتناقضات، بل المتفق بحكمته تعالى أن ينزل على البشر أحكاما وقوانين تنظم علاقاتهم مع الله تعالى ومع بعضهم البعض.

مّما قدمناه علم أن إرسال الرسل مقتضَى حكمته تعالى ورحمته ولطفه بعباده، كما أنها حاجة ضرورية للبشر لمعرفة خالقهم وللقيام بحقوقه عليهم، ولقيام العدل فيهم وتحقق السعادة فيما بينهم، وصدق الله إذ قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١].

* * *

ما لأجله خلق الله الإنسان، وبماذا يستحق الخِلافة في الأرض، وبيان أن أحق الناس بالخِلافة وبسياسة الناس هم رسل الله ومن هم على منهجهم

قال الراغب الأصفهاني[1]: الإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالآخر... وإنما شرفه بأنه يوجد كاملا في المعنى الذي وجد من أجله.

وبيان ذلك أن كل نوع أوجده الله تعالى في هذا العالم، أو هَدَى بعض الخلق إلى إيجاده وصنعه، فإنه أُوجِدَ لفعل يختص به، وله غرض لأجله خص بما خص به، ولولاه لما وجد، فالبعير إنما خص بذلك (أي بما خص به) ليحملنا وأثقالنا إلى بلد لم نكن بالغيه إلا بشق الأنفس، والفرس ليكون لنا جناحا نطير به، والمنشار والمنحت لنصلح به الباب والسرير ونحوهما، والباب لِنَحْرُزَ به البيت.

والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

١ ـ عبادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وذلك هو الامتثال للباري عز وجل في أوامره ونواهيه (وفي مقدمتها معرفة الباري كما يجب).

٢ ـ وعمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ٨٢.

﴿فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وذلك تحصيل ما به تَزجِيَة المعاش لنفسه ولغيره بالقيام بما فيه تَزجِيَة لحياة الناس وصلاح معاشهم.

٣ ـ وخلافة الله المذكورة في قوله تعالى ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وفي غيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر الطاقة في السياسة باستعمال مكارم الشريعة. ومكارم الشريعة التي هي الحكمة، والقيام بالعدالة بين الناس والحلم والإحسانُ والفضلُ.

وكل ما وُجد لفعل فشرفه بتمام وجود ذلك الفعل منه، ودناءته بفقد ذلك الفعل منه، فمن لم يصلح لعبادة الله تعالى ولا لعمارة أرضه ولا لخلافته فالبهيمة خير منه، ولذلك قال الله تعالى في ذم الذين فقدوا هذه الفضيلة ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فالخلافة تُسْتَحَقُ بالسياسة، وذلك بتحري مكارم الشريعة.

والسياسة ضربان:

أحدهما: سياسة الإنسان نفسَه وبدنَه وما يختص به.

والثاني: سياسة غيره من ذويه وأهل بلده، ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه، ولهذا ذم الله تعالى من ترشح لسياسة غيره فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مُهَذِّب لنفسه فقال: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وبهذا النظر قيل: «تفقهوا قبل أن تسودوا» تنبيها على أنكم لا تصلحون للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة، ولأن السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل، ومن المحال أن يستوي الظل وذو الظل أعوج، ولاستحالة أن يهتدي المسوس مع كون السائس ضالا، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور ٢١]، وحَكَمَ الله تعالى أنه محال أن يكون مع اِتّباع الشيطان لا يأمر بالفحشاء والمنكر، فلا يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس، لأن الخلافة هي الاقتداء بالله على قدر طاقة البشر في تحري الأفعال الإلـٰهية (أي في خلافة الله في الحكم بين الناس بالعدل) ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل، وكل إناء بالذي فيه ينضح، وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

ثم قال الراغب[١]: «أشرف أصول الصناعات السياسية أربعة أضرب:

الأول: سياسات الأنبياء، وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم.

والثاني: الولاة، وحكمهم على ظاهر العامةِ والخاصةِ دون باطنهم.

والثالث: الحكماء، وحكمهم على باطن الخواص.

والرابع: الفقهاء والوَعَظة، وحكمهم على بواطن العامة.

وأشرف هذه السياسات الأربعة بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب الناس به».

***

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ٢٧١.

ما يعرف به صحة النبوة من المعجزات نوعان: معجزات عقلية ومعجزات حسية

قال الراغب الأصفهاني[1]: «لكل نبي آيتان:

إحداهما: عقلية، يعرفها أولو البصائر من الصديقين والصالحين ومن يجري مجراهم.

والثانية: حسية، يدركها أولو الأبصار من العامة.

فالأولى: ما لهم من الأصول الزكية، وصورهم المرضية، وعلومهم الباهرة، ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة، وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على أولي البصائر، كما قال الشاعر في مدح النبي ﷺ:

لو لم تكن فيه آيات مبيِّنةٌ ... كانت بداهته تغنيك عن خبرِهْ

وذلك أن حق النبي أن يكون من أكرم تربة في العالم، وحيث يكون عقلُ أربابها أوفر، لذلك لم يبعث نبي من الأطراف التي تضعف عقول أربابها، ويجب أن يكون من عنصر كريم، من بيت الفضل، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]، ونبّه بقوله ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ أنه جعل النبوة في أهل بيت واحد لا تخرج عنهم، لكونهم أشرف.

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ١٦٥.

ويجب أن يكون عليه أنوار تروق من رآه، وأخلاق تتملك من ابتلاه، كما قال تعالى لموسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، وقال لنبينا ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يَشْفِي سامعَه إذا كان متخصصا بنور العقل، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها إلى معجزة ولا يطلبها، كما لا يطلب الأنبياء من الملائكة لِمَا يخبرونهم به من حجة، ولهذا لما عرض النبي ﷺ على الصديق أبي بكر الإسلام تلقاه بالقبول، حتى قال عليه الصلاة والسلام: (ما أحد عرضت عليه الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر الصديق فإنه لم يتلعثم فيه)[1]

وأما الآية الثانية: فهي المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء، وذلك يطلبه أحد رجلين؛ إما ناقص عن معرفة الفرق بين الكلام الإلٰهي وبين كلام البشر، وعن إدراك ما تقدم ذكره، فيحتاج إلى ما يدركه بحسه لقصوره عن إدراك ذلك، وإما ناقص وهو مع نقصه معاند، فيقصد بما يطلبه العناد كما قال الله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء ٩٠ ـ ٩٣].

***

(١) ٣ رواه مسلم بمعناه في فضائل الصحابة حديث (٢٣٨٢) وأحمد في المسند (٤/ ٢١٢)

تقسيم كل من المعجزات الحسية والعقلية إلى أقسام

قال ابن المرتضى اليماني[1]: «إن معجزاته قسمان: حسية وعقلية: أما الحسية فثلاثة أقسام: أحدها: أمور خارجة عن ذاته، وثانيها: أمور في ذاته، وثالثها: أمور في صفاته.

أما القسم الأول: وهو الأشياء الخارجة عن ذاته فمثل انشقاق القمر، وطاعة الشجر في المشي إليه، وتسليم الحجر عليه، وحنين الجذع إليه، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، وشَكَاة الناقة، وشهادة الشاة المشوية (بأن اليهود دسوا له فيها السم)، وغير ذلك.

وأما القسم الثاني: وهي الأمور العائدة إلى ذاته فمثل ما كان من الخاتم، وما شوهد من خلقته وصورته التي يحكم علم الفراسة بأنها دالة على نبوته.

وأما القسم الثالث: وهو ما يتعلق بصفاته فهي كثيرة ونحن نشير إلى بعضها:

فمن ذلك أن أحدا ما سمع منه كذبا لا في أمور الدين ولا في أمور الدنيا، ولو صدر منه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره وإظهاره.

الثاني: أنه ما فعل قبيحا منفرا عنه لا قبل النبوة ولا بعدها.

الثالث: أنه لم يفر عن أحد من أعداءه لا قبل النبوة ولا بعدها وإن عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أحد ويوم الأحزاب قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان إذا حَمِيَ الوطيسُ واشتد القتال واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه.

---

(١) إيثار الحق على الخلق باختصار، ٧٨ ـ ٨٢.

الرابع: أنه كان عظيم الشفقة والرحمة على أمته كما قال الله تعالى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وأما المعجزات العقلية فهي ستة أنواع:

النوع الأول: أنه ظهر بين قبيلة ما كانوا من أهل العلم، ومن بلدة ما كان فيها أحد من العلماء في ذلك العصر، بل كانت الجهالة غالبة عليهم، ولم يتفق له سفر من تلك البلدة إلا مرتين كلاهما إلى الشام، وكانت مدة سفره قليلة، ولم يذهب أحد من العلماء والحكماء إلى بلده حتى يقال: إنه تعلم العلم من ذلك الحكيم، فإذا خرج من مثل هذه البلدة (مكة) ومثل هذه القبيلة (قريش) رجل بارع الكمال فائق على فحول الرجال، من غير أن يمارس شيئا من العلوم ولا يخالط أحدا من العلماء ألبتة، ثم بلغ في معرفة الله تعالى وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه هذا المبلغ العظيم الذي عجز عنه جميع الأذكياء من العقلاء، بل عجزوا عن القرب منه والمداناة له.....، ثم ذكر قصص الأولين وتواريخ المتقدمين حيث لم يقدِر أحد من الأعداء العارفين بذلك أن يخطِّئه بشيء منها، ولم يقدر أحد من أعدائه أن ينسب إليه أنه أخذ ذلك من مطالعة كتاب ولا صحبة أستاذ، وكانت هذه الأحوال ظاهرة معلومة عند الأصدقاء والأعداء والقرباء والبعداء كما أشار إليه قوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] فكل من له عقل سليم وطبع مستقيم علم أن هذه الأحوال لا تتيسر إلا بالتعليم الإلـٰهي والتوفيق الرباني.

النوع الثاني: أنه ﷺ كان قبل إظهار دعوى الرسالة غير باحث عن هذه الأمور ولا مشغول بها، ولا جرى على لسانه حديث النبوة ودعوى الرسالة، فصريح العقل يشهد بأنّ هذا لا يكون إلا على سبيل الوحي من الله تعالى.

النوع الثالث: أنه تحمل في أداء الرسالة أنواع المتاعب والمشاق، ولم يغيره ذلك عن المنهج الأول، ولم يطمع في مال أحد ولا في جاهه، بل صبر على تلك المشاق والمتاعب، ولم يظهر في عزمه فتور ولا في اصطباره قصور، ثم إنه لما قهر الأعداء وقويت شوكته ونفذت أوامره في الأموال والأرواح لم يتغير عن منهجه الأول في الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة.

النوع الرابع: أنه ﷺ كان مستجاب الدعوة وذلك معلوم بالتواتر من سيرته وأخباره وأحواله ﷺ.

النوع الخامس: ورود البشارة به في التوراة والإنجيل، والدليل على ذلك أنه ادعى ذلك كما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى عن اليهود وعن علمهم بذلك: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

ومعلوم أنه لو لم يكن صادقا في ذلك لكان ذلك من أعظم المنفرات لأهل الكتاب عنه، ولا يصح من العاقل أن يقدم على فعل ما يمنعه من مطلوبه ويحول بينه وبين ما يحاوله، ولا نزاع بين العقلاء أنه كان من أوفر الناس عقلا وأحسنهم تدبيرا وأرجحهم علما.

النوع السادس: إخباره ﷺ عن الغيوب وصدقه في ذلك، وهذا باب واسع معلوم بالتواتر الضروري لأهل المعرفة بالأخبار، والتقصي فيه يخرجنا عما قصدناه من الاقتصار، فليطالع في مظانه، فإنما القصد الإشارة، وفي القرآن منه الكثير الطيب.

أقول: وهذا النوع السادس هو معظم موضوع هذا الكتاب وأصلِهِ.

***

بيان أن المعجزات الحسية لا يتم دلالتُها على صدق مدعي النبوة ما لم تكن مدعومة بالمعجزات العقلية

ذكرنا أنه قد قسم العلماء المعجزات إلى قسمين: معجزات حسية، ومعجزات عقلية أو معنوية، لكنهم قد اختلفوا في الحد الفارق بينهما، وبناءً على ذلك اختلفوا في بعض أفراد المعجزات هل هي من الحسية أم من المعنوية، والذي نراه أن الحد الفاصل بينهما هو ما يلي:

أن المعجزة الحسية: هي كل ما أيَّد صدق دعوى الرسالة وكان خارقا حسيا للعادة كانشقاق القمر، والإسراء، وتكثير الماء القليل، وتكثير الطعام القليل، وما اجتمع فيه من الشمائل الأنيقة الزكية.

وأما المعجزات العقلية أو المعنوية: فهي عبارة عن مجموعة من الأمور تعود إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ حال مدعي النبوة في نفسه، وما اتصف به وتفرد به من الأخلاق والفضائل والمزايا: مثل كونه في الغاية القصوى من الكمال في كل واحد من صفاته، وأنه بقي على ذلك من أول عمره إلى آخره.

٢ ـ ما أتى به ودعا إليه من العقائد والشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق.

٣ ـ إخباره عما أخبر عنه من الغيوب اللاحقة والسابقة.

يقول ابن كثير: دلائل النبوة نوعان حسية ومعنوية ومن الدلائل المعنوية أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وطيب مولده ومنشأه، وشريعته إلى أمته[1].

---

(١) البداية والنهاية ج٦ ص٧٢

ويقول الكرماني: وأعظم المعجزات من الرسل عليهم السلام عندنا كون ما يأتون به عن الله تعالى من الأمور المتضمنة رسوم الشرائع... مناسبا لخلق الله... فإن ذلك هو المعجز الثابت الذي يعجز عنه من كان متنبِّئا وإن اجتهد[1].

واستدل القاضي عضد الدين الإيجي[2] على نبوة محمد ﷺ: «بأنه ادعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم أنه بُعِث إليهم بالكتاب والحكمة ليتمم مكارم الأخلاق، ويُكمل الناس في قوتهم العِلْمية والعَمَلية، ويُنور العالم بالإيمان والعمل الصالح، ففعل ذلك وأظهر دينه على الدين كله كما وعده الله؛ ولا معنى للنبوة إلا هذا». وهذا من المعجزات المعنوية.

ثم إن المعجزة الحسية لا تستقل في دلالتها على النبوة منفردة عن المعجزة العقلية، ولا يتم دلالتها على الرسالة ما لم تكن مدعومة بالمعجزة المعنوية.

وفي ذلك يقول الغزالي: إن الخارق الحسي إذا نظرت إليه وحده، ولم ينضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله إضلال، فإنه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، ثم يقول: فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكن ذكر مستنده على التعيين[3].

وقال الراغب الأصفهاني في آخر فصل من مقدمة تفسيره[4]: «المعجزات

---

(١) راحة العقل ٥٧٠ عن كتاب ميزان النبوة المعجزة ص ١٨١.

(٢) شرح المواقف (٨/ ٣٦٠)

(٣) المنقذ من الضلال ٨٣، ٨٤

(٤) دلائل التوحيد، جمال الدين القاسمي، ٣٧١. مقدمة جامع التفاسير (١٠٢)، ثم قال الراغب: وجعل الله تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسيا لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه =

التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام ضربان: حسي وعقلي، فالحسي ما يدرَك بالبصر كطوفان نوح، وعصا موسى عليهما السلام، والعقلي ما يُدرك بالبصيرة كالإخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت من غير تعلم.

فأما الحسي فيشترك في إدراكه العامة والخاصة، وهو أوقع عند طبقات العامة وآخَذُ بمجامع قلوبهم، وأسرع لإدراكهم، إلا أنه لا يكاد يُفرِّق بين ما يكون معجزة في الحقيقة، وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً أو سبباً اتفاقياً، أو مواطأة واحتيالا هندسياً، أو تمويهاً وافتعالا إلا ذو سعة في العلوم التي يُعرف بها هذه الأشياء. وأما العقلي فيختص بإدراكه كَمَلة الخواص من ذوي العقول الراجحة، والأفهام الثاقبة والرؤية المتناهية الذين يعنيهم إدراك الحق».

ويؤكد الغزالي على أن الخوارق الحسية للأنبياء من جملة القرائن على الصدق في دعوى النبوة، حيث يقول: فأَعْظِم بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطار العالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه، ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه[1].

= الأمة عقلياً لذكائهم وكمال أفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء، ولذا قال عليه الصلاة والسلام «كادت أمتي تكون أنبياء» رواه أحمد في المسند (١/ ٢٩٦)، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ، وكانت العقليات غير متبدلة، جعل أكثر معجزاتها باقية. وما أتى به النبي ﷺ من معجزاته الحسية كتسبيح الحصى في يده، ومكالمة الذئب له، ومجيء الشجرة إليه، فقد حواها وأحصاها أصحاب الحديث.

(١) إحياء علوم الدين ج٢ ص٣٨٧

وقول هؤلاء العلماء لا يخالف قول المتكلمين أوجمهورهم: إن المعجزات الحسية لا تظهر على يد مدعي النبوة كذبا حتى إذا كان المدعي ساحرا يبطل الله سحره و لا يرتب الخوارق عليه، وذلك أن كلام المتكلمين ـ إن صح ـ إنما هوعلى الواقع، وأما كلام هؤلاء العلماء فعلى دلالتها على الصدق عند من يشاهدونها، وأكثر المشاهدين لها أوكلهم ليسوا بعالمين بهذا الأمر الذي قاله المتكلمون، فلا تتم دلالة المعجزات الحسية عندهم ما لم تكن مدعومة بالمعجزات المعنوية، لتجويزهم كونها سحرا أو تخييلا أو إضلالا من الله تعالى، وأنَّى لعامة الناس أن يعلموا هذا الأمرالذي قاله المتكلمون، وكيف يعلمونه؟!

***

شرائط ثبوت النبوة عند الناس

قال الماوردي: إن النبوة لا تصح (لا تتم) إلا ممن أرسله الله تعالى بوحيه إليه. وثبوتُها له عند الناس معتبر بثلاثة شروط تدل على صدقه ووجوب طاعته.

أحدها: أن يكون مدعي النبوّة على صفات عالية وخلق عظيم تجوّزهذه الصفات أن يكون المتصف بها مؤهلا للنبوة من صدق لهجته وظهور فضله وكمال حاله، فإن اعتور إنسانا ما نقصٌ، أو ظهر منه كذب، فلا يجوز أن يكون أهلا للنبوة.

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بعض أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام فقالوا: يا خالد، صف لنا محمدا، قال: بإيجاز أم بإطناب؟ قالوا: بإيجاز. قال: هو رسول الله، والرسول على قدر المرسِل.

الشرط الثاني: إظهارخارقٍ للعادة يعجز البشرُ عن مثله، ليكون مضاهيا للأفعال الإلـٰهية، ويُعلم أنه من الله، فيدل على صدقه، ويثبت به دعوى رسالته، لأن الله لا يُظهرالخارق على يد كاذبٍ عليه، ويكون ظهور الخارق على يديه دليلا على صدقه، ويكونُ صدقُه دليلا على صحة نبوّته.

الشرط الثالث: أن تقترن بالخارق دعوى النبوّة، فإن لم تقترن بالخارق هذه الدعوى لم تثبت بظهور الخارق نبوته، لأن الخارق يدل على صدق الدعوى، فكان صفة لها، فلم يجز أن تثبت الصفة قبل وجود الموصوف(١)

***

(١) أعلام النبوة ٤٠ وما بعدها. نُقل بالمعنى.

تقسيم المعجزات المعنوية إلى ما يرجع إلى حال مدعي النبوة وإلى ما يرجع إلى ما أتى به

وإذا كانت المعجزات المعنوية منها ما يرجع إلى حال الداعي، ومنها ما يرجع إلى قيمة ما أتى به الداعي من العقائد والأحكام والشرائع والأخلاق، فمن المناسب أن نتعرض لهذين الأمرين بشيء من الإيضاح.

أما المعجزات العقلية التي هي الإخبار عن الغيوب، فمعظم ما هو وارد في هذا الكتاب.

١ ـ المعجزات الراجعة إلى حال الداعي:

أقول قد قرر العلماء أنه يجب للأنبياء أربع صفات لا تتم النبوة بدونها، وهي تعود إلى حال الداعي.

الصفة الأولى: الأمانة، ويعبر عنها بالعصمة أيضا، أي كونه أمينا على ما أتى به من قبل الله لا يخالفه، ويكون معصوما عن مخالفته وعن تغييره وتبديله.

الصفة الثانية: التبليغ، يبلغ ما أمره الله بتبليغه كما هو بدون نقص ولا زيادة.

الصفة الثالثة: الصدق أن يكون صادقا مع ربه، ومع نفسه ومع الناس، لا تصدر منه كذبة واحدة ولا خيانة فذة.

الصفة الرابعة: الفطانة، حتى يتمكن من الفهم الصحيح لما أنزله الله تعالى عليه، ويتمكن من تبليغه كما هو، ويتمكن من محاجّة الناس ومن إقناعهم بنبوته وبما أتى به من عند الله، وحتى يتيسر له دفع شبه الناس وشكوك المشككين والمتشككين.

وأضافوا إلى هذه الصفات صفة خامسة، وهي سلامته عن العيوب المنفرة

للناس عنه في بدنه وفي نسبه وفي مهنته وفي سيرته، حتى يكون الناس مرتاحين إلى الإيمان به والإذعان له، وإلى طاعته ومتابعته.

وعندما نتصفح حياة محمد ﷺ بأمانة وحِياد نشاهد تحقق هذه الصفات الأربع فيه على أتم وجه وأكمله، لا سيما وقومه على عداوتهم الشديدة له لم يختلفوا في اتصافه بهذه الصفات الجليلة على أتم وجه وأكمله، واتفقوا على تلقيبه بـ«الصادق الأمين»، والله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وعندما نأتي إلى القرآن ونتصفحه نراه محشوا بالدلائل والبراهين العقلية الدالة على صدقه في دعواه الرسالة، وعلى اتصافه بهذه الصفات الأربع التي اجتماعها في مدعي النبوة على أتم وجه دليل على صدقه في دعواه.

ونكتفي هنا بإيراد عدة آيات متتالية في ذلك:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس ١٥ ـ ١٧]، يخبر الله تعالى عن تعنت الكفار الجاحدين أنهم إذا قرأ عليهم الرسول آيات الله الواضحات ـ وفيها تقبيح ما هم عليه من العقائد الباطلة وسب آلهتهم ـ قالوا: ائتنا بقرآن آخر من نمط آخر ليس فيه هذا التقبيح والسب، أو بدِّله بحيث لا يخالف ما نحن عليه، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ

﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي لا يجوز لي هذا وليس هذا إليّ، وإنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٖ﴾، فليس هذا الكتاب من عندي ولا الأمر فيه إليّ حتى آتي بقرآن آخر أو أبدله من تلقاء نفسي، ثم قال تعالى محتجا على هذا: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلَمَكم الله به بواسطتي، أي إن أمر القرآن إلى الله وليس إليّ حتى تقترحوا علي هذا الأمر الذي لا يجوز لي ولا هو مفوض إليّ، ثم بين أنه لا يجوز لعاقل أن يتوهم أن الأمر بيده ولا أن يقترح عليه هذا الأمر، واستدل على ذلك بأقوى حجة، فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرٗا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أقمت بينكم زمنا طويلا أكثر من أربعين سنة قبل البعثة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي من قبل القرآن، وتعرفون مني الصدق والأمانة، وتعرفون أني أمي لا أقرأ ولا أكتب، فكيف يتأتى لي أن أجيء بهذا القرآن المعجز بنظمه وبما حواه من العقائد ومن أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق الفاضلة ومن الإخبار عن الغيوب الماضية والآتية وغيرها؟!!! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتدركون استحالة صدوره مني، وأنه لا يجوز أن يكون إلا من عند الله العليم الخبير.

هاتان الآيتان وحدهما كافيتان لمن تدبرهما في القطع بأن محمدا ﷺ صادق في دعواه الرسالة من قبل الله، وأن القرآن كلام الله تعالى، كما احتوتا على اتصافه ﷺ بالأمانة والتبليغ والصدق والفطانة.

وأما سلامته عن العيوب المنفرة فقد أثبتها تاريخ حياته وسيرته الطاهرة الباهرة، وشمائله الانيقة الزكية، وقد أُلِّفت في هذه الأمور الكثيرة المختصرة والمطولة.

ونختم الكلام على هذا القسم بحديث بدء الوحي، وعودة النبي ﷺ من حراء

إلى زوجه خديجة، وتهدئتها إياه، ومحل الشاهد فيه ما قالته خديجة للنبي صلى الله ﷺ تهدئة له:

عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالتْ: (أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرى رُؤْيَا إِلاَّ جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إليه الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ ـ وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إلى أهلهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ؛ فَجَاءَهُ الْمَلِكُ فَقَالَ اقْرَأْ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، قَالَ: فَأَخذنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أرسلني فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَأَخذني فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنَّي الْجَهْدَ ثُمَّ أرسلني فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَأَخذنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أرسلني فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ، فَقَالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: «كَلاَّ وَاللهِ، مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِين عَلَى نَوَائِبِ الْحَقّ» فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرءًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهليَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَبَرِ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى ﷺ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا)[1].

فهذه خديجة وهي الذكية الحكيمة، وهي زوج رسول الله ﷺ وأقرب الناس إليه وأعرف الناس بدخائله، حينما أخبرها زوجها بما أتاه ورآه وبما خشي على نفسه منه لم تتردد في أن هذا الذي أتاه ورآه ليس بأمر شيطاني خبيث يُخشى على محمد ﷺ منه، وجزمت بأنه أمر رحماني شريف، وقطعت بأن الله تعالى لا يخزيه أبدا، واستدلت على ذلك بما هو دليل على حصافة عقلها وحكمتها، فقالت: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» ومن طبعه الله على هذه الفضائل وجمعها فيه لا يخزيه الله أبدا، بل لم يجمعها فيه إلا لخير أراده به. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٢ ـ المعجزات الراجعة إلى ما أتى به ودعا إليه:

أما هذه المعجزة العظيمة أو العظمى فهي كل ما جاء به ﷺ مما حواه القرآن العظيم، وحوته كتب السنة المطهرة من العقائد والأحكام والشرائع والأخلاق، ونكتفي هنا بإيراد نماذج منها:

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) رواه البخاري: ٣، واللفظ له، ومسلم: ١٦٠.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ونختم هذا الباب بشهادتين من شهادات غير المسلمين للرسول ﷺ برسالته وعظمته، تدخل الأولى تحت حال الداعي، وتدخل الثانية تحت ما أتى به.

***

شهادة هرقل برسالة محمد ﷺ

الأول: حديث هرقل عظيم الروم مع أبي سفيان:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله مادَّ فيها أبا سفيان فأتوه بإيلياء(١)، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ودعا ترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان: قلت: أنا أقربهم نسباً، قال: أدنوه مني وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن

(١) بكسر أوله واللام، وياء، وألف ممدودة، اسم مدينة بيت المقدس. انظر معجم البلدان ج١، ص٢٩٣

كذَبَني فكذِّبُوه قال: فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا علي كذباً لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: كيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والصدقة والعفاف والصلة.

فقال: للترجمان قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من مَلِك، فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من مَلِك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا،

وكذلك الإيمان حين تخالطُ بشاشتُه القلوبَ لا يسخطه أحد، وسألتك: هل يغدرُ، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت أن قد فعل، وأن حربكم وحربه تكون دُولاً، يُدال عليكم المرة وتُدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبتلى وتكون لها العاقبة.

وسألتك: بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدميّ هاتين.

وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب رسول الله فقرئ... الحديث[1].

* * *

شهادة أحد نوابغ نصارى لبنان بعظمة محمد ﷺ

الأمر الثاني من شهادة غير المسلمين: ما تناقلته صحف بيروت أن جريدة (الوطن) سألت فريقاً من الأفاضل عمن هو أعظم رجل في العالم ولماذا. فورد إليها جواب داود أفندي مجاعص ـ من كتاب المسيحيين ونوابغهم ـ بما مثاله:

(١) صحيح البخاري ٧.

أعظم رجال العالم على الإطلاق رجل وَضَع في عشر سنين ديناً وفلسفة وشريعة اجتماعية، وقوانين مدنية، وغيّر شريعة الحرب، وأنشأ أمة ودولة طاولت الدهر، وكان أمياً، ذلك هو (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي العربي نبي المسلمين)، وقد تدارك النبي لمشروعه العظيم كل حاجاته، فوفّر لأمته ولتابعيه والملك الذي أنشأه أسباب الانتشار والخلود بحيث إذا انقطع المسلم إلى القرآن والحديث وجد فيها ما يهمه من أمر دينه ودنياه، وجعل للمسلمين مؤتمراً ينعقد كل عام في مكة، ومن تنبه إلى فرض الحج على من يملك الراحلة والنفقة وإسقاطه عمن لا يملكها أدرك أن الغاية من الحج اجتماع الموسرين والوجوه من الأمة للبحث في شؤون جامعتهم وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها.

وتدارك أمرَ الفقير بالزكاة المفروضة على كل مسلم بحيث إذا أداها المسلمون على حقها لم يبق في الأمة فقير، وجعل نواة أبدية للإسلام بكون القرآن كتاباً عربياً يتحتم على كل مسلم أن يتفهمه بلغة العرب، وإذا لم يكن في هذا غير أنَّ فهمَ العربية حتمٌ على كل عالِم وإمام لكفى به جامعةَ لِسانٍ للمسلمين. ومهد طريق النبوغ لأفراد الأمة بكون المسلم لا يفضل المسلم إلا بالتقوى، فكان الإسلام جمهورية حقيقية يختار المسلمون رئيسها الذي هو الخليفة، وقد ساروا على هذه السنة حيناً من الدهر، ولن تزال المبايعة بالخلافة رمزاً من رموزها.

وسهّل اعتناق الإسلام لغير العرب بقوله: (لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي)(١).

---

(١) جزء حديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ٥١٣٧.

ويسّر لغير المسلمين العيش برخاء في بلاد الإسلام بقوله: (الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله)[1].

ونظر في أمر (العائلة) فرتب أمور الزواج والتناسل والتوارث، ورفع من شأن المرأة، وعاد إلى الأمور المدنية، فوضع قوانين وقضاءً للنظر في شؤون الأفراد، ولم يهمل مالية الدولة بل وضع سنناً لبيت المال.

وكان للعلم من همه نصيب وافر فجعل الحكمة ضالة المؤمن، وأوصاهم بأن يطلبوا العلم ولو بالصين[2]، فكان لهذه الوصية شأن عظيم في اقتباس المسلمين العلم من كل أبوابه وازدهاره في أيامهم. أفلا يكون الذي فعل كل هذا أعظم الرجال؟! اهـ[3].

ومثله من شهادات علماء أهل الكتاب كثير، والحق يعلو. وهذه الشهادة من هذا الرجل بعظمة محمد ﷺ تتضمن الدليل على صحة نبوته، لأن اجتماع هذه الأوصاف في أمي لم يدرس ولم يقرأ ولم يختلف إلى أهل الدراسة والقراءة مما انتقضت به العادة، وكانت دليلا على صدقه في دعواه الرسالة.

***

---

(١) الطبراني في المعجم الأوسط: ٥٥٤١، والبيهقي في شعب الإيمان: ٧٠٤٨.

(٢) خبر «اطلبوا العم ولو بالصين»، أخرجه العقيلي في الضعفاء الكبير (٢/ ٢٣٠)، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤/ ١١٨)، وقال البيهقي: متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.

(٣) نقله الشيخ جمال الدين القاسمي في دلائل التوحيد ص٣٩٨.

الفرق بين المعجزة
وغيرها من العجائب وخوارق العادات

قد قرر المتكلمون أن الفارق بين معجزات الأنبياء وغيرها من خوارق العادات أن الخوارق لا تظهر على يد مدعي النبوة كذبا، فإذا ادعى الساحر مثلا النبوة يبطل الله سحره، ولا يرتب عليه الخارق، لكن هذا الذى قالوه ليس أمرا فارقا عند عامة الناس، فإن عامة الناس غير عالمين بهذا الفارق، وإنما يعلمه قلة قليلة من الناس، فيبقى الأمر ملتبسا عند الآخرين بناء على هذا الفرق، نعم هذا الفرق صحيح وفارق بين المعجزة والكرامة، فإن الكرامة تظهر على أيدي غير الأنبياء من الصالحين من عباد الله، ومن المعلوم أن هؤلاء لا يدعون النبوة، وإنما هم تابعون للأنبياء تظهر الخوارق على أيديهم ببركة متابعتهم للأنبياء، فالأمر غير ملتبس على الناس بالنسبة إلى المعجزة والكرامة.

أما غير الكرامة من السحر والشعوذة وغيرهما من الخوارق والعجائب فبينها وبين المعجزات فوارق أخرى مهمة:

١ ـ أولها: هو أن المعجزة من فعل الله مباشرة بدون دخل للرسول ولا للأسباب العادية فيها، بينما تكون عجائب الأمور الأخرى نتيجة للأسباب الطبيعية والنفسية وتعلّم العلوم ومزاولة الصنعة، بحيث يتأتى لمعظم الناس تعلم السبيل إلى هذه الخوارق والعجائب ومعرفة الوسيلة إليها.

٢ ـ والفرق الثاني هو أن المعجزة يُقصد بها تأييد مُبلِّغ الدعوة الإلٰهية وحمايةُ المؤمنين الصادقين ومباركتُهم، وإقامةُ الحجة على أعداء الدعوة الإلٰهية، وأما غير المعجزة من السحر والشعوذة وغيرهما فإنما يقصد بها الفساد والتحايل على الناس أو اللعب واللهو والتسلية.

٣ ـ وأما الشيء الذي يُعتبر بمثابة حد فاصل بين هذين الاثنين (المعجزة وغيرها من السحر وسائر الخوارق والعجائب) غير الكرامة، فهو أن الساحر والمشعوذ وغيرهما يُظهِرون أفعالا غريبة وعجائب، لكن لا يكونون من الذين طَهُرت سيرتهم، وصلَحت نواياهم، ونقِيَت قلوبهم، وصفت سرائرهم، كما لا يكونون من الذين يقصدون تبليغ الشريعة الإلٰهية، وتزكية القلوب، والقضاء على الرذيلة، لأنه ليس من شأنهم أن تصدر عنهم هذه الأفعال، ولا من شأن هذه الأفعال أن تصدر عن أمثالهم.

وأما الأنبياء عليهم الصلاة السلام فحياتهم الطاهرة وأخلاقهم الكريمة، وأعمالهم القدسية، وخصائص النبوة فيهم، كلها تنادي وتشهد بنبوتهم، وتؤيد دعواهم، وتشهد كلُّ لمحة من حياتهم بصدقهم في دعواهم، وتولّد دعوتهم إلى الحق ثورة روحية في الجماعات والشعوب، إنهم يختمون القلوب ـ وليس الذهب والفضة ـ بخاتم الصدق والإخلاص والإيثار والنقاء، نعم يحاول الساحر والمنوِّم المغناطيسي أن يولِّدا انقلابا في خواص الأشياء، لكن ليس من شأنهما أن يجعلا من الكافر مؤمنا ومن المسيء عفيفا، ومن العاصي تقيا، ومن البخيل سخيا، ومن القاسي رحيما، ومن الجاهل عالما، إنهما يستطيعان أن يحولا الحديد إلى صورة الذهب الخالص، لكنه ليس من شأنهما أن يجلوا قلبا أصابه الصدأ.

ثم إنه هل من الممكن للساحر أن يحاول استخدم قوته السحرية في تزكية أخلاق الناس وإصلاحهم؟

نعم ليس في هذا استحالةٌ عقلية، لكن عدم الاستحالة العقلية شيء والواقع شيء آخر، فمن الممكن عقلا أن يصير كل شخص مَلِكا وعالِـمَ عصره وفاتحا للدنيا، لكن ذلك لا يتيسر لكل شخص من الناحية العملية والواقع، لأن عامة الناس غير مستعدين لذلك، فالساحر مجرد ممثِّل ولاعب ومُفسد ومحتال، ولا يمتلك الاستعداد أصلا لاستخدام طاقته في إصلاح الأخلاق وتزكية النفوس وتطهيرها، ثم لو فُرض أنه حاول ذلك لا ينجح فيه أبدا ويفشل فيه فشلا ذريعا، لأن النجِس لا يصلح للتطهير، والخبيث لا يصلح للتطييب، و من أجل هذا لم يثبت في يوم من الأيام أن ساحرا أو مشعوذا حاول القيام بالإصلاح، وأما النبي ﷺ فمن شأنه أن يصلح الأفراد والشعوب بجهوده الجبارة، وإخلاصه الذي خالط روحه ولحمه ودمه، وأخلاقه العظيمة وروحانيته العبقة، وتفانيه في هذا السبيل، وأن يزين هذا العالم الترابي بورود الخير ورياحينه بعد أن يزيح منه الظلام وأشواك الشرك[1].

***

(١) ليراجع دائرة معارف في سيرة النبي ﷺ، العلامة شبلي النعماني والعلامة سيد سليمان الندوي، ج٣، ص٦٧ ـ ٧٠.

اختلاف أسباب إيمان الصحابة بالرسول وكثرتُها

عندما صدع النبي ﷺ بالرسالة كانت العرب عن بَكْرَة أبيهم أعداء لهذا الصوت، فقد كان ﷺ يدعوهم إلى التخلي عما نشأوا عليه وتعودوه منذ أجيال سابقة، وكان يذم ذلك الوضع الذي ورثوه وسرى في أوصالهم، وكان يدعو إلى التخلي عن الأصنام والآلهة التي كانوا يرتعد عُبَّادها منها هيبة ورعبا، وكان يحاول القضاء على مساوي الأخلاق والأفعال والعادات التي صارت من ميزات العرب، مثل: السرقة والسلب والنهب والقتل والحقد والعداوة والربا والقمار والزنا وشرب الخمر وغيرها مما شابهها، بالإضافة إلى ذلك لم يكن النبي ﷺ يمتلك قوة مادية، ولا مالا ولا ثروةً، ولم يكن لديه ﷺ شيء مادي يعوِّض به أولئك الذين قبلوا دعوته عما يلحق بهم من مصائب وبلايا وخسائر مادية، وكان كل شخص يعرف أن مجرد ذكر الإسلام سيعرضه للطرد من بيته والحرمان من أملاكه والبعد عن أهله والهجرة من وطنه، وسوء السمعة بين أكابر بلده ووجهاء قريش.

كان الجميع يرى ما يتعرض له المسلمون الضعفاء من قسوة وإيذاء، وبالرغم من كل هذا فقد كان هناك ناس كثيرون يأتون باحثين عن حقيقة الدعوة المحمدية، وكان الناس يأتون خفية من القبائل العربية القريبة والنائية، ويبايعون النبي ﷺ ثم يعودون من حيث أتوا، بل إن أولئك الذين كانوا أعداءه

ﷺ وخالفوا الإسلام وحاربوه في بدر وأحد والأحزاب والخندق أحنوا رأس الطاعة في النهاية.

فماذا كانت الأسباب وراء كل هذا إذن؟ وكيف آمنوا بمحمد ﷺ وانقادوا له واتبعوه؟

من السهل أن نقول مثلما يقول النصارى بأن محمدا ﷺ أخضع الناس له بالسيف والقتال، لكن السؤال المحير هو: من أين جاء كل أولئك المحاربين الفدائيين وكيف ظهروا؟ من الذي حاربهم وأخضعهم؟

إذا تمعَّنتَ في السبب الذي دفع من أسلم إلى إسلامه، فستعلم أن هذا السبب لم يكن أمرا واحدا، المئات والألوف على يقين من نتيجة واحدة، لكن إن بحثت عن أسباب هذا اليقين، فستعرف أن أسباب هذا اليقين لديهم وعللَه مختلفة، وتتحقق أن طريقةَ إذعان هذا الشخص وانقياده تختلف عن طريقة إيمان الشخص الآخر، صدَّق آلاف الصحابة بنبوته ﷺ وآمنوا برسالته وتيقنوا من صدقه، لكن هذا التصديق وهذا الإيمان وهذا اليقين لم يكن نتيجة لسبب واحد بعينه، يظهر من كل هذا أن المعجزة ليست هي الدليل الوحيد على النبوة، وإنما تكون الأدلة والبراهين المختلفة مؤثرة وفعالة في الطبائع الصالحة والقلوب السليمة فيما يتعلق بتصديق النبي ﷺ.

لقد آمن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بمجرد سماعه دعوة النبوة، وأغناه صدق الداعي وأمانتُه عن كل دليل وبرهان آخر، وآمن سيدنا عبد الرحمن بن عوف وسيدنا عثمان وسيدنا عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنهم بوثوقهم برجل عاقل حكيم أمين كأبي بكر آمن بصدق الدعوة.

وآمنت السيدة خديجة قائلة على سبيل البشارة: «كلَّا، لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَلّ وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»، وآمن سيدنا أنيس الغفاري وسيدنا عمرو بن عنبسة عندما رأيا أنه صلى الله ﷺ يدعو إلى مكارم الأخلاق، ودخل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وسيدنا قتيب بن عمرو الدوسي وسيدنا جبير بن مطعم والنجاشي ملك الحبشة ومئات غيرهم في الإسلام عندما سمعوا كلام الله، وهتف سيدنا ضماد بن ثعلبة الأزدي بالحق عند سماعه الشهادتين، وهتف سيدنا عبد الله بن سلام عندما رأى وجهه ﷺ قائلا: ليس هذا وجه كذاب، ودخل سيدنا ضمام بن ثعلبة سيد بني سعد في الإسلام عندما دخل على حضرة النبي ﷺ في بساطة طالبا منه أن يقسم على أنّ الله أرسله حقا وصدقا، وعندما أقسم الرسول ﷺ أسلم.

وكان الكثيرون من قبيلتي الأوس والخزرج يسمعون من جيرانهم اليهود أن نبي آخر الزمان على وشك الظهور، وعندما استمعوا إلى كلامه ﷺ عرفوا أن هذا هو ذاك النبي، وآمنت مئات القبائل بعد فتح مكة لمعرفتهم بأن بيت الخليل لا يمكن أن يستولي عليه نبي كاذب، ونطقت قبيلة بكاملها الشهادتين تأثرا بكرمه ﷺ، وكثير من الشعراء وأهل العلم لم يستطيعوا التحكم في قلوبهم لما استمعوا إلى القرآن الكريم ورأوا أثره في قلوبهم، والكثيرون من المحاربين القرشيين الذين لم ترعبهم غزوة بدر دخلوا في الإسلام لما رأوا أخلاق المسلمين وأدبهم، واضطُرَّ الآلاف من أهل مكة إلى الاعتراف بصدق الإسلام حينما أتيحت لهم الفرصة بالاختلاط والتعامل عن قرب مع المسلمين بعد صلح الحديبية، حتى أبو سفيان الذي لم تؤثر فيه المعجزات والخوارق للعادة ولم تُرعبه سيوف بدر والخندق، ولم تستطع صلة

القرابة والمصاهرة بينه وبين رسول الله ﷺ أن تُلين قلبه القاسي، لم يستطع أن يمنع ضميره من الاعتراف عندما رأى أن قيصر الروم وهو جالس على عرش العظمة يتمنى أن يغسل قدمي النبي ﷺ الذي يفترش الحصير، وأسلم ثمامة بن أسد وهند زوجة أبي سفيان وهبار بن الأسود ووحشي قاتل حمزة رضي الله تعالى عنهم عندما رأوا كيف يتعامل رسول الله ﷺ برحمة حتى مع الأعداء، ومال قيصر الروم إلى الحق عندما سمع بعض صفات النبي ﷺ وبعض فضائل الإسلام، وسيدنا عدي بن حاتم الذي كان سيد قبيلة طيء النصرانية حضر إلى المدينة معتقدا أن محمدا صلى الله عليه وسلم مَلِك، ولكن عندما حضر عنده رأى جارية من المدينة تدخل عليه ﷺ ويقف لها ﷺ ليقضي حاجتها فلما رأى سيدنا عدي بن حاتم هذا الموقف هتف قائلا: إنك نبي ولست مَلِكا.

وهناك من الناس كذلك من لديهم استعداد للتأثر بالمعجزات المادية أكثر من التأثر بالمعجزات الروحية والأخلاقية، فقد أسلم كثير من أهل قريش لما رأوا نبوءة فتح الروم تتحقق، وفي أحد أسفاره ﷺ رأت امرأة من إحدى القبائل الماء ينفجر من بين أصابعه فعادت إلى قبيلتها قائلة: لقد رأيت اليوم أكبر ساحر في العرب، فأدى هذا الإعجاب إلى أن تدخل القبيلة كلها في الإسلام، كما أسلم بعض اليهود لأن الصفات التي وردت في كتب الأنبياء السابقين عن النبي الخاتم ظهرت كلها واضحة جلية فيه ﷺ، وبعض علماء اليهود اختبر النبي ﷺ، فلما أجابهم النبي ﷺ بوحي الله إجابات صحيحة آمنوا برسالته، وجاء رجل إلى النبي ﷺ قائلا: سأؤمن بأنك رسول صادق إذا جاءتك هذه النخلة وشهدت برسالتك، فلما رأى بعينه مجيء النخلة وسمع شهادتها أسلم، ورأى ﷺ في أحد أسفاره أعرابيا فدعاه إلى الإسلام،

فقال الأعرابي: ومن يشهد على ما تقول؟ قال هذه السَّلَمة، ثم دعا الشجرة فشقت الشجرةُ الأرض ووقفت أمامه ﷺ، وخرج منها صوت ينطق بالشهادتين ثلاث مرات، فلما رأى الأعرابي هذا أسلم.

وسراقة بن مالك الذي جاء يطارد النبي ﷺ وصاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه وقت الهجرة عندما رأى أقدام حصانه تغوص في الأرض بدعائه ﷺ تيقن أن نجم الإسلام سيَسْطَع فطلب الأمان ثم أسلم فيما بعد(١).

***

(١) ليراجع دائرة معارف في سيرة النبي، ج٣، ص٧٩ ـ ٨٣.

أوجه الإعجاز في القرآن

ونختم هذه المقدمات ببيان أوجه الإعجاز في القرآن، فنقول وبالله التوفيق:

أوجه الإعجاز في القرآن كثيرة، وقد أورد الماوردي في كتابه «أعلام النبوة» عشرين وجها منها، وهي أكثر من ذلك بكثير، لكن الذي نراه أن أهمّ أوجه الإعجاز في القرآن هي الأوجه الخمسة التالية:

الوجه الأول: فصاحة القرآن وبلاغته اللفظية الخارقة للعادة التي تحدى بها العرب العرباء بأن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فعجزوا فرادى وأجمعين عن أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء ٨٨]، ثم تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله ولو كانت مفتريات، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤]، فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله، وسجَّل على عجزهم عن ذلك بأنهم لن يفعلوا، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ

لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة ٢٣ ـ ٢٤]، ويشمل التحدي بالسورة الواحدة قصار السور كسورة الإخلاص والكوثر والمعوِّذتين والنصر كما يشمل طوالها، والبلاغة العربية كانت حينئذ في أَوْجِها وفي أعلى طبقاتها، وكانت العرب في ميدانها يتسابقون، وفي درجاتها يتبارَون ويتفاخرون، كما أن العرب كانوا أحرص الناس على إبطال قول محمد ﷺ ودعواه النبوة مجتهدين في ذلك بكل طريق ممكن لهم، فبقوا عاجزين أمام هذا التحدي القرآني خاضعين لتسجيله عليهم بأنهم لن يفعلوا، ولو كانت المعارضة ممكنة لهم لعارضوا أقصر سورة من القرآن، ولتم لهم بذلك إبطال أمر محمد ﷺ، ولانتهى أمره بهذه السهولة، فلما علموا بعجزهم عن هذه المعارضة اختاروا بدلها المعارضة بالدعايات الكاذبة والحروب القاسية الفاجرة.

الوجه الثاني: ما ورد في القرآن من الإعلام عن الغيوب الآتية التي تحققت كما ورد في القرآن، وعن حوادث الأمم السابقة وعقائدها، وعن أنبياء الله تعالى ورسله وأخبارهم، مع كون محمد ﷺ أمِّيًّا لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس، ولم يختلف إلى عالم من العلماء بأخبار الأمم الماضية، وهذا الوجه من الإعجاز هو معظم موضوع هذا الكتاب.

الوجه الثالث: ما يسمى بالإعجاز العلمي، وهو ما في القرآن من الإشارات إلى حقائق علمية تجريبية كثيرة توصّل إليها العلماء بعد جهد جهيد بمؤازرة الآلات الدقيقة والأجهزة الفاحصة والحسابات الرياضية، وقد ألف فيه العلماء المعاصرون المؤلفات الكثيرة الكبيرة.

لكن يشترط لصحة حمل الآيات القرآنية على هذه المكتشفات أمران:

الأول: أن تكون هذه المكتشفات حقائق علمية لا ظنون وتخمينات، ولا فرضيات ونظريات.

الثاني: أن تكون دلالة النصوص القرآنية عليها دلالة صريحة أو ظاهرة، وأن لا يكون حملها عليها بتكلف وتعسف.

الوجه الرابع: كما قال القاضي عبد الجبار: إعجاز القرآن فيما ورد فيه من دلائل العقول، فإن ذلك جاء على طريقة انتقضت بها العادة.

وقال الماوردي: الوجه السادس من إعجازه ما تضمنه من الحجج والبراهين على التوحيد والرجعة، (أي البعث) وعلى الدهرية والثنوية حتى قطع بحجاجه كل محتج، وخصم بجدله كل خصم ألد.

قد أشار الماوردي إلى وجه انتقاض العادة بذلك، وهو قوة هذه الحجج والبراهين وكونها قطعية قاطعة لكل شبهة، لم تبق وراءها مجالا للشبه والشكوك، ويضاف إلى ذلك كون هذه الحجج واضحة جلية يستوي في فهمها وارتياح القلب إليها وانثلاج الصدر لها العالم والجاهل والذكي والغبي والفيلسوف والعامي، ثم إنها واردة بتعبيرات بليغة وجيزة، وهذه الخصائص الثلاث واجتماعها في هذه الحجج وتحققها في كل واحدة منها هو وجه انتقاض العادة بها، ولا سيما إذا كان الآتي بها أميا لم يدرس ولم يقرأ، ولم يختلف إلى عالم من العلماء.

الوجه الخامس: إعجاز القرآن فيما ورد فيه من الأحكام والشرائع والأنظمة الإنسانية البالغة الرقي التي لم يشهد الخلق لها مثيلا في ضمان مصلحة الإنسان وفي تأمين السعادة له، فقد ورد في القرآن أنظمة لحياة الإنسان في شتى نواحي النشاط البشري السياسي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي والروحي، ولما كانت هذه الأنظمة يستحيل أن يقدر على الاتيان بها أي إنسان، ولا سيما إذا كان أميا لم يقرأ ولم يدرس فلا بد أن يكون القرآن منزلا من الله، ويكون الآتي به رسول الله.

فالإعجاز في القرآن يشمل هذه النواحي الخمس جميعا، فالقرآن معجز في لفظه العجيب وتركيبه البلاغي البديع، وهو معجز في إخباره عن الغيوب وأنباء الأمم السابقة، وهو معجز في إشاراته إلى الحقائق العلمية المذكورة، وهو معجز بما اشتمل عليه من دلائل العقول على ما أورده من العقائد، وهو معجز في احتوائه على الأنظمة الرائعة السامية.

فمن أجل أن القرآن معجزة الرسول إلى الناس جميعا بمختلف شعوبهم وأزمنتهم كان مقتضى حكمة الله تعالى أن يحوي وجوها متعددة من الإعجاز، فإذا آمن به العربي لإعجازه البلاغي فقد يؤمن به الرومي لإخباره عن الأمم السابقة، كما يؤمن به الفارسي للأنظمة التي فيه، ويؤمن به الكل لإشارته إلى الحقائق العلمية ولاشتماله على الدلائل العقلية، فالقرآن معجز كله لفظا ومعنى ونظاما وإشارات ودلائل. والله تعالى أعلم.

❋❋❋

خلاصة الأبحاث المتقدمة المتعلقة بالرسالة وبالمعجزات

١ ـ النبوة والرسالة من قبل الله تعالى علاقة غيبية بين الله تعالى وبين رسوله، يقوم جوازها وتحققها على أمرين: على وجود عالم الغيب الغير المحسوس، وعلى جواز خرق الله تعالى للعادات، وبعد الإيمان بهذين الأمرين يقوم ثبوتها عند الناس بعد دعوى الرسالة من الرسول أيضا على أمرين: اتصاف الرسول بالفضائل العالية والخلق العظيم من الصدق والأمانة وغيرهما، وإظهار الله للمعجزات على يد مدعيها.

٢ ـ المعجزة اسم لأمر خارق للعادة يظهر على يد إنسان جامع لمكارم الأخلاق يدعي الرسالة من قبل الله تعالى، وليست المعجزة أمرا يحيله العقل، بل هي من الجائزات الغير المألوفة الوقوع للناس، ولا يمكن تعليلها بالأسباب والعلل العادية، من أجل ذلك تكون مستبعدة الوقوع من جهة، ودالة على صدق دعوى الرسالة ممن ظهرت على يديه من جهة أخرى، وبناء على ذلك يؤمن بها من ثبتت المعجزة عنده، ويصدِّق من ظهرت على يديه في دعواه الرسالة إذا كان مستعدا لهذا الإيمان، ولم يكن عنده موانع نفسية عنه من الكبر، والتعصب الأعمى لما نشأ عليه، وتدنس الفطرة بالأفكار المنافية لهذا الإيمان، والحرص على الحفاظ على المناصب والمنافع المادية، والانهماك في الملذات والشهوات.هذه أسباب تصدُّ المبتلى بها عن الايمان برسل الله.

٣ ـ إرسال الله تعالى للرسل إلى عباده حاجةٌ بشرية إنسانية، وهي مقتضى حكمته تعالى، ومقتضى رحمته بعباده ولطفه بهم.

٤ ـ أحق الناس بسياسة الخلق هم رسل الله ومن هم سائرون على منهجهم.

٥ ـ انقسام المعجزات إلى معجزات حسية ومعجزات معنوية ثم تقسيمات أخرى للمعجزات.

٦ ـ انقسام المعجزات المعنوية إلى ما يتعلق بحال مدعي النبوة وصفاته، وإلى ما يتعلق بحال دعوته وبما أتى به من العقائد والأحكام والشرائع والكتاب.

٧ ـ المعجزات الحسية لا يتم دلالتها على صدق من ظهرت على يديه في دعواه الرسالة ما لم تكن مدعومة بالمعجزات المعنوية.

٨ ـ الفرق بين المعجزة وغيرها من خوارق العادات.

٩ ـ إيمان الصحابة بمحمد ﷺ كانت أسبابه متعددة مختلفة متكثرة.

١٠ ـ أوجه الإعجاز في القرآن كثيرة، وأهمها الخمسة التي بيناها.

هـذا آخر المقدمـات الممهـدات لمهذَّب كتـاب القاضي عبد الجبـار (تثبيت دلائـل النبـوة)، وبعد هـذا ننتقل إلـى كلام القاضي.

ومما نرى أن ننبه عليه هنا أن العناوين الواردة لفصول هذا المهذَّب من وضعنا.

***

مهذب

تثبيت دلائل النبوة

للقاضي عبد الجبار الهمداني

تهذيب

الشيخ محمد صالح بن أحمد الغرسي

مع وضع عناوين لفصوله، وبعض التعليقات المهمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله، الحمد لله الذي منّ على عباده بإرسال رسله، وختَمَهم بسيدهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين، فأرسله بالهدى ودين الحق، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

هذا كتاب «تثبيت دلائل نبوة نبينا محمد» رسول الله ﷺ، والأدلة على معجزاته[١] وظهور آياته، والرد على من أنكر ذلك.

عصمة الله تعالى لمحمد ﷺ مع ما كان عليه من تضليل كل العالَم، وتسفيه أحلامهم، وعَيْب أديانهم، وسبّ آلهتهم

فنبدأ من ذلك بما في القرآن، وبما يجري مجراه مما يعلمه من سَمِع أخباره كالعلم بالقرآن، فقد عُلِم من أخباره ﷺ أنه ظهر بمكة، فأكفر اليهودَ وبرئ منهم، والنصارى والرومَ وبرئ منهم، والفرسَ والمجوسَ وبرئ منهم، والهندَ وبرئ منهم، وقومَه من قريش والعرب وبرئ منهم، وعاب آلهتهم، وأكفر أسلافهم، وضلل أديانهم، وفرق آلافهم، وقال لهم: الله أرسلني واصطفاني من العالمين، وجعلني

---

(١) قوله: والأدلة على معجزاته: لعله يقصد مآخذها، وهي الآيات القرآنية التي استنبط منها المؤلف المعجزات.

حجة على كل من بلغته دعوتي من الأولين والآخرين، وجعلني خاتم النبيين وآخر المرسلين، وإن ديني يظهر على الأديان كلها، وإن كلمتي وكلمةَ أتباعي تعلو، وإنهم هم الغالبون القاهرون المالكون، وهو إذ ذاك فقير وحيد، أجير معيل، قد أغضبهم وغاظهم بهذه الدعوة، وألبسهم الذل مع وحدته، وبالغ في إسخاطهم، فنهوه وزجروه، بعد أن عاتبوه وعذلوه؛ ثم توعدوه بالاستئصال والبوار، بعد أن رَغَّبُوه، فغلبهم على أمره، وقال: إني قد قلت لربي حين أرسلني: إِنّي إِنْ قُلْتُ هذا لقريش رضخوا رأسي، فقال لي: قُل، وبلغهم، فسيُغْضبهم ذلك، وسيبعثون مَكْرُوهَهُم عليك، وسيتحزبون ويجلبون[1] في عداوتك، ويجمعون العساكر لحربك، فَأَعْصِمُكَ منهم، وأَبْعَثُ جنودا لك منهم ومن غيرهم، فتكون العقبى لك، فقال هذا وما هو أشدُّ منه.

يَعلم ذلك كلُّ من سمع أخباره ممن صدَّقه أو كذَّبه، وهو لا يعتصم بمخلوق، ولا يُصَوِّبُ مِلكا من ملوك عصره، ولا يلوذ بأحد من البشر.

بل قد رماهم كلهم عن قوس واحدة بالعداوة، وأسخطهم أجمعين، وبعثهم بهذا الصنيع على عداوته. ثم ما رضي أن يجعل ذلك قولا، بل خلَّده ودوّنه، وجعله كتابا يقرأ، وقرآنا يتلى، يسمعه عدوه، وقال: ربي قال لي، وربي وربكم أوحى به إليّ، فقال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾[2] [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) جلب: توعد بالشر.

(٢) أي إن الناس في قبضته وتحت تصرفه وغلبته، وإنه سيعصمك منهم وينصرك عليهم، قاله الله تعالى لرسوله ﷺ محرضا له على إبلاغ رسالته، واعدًا له بالعصمة منهم والنصر عليهم. وهذا هو صريح الآية التالية.

فإنهم زادوا غيظا عليه، وصاروا هم واليهود والنصارى والفرس والمجوس يدا واحدة في عداوته، وطَلَبِ نفسه، والحرص على قتله، وهم أشد الناس حقدا وأنفة وجَبَرية[1] وطلبا بطائلة[2]، لا يُقارّون من عاب خيولهم وجمالهم، فكيف بمن عاب آلهتهم وآباءهم وعقولهم، وضلل أديانهم، فعصمه الله منهم، وهو رجل فريد بينهم، وهو في مثوبة الموت، وخندق الخوف، وذل اليتم، ووحشة الوحدة، لا يعتصم منهم بمخلوق، فصرفهم الله عنه وهذه حاله.

فلو لم يكن من آياته ودلائل نبوته إلا هذا لكفى وأغنى وزاد على الكفاية، لأنه إخبار بغيوب كثيرة، لأنه قال لجميع قريش ولجميع العرب ولجميع اليهود ولجميع النصارى ولكل واحد منهم: لن تقتلوني، مع ما قد جاءهم به مما قد غاظهم وأغضبهم، وهو في هذا القول كالباعث لهم على نفسه، وكالحامل لهم على مكروهه وهو يُذكِّرُهم بذلك، فسَلِمَ منهم مع هذه الأحوال، فهذا باب كاف شاف.

***

ثقته ﷺ بالله تعالى في إخبار الله إياه بانتصاره على الناس

وهذا مقام لا يقومه عاقل إلا أن يكون على غاية الثقة بالله عزّ وجل والسكون إلى وعد الله، لأنه لو لم يكن ذلك المقام ثقةً بوعد الله لم تلبث أن تغضب أمم العرب والعجم لأديانهم، ويأنفوا لأنفسهم وآلهتهم، فيستأصلونه ويصطلمونه[3]

(١) الجبرية والجِبرية: التكبر، انظر القاموس مادة جبر. **عثمان**

(٢) في القاموس: بينهم طائلة، أي عداوة وتِرَة.

(٣) في القاموس: اصطلم الشيء: استأصله. **عثمان**

ويقتلونه ويمحون أثره. فلما سلم مع الحرص على قتله، وآلت الأمور إلى ما قال، عَلِمْتَ وتيقنتَ أنه من قبل الله، لأن مَثَلَه في هذا مَثَلُ من قال: إني أخوض هذه النار المضرمة فلا تحرِقُني، أو كمن قال: أتردّى من شاهق على الأسنّة وأنا عريان فلا تنفذ فيّ، أو كمن قال: أدخل على هذه السباع الضارية الجائعة التي قد أغضبتُها وقتلتُ أولادها وهي حريصة على افتراسي ومحتاجة إلى قتلي والراحة مني، فأسلم منها ولا تقتلني، فهذا باب شاف.

***

ما كان وَعَدَ الرسول ﷺ وقال وهو في وحدته: إني سأصير في جماعات وعساكر، فكان كما قال وأخبر

وذلك أنه دعاهم فأنكروا قوله وأكفروه وتلقوه بالردّ والتكذيب، ثم ما زال والنفر بعد النفر يجيبونه، حتى صار في عساكر اعتقدوا بصدقه ونبوته، وصاروا له جندا مطيعين، وحزبا متفقين، ينفقون أموالهم ويسفكون دماءهم في طاعته، ويفرون من آبائهم ويقتلون أبناءهم ويفارقون أوطانهم لأجله وامتثالا لأوامره، وأزكى الأعمال عندهم ما أرضاه، بلا دنيا بسطها فيهم، ولا أموال دفعها إليهم، ولا لرئاسة كانت له عليهم، بل كان يتيما فقيرا وحيدا مَعِيلا محتاجا.

***

الفرق بين مجيء محمد
ومجيء أنبياء بني إسرائيل

ثم جاءهم مجيئا ما جاءه نبي قبله في مثل حاله، فإن موسى ﷺ أتى قومه من بني إسرائيل، وهم أولاد الأنبياء، قد اعتقدوا الربوبية، وعرفوا الطريق إليها، واعتقدوا النبوة، وعرفوا الأنبياء قبل موسى، كآدم ونوح، إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط، وأَلِفُوا عبادة الله، واعتقدوا المعاد وعرفوه، ثم جاءهم وهم في ذل وأسر وقهر في أيدي الجبابرة من القبط والفراعنة، يقتلون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويمنعونهم الصنائع الشريفة والاحتراف، ويُقصِرونهم على ضرب اللَبِن وقطع الأحطاب والأعمال الشاقة المؤلمة، فجاءهم موسى بما يعتقدون من الربوبية والنبوة، ثم أخرجهم من الذلّ إلى العزّ، ومن الشقاء إلى الرفاهية والدعة، ومن الفقر إلى الغنى.

ثم جاءهم من بعد موسى من الأنبياء بما جاءهم به موسى، إلى أن انتهت النبوة إلى المسيح عيسى بن مريم ﷺ، فأتى بني إسرائيل بسُنَنِ موسى، وشرائع التوراة.

فقَدِمَ هو (أي عيسى) والأنبياء قبله على أمر ممهد مألوف معروف، وعلى قوم قد ألفوا وعرفوا، وجاء محمد ﷺ قوما لا يعرفون الربوبية، ويعبدون الأصنام، وينكرون البعث والمعاد أشد الإنكار، لا يعرفون نبوة ولا طهارة ولا صلاة ولا صياما ولا زكاة، أشد الناس نخوة وجبرية وأنفة، قساة جفاة، معاشهم من شن الغارات، يسفكون دماءهم ويئدون بناتهم فرارا من العار.

ودعاهم ﷺ إلى الربوبية، وإلى الإقرار بالنبوة والبعث والقيامة، وأخذهم بالصدق والوفاء وأداء الأمانة والخضوع للحق، وبالطهارة والصلاة والصيام والاعتكاف والزكاة، وصلات الأرحام، وقطع السارق، وجلد القاذف والزاني

وشارب الخمر، ومساواة الموالي والفقراء والأعاجم والضعفاء في الدماء، وأَخَذَهُم بالبراءة من آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وبالبراءة من آبائهم ومن أديانهم، وبالإقرار بضلالهم، والتدين بالبراءة منهم، وببذل دمائهم و أموالهم في طاعته، وبمجاهدة الأمم ومعاداة الجبابرة والملوك في طاعته[١]، فأخذهم بكل شدة، وأخرجهم من الراحة إلى الكدّ ومن المسالمة إلى العداوة، وألزمهم ما لم يكونوا أَلِفوا ولا عهدوا، وألزمهم الكُلَف والمؤن، فأجابوه بهذه الشرائط، فكان مجيئه على الوجوه التي قدمنا ذكرها من آياته ودلائل نبوته ﷺ[٢].

ولم نجعل طاعة أصحابه له وتصديق القوم له ومصيره في عساكر وجماعات من دلائل نبوته إلا لأنه أخبر قبل ذلك أن هذا سيكون، فكان كما أخبر وكما قال على تلك الوجوه التي شرحناها وبيّناها. لأنه دعاهم إلى أمور وشرائط ظاهرُ التدبير وموجَب الرأي واقتضاء الحزم ألا يجيبوه ولا يتبعوه إلا أن يكون من قبل الله، وواثقا

---

(١) كانت الصبغة الغالبة على أديان العرب في الجاهلية هي الصبغة الوثنية، أي عبادة الأوثان، إلا أن هذا لم يمنع وجود عدد من الأديان الأخرى، فقد كان بين العرب صابئة يعظمون الكواكب والنجوم ويعبدونها، ودان بعضهم وخاصة في البحرين بالمجوسية الثنوية، كما وجدت مراكز صغيرة لليهودية والنصرانية، ووجد بعض الأفراد ممن اعتقد بتوحيد الله. ومعظم هؤلاء كان متأثرا بالأديان السماوية السابقة، ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى، وورقة بن نوفل بن أسد، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد. وليس غرضنا هنا تفصيل أديان العرب في الجاهلية، فإن ذلك يعرف في مواضع من كتب العقائد والديانات وخاصة كتاب الآراء والديانات للنّوبختي، والملل والنحل للشهرستاني، والفِصَل في الملل والنحل لابن حزم. إلا أننا نحب أن نشير إلى أن القاضي عبد الجبار تعرض لهذا الموضوع بالتفصيل في الجزء الرابع من موسوعته الكبيرة «المغني». **عثمان**

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٢.

بوعد الله، فإن سبيله في ذلك سبيل من قال: هذه النملة الضعيفة تهزم هذه العساكر المعدة، أو هذه الزجاجة الرقيقة تَرِضّ هذه الجبال الصلبة الشديدة، لأنه قد كان في الضعف والوحدة على ما قد علمه الناس، ثم دعاهم إلى ما يكرهون، وأخذهم بكل شدة، وفرض عليهم الأمور الغليظة الصعبة على ما تقدم من شرح ذلك، فعَلِمْتَ وتيقنتَ أنه نور الله ومن قبل الله.

***

وفور عقل محمد ﷺ ومن تبعه من المهاجرين والأنصار

هؤلاء الذين ادعوا أنهم من المسلمين، و أنهم من خاصة الخاصة[1]، وممن قد عرف ما لا يعرفه غيره، وأن للأمور غوامض وبواطن قد عرفوها ولم يعرفها غيرهم، يعتقدون في المهاجرين والأنصار الغفلة والبَلَه وقلة العقل، ومن تدبّر يعلم أنهم أوفر عالم الله عقولا، وأحسنهم تحصيلا، وأسرعهم استدراكا لخفيات الأمور وغوامضها، ولا فرق بين من رمى المهاجرين والأنصار بذلك وبين من رمى رسول الله ﷺ بذلك. فإن آثار عقول المهاجرين والأنصار معروفة في أفعالهم، وتدبيرهم للدنيا، وسياسة أهلها، وترتيب خواصهم وعوامهم، وأخذهم الدنيا من أيدي دهاة الملوك وعقلاء الناس، وتفصيل ذلك يطول.

فإن قيل: ومن سلم لكم عقل صاحبكم حتى تقولوا: إنّ من دَفَعَنا عن عقول المهاجرين والأنصار كمن دَفَعَنا عن عقل رسول الله ﷺ؟

---

(١) يقصد بهؤلاء الباطنية، فقد وقعوا بأكثر الصحابة وهاجموهم، وادعوا أن إسلامهم إنما كان لمال أو جاه، ولم يستخلصوا من الصحابة إلا عددا محدودا. **عثمان**

قيل له: إن أعداءه لا يدفعونه عن ذلك، فإنهم قالوا: ما جمع المهاجرين والأنصار وهو فقير وحيد أجير معيل وقد دعاهم إلى ما قدمنا وعلى الشرائط التي ذكرنا إلا بعقل وافر، وحِلْم واسع، وبلطف في التدبير، وحسن تأتٍّ وعلم بالعواقب، وسعة في الفطن. هذا قول عدوّه فيه.

وأما وليّه فيقول: هذا لا يبلغه عاقل بعقله، ولو كان أتم الناس عقلا، وأوسعهم علما وحلما، وأكثرهم مالا، ولا يكون هذا على تلك الشرائط إلا بتدبير الله عزّ وجلّ الذي يملك العقول، ويقلّب القلوب، وبوحي منه عز وجل.

فإن زَعَمَ الأعداء أن الذي تم له كان مع قلة العقل وبالعجز فيه والخبط فقد خرجوا من كل معقول، وتبرأوا من كل تمييز ومحصول، وجعلوا أنفسهم ضُحْكَة وأحلوا بها المكاره، وأعطوا خصمهم أكثر مما طلب، وشهدوا بأن الله قد نقض له العادات أكثر مما نقضها لأحد من الناس كلهم ممن ادعى النبوة والحكمة وغيرِهم، لأنهم زعموا أنه تم له ما تم بتلك الشرائط وعلى تلك الطريقة بعقل ضعيف وخلق سخيف، وبالذهاب عن الحزم والحلم، ومع طول الغفلة، وهذا اعتراف منهم بنبوته.

فإذا تبيّن عقله لمن تفكر من عدوّه، عُلم أن عقول المهاجرين والأنصار مثلُ عقله أو قريب منه، وكذا عقول قريش ثم العرب؛ فإن العقلاء والحكماء يقولون: الأمم العاقلة هم: العرب والفرس والهند والروم، ثم قالوا: أعقل الأربع العرب والفرس، ثم اختلفوا أيهما أعقل وأحكم وأفطن، الفرس أم العرب؟ وخاضوا في ذلك، وذكروا ما لكل أمة من وصية وحكمة، وتدبير وسياسة، وهذا ما لا يدفعه العاقل المتفكر المتدبر.

* * *

إخباره ﷺ بعصمة الله تعالى له، وبتأييد الله له ونصره، وبظهور دينه في الآفاق، وتحَقُّقُ ما أخبر به

فإذا كان عقل رسول الله ﷺ قد عرفه عدوه ووليّه، فمن هذا عقله: لا يأتي تلك الأمم ويستقبلها بتلك المكاره التي فصلنا، وحاله في الوحدة ما ذكرنا، ثم يقولُ: لا تقتلونني مع حرصهم على قتله، ويقولُ: ستصيرون أنصاري مع شدة ما دعوتكم إليه وهو غير واثق بما قال، ولا ساكن إلى ما أخبر، ثم لا يرضى إلا أن يجعل ذلك كتابا يقرأ، وقرآنا يتلى، ويجعلَه في يد عدوه فيقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

يريد بالآفاق: ظهورَ الإسلام عليها، وبلوغ دعوته إليها[١]، لأنه قد كان وعد بذلك وهو بمكة، وحين ادّعى النبوة، فكانوا يقولون: أيطمع محمد أن يظهر على الآفاق؟ لا، ولا على مكة، ولا على دار من دور مكة؛ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يريد: في إسلام من يسلم منهم بعد الردّ والتكذيب.

وفي هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، لأنه ﷺ كان إذا ذكر ظهور دينه، وغلبة أصحابه، وقتلهم لأعدائه، استبعدوا هذا بل أحالوه، وقطعوا الشهادة بأن هذا لا يكون أبدا، فيقول في جواب ذلك: «خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون»[٢].

وفي هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢٠/ ٦، وتفسير البغوي ٧/ ١٧٩، وتفسير ابن كثير ٥/ ٢٦١.

(٢) راجع تفسير الطبري ١١/ ٣٦، وتفسير ابن كثير ٥/ ٣٤٢.

بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، يعني بهؤلاء: مثل أبي جهل، وأبي لهب، وعقبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل وأشباههم وأمثالهم من أعداء رسول الله ﷺ. فعزّى الله نبيه، وبشّره بقوم يطيعونه ويتبعونه، فيَسَّر له المهاجرين والأنصار كما وعده[1].

وقد أذْكَره بإنجاز هذا الوعد ووقوع الوفاء به، فقال عز وجل: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[2] [الأنفال ٦٢ ـ ٦٣]، لأن اجتماع المهاجرين والأنصار له، واعتقادهم نبوته، وإخلاصهم في طاعته على تلك الشرائط التي تقدم ذكرها، وعلى الوجوه التي قرَّر دعوتَه عليها لا يكون ولا يتم بإنفاق جميع ما في الأرض، ولا يكون ذلك إلا بتدبير الله وصنعه، وهو من آياته التي نُقِضَ العاداتُ بها[3].

ومثله قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهم قد كانوا عقلاء قد عرفوا هذا، ولا يجوز في العقل أن يقول رئيس قوم لأتباعه: قد كنتم أعداء يعادي بعضكم بعضا، ثم صرتم إخوانا يُخلِص

---

(١) راجع تفسير الطبري١١/ ٥١٥، وتفسير البغوي ٣/ ١٦٦، وتفسير ابن كثير٣/ ٤٣٦.

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك ومؤازرتك. ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي لِما كان بينهم من العداوة، فإن الأنصار من الأوس والخزرج كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وأمور يلزم منها عادةً التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان.

(٣) راجع تفسير القرطبي ٨/ ٤٢، والطبري ٤/ ٥٦.

بعضكم لبعض المودة، وبي هداكم الله وجمعكم وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كَذَبهم؛ هذا في رئيس لا يدعي النبوة، فكيف بمن يدعي الصدق والنبوة؟ و هذا قول قد سمعه عدو النبي ﷺ من اليهود والنصارى وقريش والعرب، وأخرسهم صدقه، وبهر عقولهم تمام هذا الوعد والوفاء به، لأنهم اجتمعوا له بتلك الشرائط التي قد تقدمت، وهو بخلاف اجتماع الأتباع لخُطّاب الـمُلك وطُلاب الدنيا.

***

إجازة الرافضة لأنبياء الله ولحججه مداهنة الكفار و تزكيتهم، وذمّ المؤمنين الصادقين

فاحفظ هذا فإنك محتاج إليه، فإن قوما[1] زعموا أنهم أتباع الأنبياء من المسلمين، أجازوا على أنبياء الله وعلى من هو حجة الله على خلقه المداهنة والمقاربة للمشركين ولأعداء الدين، وأن الأنبياء يمدحون المشركين ويزكون أعداء الدين ويظهرون ذلك، ويذمون المؤمنين ويتبرأون من الأنبياء والمرسلين خوفا من المشركين، ويزعمون أن حجتهم في ذلك فرار رسول الله ﷺ واستتاره في الغار ثلاثة أيام.

وقد بيّنا أنه لا حجة لهم في ذلك، بل هو الحجة عليهم، وأن الذي أحوَج الأنبياء إلى الفرار شدة المكاشفة، وترك المقاربة، وقائل هذا لا يثق بأفعال الأنبياء وأقوالهم، ولا بتزكية من زكَّوْه، ولا بلعن من لعنوه، لأنهم قد قالوا: إنه قد يجوز أن يكون ظاهِرُ الأنبياءِ بخلاف أسرارهم وضمائرهم، وأيضا فإن الأنبياء لا يجوز أن يكون ظاهرهم بخلاف باطنهم وإن خافوا وإن قتلوا، وهذا أصل كبير فاعرفه.

***

(١) يقصد الرافضة.

محاولة أعداء الرسول من قريش
والعرب واليهود والنصارى وغيرهم قتله، وعصمة الله إياه منهم

فإن قيل: ادعيتم أن أعداء نبيكم من قريش والعرب واليهود والنصارى حرضوا على قتله وهو بمكة، وهو في تلك الحال من الوحدة والذلة وضعف الأتباع، فمن أعطاكم هذا، ومن سلمه لكم؟

قيل له: إن من سمع أخباره وأخبار القوم معه يعلم ذلك علما لا يرتاب به، كما يعلم أنهم قد كذبوه وعادَوه وأغضبهم ما أتاه وشَرَعَه ودعا إليه، ولا فرق بين من قال: إنهم ما حرضوا على قتله، وبين من قال: ولا كذبوه ولا عابوه ولا برئوا منه، ولا أنكروا شيئا أتى به، ولا خالفوه، وادعى أنه هو أيضا ما خالفهم، ولا عاب أديانهم وآلهتهم، ولا ادعى النبوة، ولا خالفهم في البعث والنشر.

وقد حرضوا أيضا على ذلك وهو بالمدينة، وأعداؤه فيها معه من العرب واليهود والنصارى وهم كثير ونزول بالمدينة وحولَها في آطامهم وحصونهم محدقون بها كالإكليل، وقد غدروا به، وأرسلت قريش إليهم في ذلك، ودست غير واحد، وكان ذلك في الأحوال التي يكون فيها وحده، فيصرفهم الله عنه بألوان الصرف، كما صرف أبا جهل وعقبة بن أبي معيط والذين كانوا بمكة، كما هو مذكور. وكم دسوا له السُّمّ في الطعام فصرفه الله عنه، وقد راموه منه[1] في طول حياته، وقد كان معهم وهو بالمدينة في التبذل والتفرد والتطرح أكثر زمانه، على مثل حاله وهو بمكة. وإنما كان في جماعة في أسفاره وفي حروبه، فأما بيوته وحجرات نسائه فمن

(١) أي حاولوا قتله.

جريد النخل، وقد علم أهل العقل والتحصيل الفتك بجبابرة الملوك في حصونهم وقصورهم وهم وراء أبواب الحديد، وقد تحرزوا بصنائعهم المشاركين لهم في نعمهم وبعبيدهم.

و ليس في هؤلاء من أغضب الناس إغضاب رسول الله ﷺ، ولا من ادعى دعواه، ولا من أذكر عدوّه بعداوته وأيقظه وبعثه على قتله وخرج إليه بذات نفسه وما يريد أن يعمله، مثل رسول الله ﷺ، فإنه أتاهم على الوجه الذي ذكرنا في الوحدة والفقر ورماهم بتلك العداوة، ثم قال: لا تقتلونني، بل أنا أقتلكم وأسبيكم وأستبيح حصونكم، فكان كما قال.

***

دعوى الرافضة أن جل المهاجرين والأنصار كانوا ينافقون الرسول، وأن المؤمنين المخلصين منهم كانوا أفرادا مغلوبين، وبيان بطلان ذلك

فإن قيل: ومن سلم لكم أن المهاجرين والأنصار كانوا يعتقدون نبوته وصدقه، سيما وفي أهل ملتكم اليوم من طوائف الشيعة من يقول: إن أبا بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات والمهاجرين والأنصار ما آمنوا به قط، ولا اعتقدوا صدقه ولا تعظيمه ولا إجلاله ولا توقيره، وما كانوا إلا زارين[1] عليه، معتقدين كذبه وافتعاله واحتياله، وإنما كان اتّباعهم له هُزُءًا به، واغتيالا له، وسخرية منه، وإرصادا لزلاته وإفسادا لأمره، ولإبطال تدبيره، ولمغالبته على الرئاسة، وأنهم ما أقاموا له وزنا قط. وإنما كان الذين يعتقدون ما ادعيتم فيه نفرا يسيرا، كانوا مغلوبين مقهورين

(١) زارين: أي غاضبين عليه.

بهذه الجماعات من المهاجرين والأنصار، و أنهم خرجوا من الدنيا على حال القهر والغلبة من هؤلاء المهاجرين والأنصار، ومعهم بذلك روايات وأقوال ونصوص يدعون أنها من صاحبكم، وتصنيفات قد ملأت الدنيا.

قيل له: إنا ما قلنا في أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجِلة والوجوه من المهاجرين والأنصار: إنهم قد اعتقدوا تبرئته وصدقه، لمجامعة من ادعيت من الشيعة لنا[1]، وإنما قلنا ذلك بالتأمل لأحوالهم وبالاستنباط الذي قد ذكرنا لك، فلن يقدح ذلك في علومنا، ولن يوحشنا خلافُ من خالفنا كائنا من كان من خلق الله، وقد شرحنا كيف كانت دعوته وعلى أيّ شرط كان إجابة القوم له؛ وقد علمنا قبل العلم بنبوته وصدقه أنه ﷺ قد كان يحب أبا بكر وعمر وعثمان، وتلك الجماعة من المهاجرين والأنصار ويحبونه، ويواليهم ويوالونه، و أنهم كانوا ثقاته وبطانته وأمناءه على نفسه ودينه و أهله، وأنه ﷺ كان أحب إليهم من أهلهم وآبائهم وأنفسهم؛ كما قد علمنا أن أبا جهل وأبا لهب، والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل، وابن العَيْطَلَة، وأمية بن خَلَف، وأُبَيّ بن خلف، وعُتْبَة بن ربيعة، وشَيْبَةَ بن رَبِيعَةَ، وأولئك الملأ من قريش، كانوا أعداءه، وكذلك الملأ من اليهود، وكبني قريظة، وبني النضير، وكبني القينقاع، وكخيبر، وتلك القبائل من ثقيف، وغيرها من العرب، كانوا أعداءه وكان عدوا لهم يُبْغضهم ويُبْغِضونه، ويعتقدون كذبه، وأنه مبطل، ولا فرق بين من ادعى في أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات من المهاجرين والأنصار أنهم ما اعتقدوا نبوته، وبين من ادّعى فيمن ذكرنا من قريش والعرب واليهود والنصارى أنهم ما اعتقدوا بغضاءه ولا كذبه؛ ومن

(١) أي ما قلنا ذلك لأجل أن الشيعة موافقون لنا في ذلك.

انتهى إلى هذا فقد بلغ الغاية في الجهل، ولا فرق بين من ادّعى هذا على هؤلاء من المهاجرين والأنصار، ومن ادّعى أن الروم والفرس والهند الذين كانوا في زمانه وزمان نبوته ما اعتقدوا تكذيبه وإن كان قد ظهر منهم ما قد ظهر.

فإن قيل: فكيف جهلت طوائف الشيع هذا وخفي عليها؟

قيل له: هذا إنما يعرف بالتأمل والتدبر وإن كان يسيرا، فمن لم يتأمل ولم يتدبر ولم يستنبط يذهب ذلك عليه.

ومما يزيدك علما بذلك، وأن باطن هذه الجماعة من المهاجرين والأنصار كظاهرهم، وسريرتهم كعلانيتهم، وأن رسول الله ﷺ كان أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، أنهم قد بقوا بعده وملكوا الأمر واستولوا عليه، وامتدت أيديهم إلى ملوك الدنيا وممالكها، فحازوها وأنفقوها في إعزاز دينه وتأكيد شريعته، وزهدوا في المباح المطلق، وحموا نفوسهم وأبناءهم منه، وأدخلوا الأمم من الفرس والروم والهند وغيرهم في دينه، وفرضوا عليهم تصديقه وإجلاله، ومن أبى القبول جعلوا دمه له[1]، وأوطأوا أعداءه وشانئيه الذلّ والسيف في مشارق الأرض ومغاربها.

واعتبر في ذلك بزُهْدِهم فيما تحت أيديهم من الدنيا، وقدِّمْ ـ رحمك الله ـ زهدَ رسول الله ﷺ، فقد كان أزهد الناس فيما تناحر الناس عليه وتطاعنوا فيه وتفانَوا لأجله. فقد كان ﷺ مَلَكَ من أقصى اليمن إلى بحر عمان إلى أقصى الحجاز إلى عرار العراق، واستولى على جزيرة العرب وكانت مقسومة بين خمسة ملوك، لكل واحد منهم شأن عظيم.

هاداه غير واحد من الملوك، وجبى ذلك كله فبذله، وحمى نفسه منه وأهله،

---

(١) أي جعلوا دمه مفوضا إليه إن شاء قبل الذمة فيعصم دمه، وإن شاء أباها فيهدره.

وخيّر أزواجه على إرادة الله ورسوله والدار الآخرة، وعلى أن من أراد الحياة الدنيا وزينتها متعه وسَرَّحه سراحا جميلا [(١)].

وكان ﷺ مع هذا الملك العظيم أيبس الناس عيشا، وأخشنهم لباسا.

واعتبر من ذلك ببُرْدِهِ الذي يلبسه خلفاؤنا من بعده وقيمته مقدار دانقين، وبقَدَحِهِ وخاتمه، وجميع ما صار عند خاصة أهله وعامة أنصاره. ثم توفي ولم يترك عينا ولا دينارا، ولا شيّد قصرا، ولا غرس لنفسه حديقة، ولا شقّ لنفسه نهرا، ولا استنبط لنفسه عينا، ولا رغب لأهله وأصحابه في مثل ذلك.

ومَلَك بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه جميع ذلك، ونفذ فيه أمره، وامتدت يده إلى بني حنيفة وقوم مُسَيْلَمَة، وغزا فارس، وافتتح الحيرة والقادسية وعين التمر[(٢)] وصاروا ذمة له، وجباهم الأموال العظيمة. و افتتح الشام وأوائلها ونَفَذَ أمرُه فيها، فكان حاله في الزهد تلك الحال التي كان عليها رسول الله ﷺ.

وقام بعده عمر رضي الله عنه فحوى ذلك كله، وافتتح إلى أقصى الشام وأخرج ملوك الروم منها واعتصموا منه بالخِلْجان والجبال، وافتتح مصر والصعيد الأعلى، وافتتح الجزيرة والعراق والسّواد[(٣)] ـ أي سواد العراق ـ وفارس وكرمان وسجستان

---

(١) نزلت آيات التخيير في سورة الأحزاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩]. **عثمان**

(٢) بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة سميت كذلك لكثرة التمر فيها، افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ للهجرة. معجم البلدان ٣: ٧٥٩، أرسل إليها معاوية النعمان بن بشير فأخذها من عامل علي سنة ٣٩. الطبري ١: ٣٤٤٥. **عثمان**

(٣) في المصباح المنير: العرب تسمي الأخضر أسود لأنه يُرى كذلك على بعد، ومنه سواد العراق لخضرة أشجاره وزرعه.

وكورة الأهواز، وما سقته دجلة، وما سقته الفرات وما سقاه النيل، وحُمِلت إليه خزائن الملوك وذخائرهم، ومكث على ذلك عشر سنين، ثم قبض وحاله في الزهد تلك الحال.

ثم قام بعده عثمان رضي الله عنه، فحوى تلك الممالك كلها، وافتتح خراسان عن أقصاها، وأخذ ملوكها وأصفهان من الجبال، وفي زمانه قتل المسلمون يزدجرد بن شهريار ملك فارس، وافتتح أذربيجان، وافتتح أرمينية، وجرجان وطبرستان وغير ذلك، واستولى على ملوكها وممالكها، وفتح المغرب، وافتتح من جزائر البحر عدة جزائر عظيمة تكون مسيرة شهر طولا وعرضا، وجبى ذلك كله، ومكث على ذلك اثنتي عشرة سنة، وكانت مدته أطول، وامتدت يده، وملك وحوى أكثر مما ملكه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم نفض يده من جميع ذلك وزهد فيه مع قدرته عليه وتمكنه منه ونفوذ أمره فيه.

ثم قام بعده عليّ رضي الله عنه، فحوى جميع ما حواه الخلفاء قبله وجباه ونفذ أمره فيه، إلا الشام، ومكث على ذلك نحو ست سنين، فنفض يده من جميعه وزهد فيه.

ثم اعتبر بزهد عمال أبي بكر وعمر والخاصة من أعوانهما، كعتبة بن غزوان[1] وأبي عبيدة[2]..

---

(١) هو عتبة بن غزوان بن جابر، يكنى أبا عبد الله وأبا غزوان، من حلفاء بني نوفل بن عبد مناف، قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وهو الذي مصَّر البصرة واختطها، توفي في خلافة عمر وروى عن الرسول ﷺ. الإصابة ٤: ٢١٥، الطبري ٣: ٢٣٧٦. **عثمان**

(٢) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح، قديم الإسلام، هاجر الهجرتين وشهد بدرا وبشر بالجنة، مات في طاعون عمواس بالشام سنة ١٨هـ. الإصابة ٤: ١١. **عثمان**

ومعاذ بن جبل(١) وشُرَحْبِيل بن حَسَنَة(٢) وسعد بن أبي وقاص(٣) وعَمَّار بن ياسر(٤) وبلال(٥) والنُّعْمان بن مقرن(٦) وإخوته، وغيرهم ممن يطول الكتاب بذكرهم وشرح أحوالهم، وهو مذكور في مواضعه، ولا يشك في زهد هؤلاء إلا من شك في زهد رسول الله ﷺ، ولا يبلغ ذلك الشكُّ إلا الجاهلَ القليلَ النظر البطيَء التأمل.

فأما من نظر واعتبر وكان قصده التعرف والتبين، فإن ذلك يفضي به إلى العلم بأنه ما صحب نبيا قط قومٌ أزهدُ ولا أورعُ ولا أعلَمُ من هؤلاء قبل أن يرجع إلى قوله عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فلو كان غرض رسول الله ﷺ وأصحابه الدنيا والملك لكانوا ـ وإن ابتدأوا بذكر الزهد في أول أمرهم ـ إذا ملكوا وقدروا عليها قد ساروا فيها سيرة طلاب الدنيا وملوكها وخطّابها،

---

(١) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عدي، شهد المشاهد مع النبي ﷺ وكان أحد الذين أرسلهم رسول الله ﷺ إلى اليمن لدعوة أهلها إلى الإسلام، رَوَى عن النبي ﷺ ومات بطاعون الشام سنة تسع عشرة أو بعدها. الإصابة ٦: ١٠٧. **عثمان**

(٢) هو شرحبيل بن حسنة نسبة إلى أمه على الأغلب، كان ممن سيره أبو بكر في فتوح الشام، توفي بطاعون عمواس في الشام سنة ١٧هـ. الإصابة ٣: ١٩٩. **عثمان**

(٣) هو سعد بن مالك بن أهيب، أحد العشرة وآخرهم موتا، كان أول من رمى بسهم في سبيل الله وأحد الستة أهل الشورى، وقائد فتوح العراق، توفي بعد الخمسين من هجرة الرسول. الإصابة ١: ٣٠. **عثمان**

(٤) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك حليف بني مخزوم وأمه سمية مولاة لهم، كان من السابقين الأولين وممن عذب في الله، شهد المشاهد كلها مع النبي، استعمله عمر على الكوفة، قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين. الإصابة ٤: ٢٧٣ ـ ٢٧٤. **عثمان**

(٥) هو بلال بن رباح مؤذن الرسول (ص). الإصابة ١: ١٨٩. **عثمان**

(٦) هو النعمان بن مقرن بن عائذ المزني، أخو سويد وإخوته، له ذكر كثير في فتوح العراق وفارس. توفي سنة إحدى وعشرين هجرية. **عثمان**

وما لبثوا أن تظهر سرائرهم وضمائرهم عند القدرة. بهذا جرت العادة، وهكذا أخرجت العبرة، فإن من تخلّق للناس وتصبّر خوفا منهم واتقاء لهم ومداراة لهم، إذا قدر وتمكن تغير وزال عما كان، وظهر مكنونه، فلما دام أمر رسول الله ﷺ وهؤلاء واتصل على طريقة واحدة، علم العالم المتأمل أن سريرتهم كعلانيتهم، وظاهرهم كباطنهم.

وقد رغب قوم منهم في المباح وفيما أحله الله لهم، ولا لوم عليهم ولا تعنيف، وإنما كان كلامنا فيمن زهد في المباح المطلق منهم، وقد ملك هؤلاء ما لم يملك إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهرون وداود ومتى وعيسى، وإن كان الأنبياء خيرا منهم.

وإنما ذكرنا هذا لأن اليهود والنصارى والمجوس وأعداء رسول الله ﷺ يقولون جهارا، بحضرة المسلمين وفي دواوين السلاطين، وفي المحافل بحضرة الأمراء والأشراف: أما الإسلام فقد كُفِيناه ودَفَعَ بعضُه بعضا، وقد كنا نقول سرا بيننا في أصحاب محمد ونفسه أشياء تقولها اليوم الشيعة جهارا وتزيد علينا فيه، من أن أصحاب هذا الرجل وأتباعه وأنصاره ما كانت لهم بصيرة في أمره ولا يقين مع الصحبة وطول المشاهدة ولا أقاموا له وزنا، وإنما طلبوا الدنيا والنهب والغارة. وقد بيّنا فساد ذلك، وفيه من البيان أكثر من هذا، وفيما ذكرناه كفاية.

فإن قيل: أفتستدلون على صحة دينكم بأن هؤلاء قد اعتقدوا بنبوّة صاحبكم وصدقه، وأن ظاهرهم فيه كباطنهم، وهاهنا قوم من اليهود والنصارى والمجوس والمنانية[1] والهند هذه سبيلهم في أديانهم.

---

(١) المنانية والمانية نسبة إلى ماني بن بابك بن أبي رزام، يقال أنه كان أسقفا ثم أتاه الوحي بتغيير ديانته.

ومن أهم مبادئه أن العالم كونين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وكل واحد منهما منفصل عن الآخر. =

قيل له: ما ندفع هذا ولا نمنع منه، ولا نستدل على صحة الإسلام باعتقاد المهاجرين والأنصار بنبوّة محمد ﷺ وصدقه وزهده وزهدهم في الدنيا، وإنما نعرف صحة الإسلام وأنه دين الله بغير هذا. وإنما كان كلامنا على من ادّعى أن هؤلاء ما اعتقدوا صدقه ولا نبوته، فبيّنا فساد قولهم وبطلان اعتقادهم وأنه جهل.

ثم صرنا إلى ذكر الدلائل والأعلام.

فمن أعلام نبوته أشياء نزل القرآن بها قبل كونها.

***

قصة أبي لهب وإخبار الله
بأنه لا يغني عنه في الصد عن دين الله مالُه وما كسب، وبأنه يموت هو وامرأته كافرَين

فمن ذلك قصة أبي لهب، وقد ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾، وقد كان أبو لهب من المؤذين لرسول الله ﷺ، والمجرِدين في مكروهِهِ وطلبِ نفسه، وفي الصدّ عن اتّباعه، فَبَشَّرَهُ اللهُ بأن ذلك لا يضره ﷺ، ولا يغني عن أبي لهب فيما قصد ما كسب من جاه ومال وأهل وولد وصداقة وإخوان، وأنه يخسر ذلك كله، وأنه وامرأته يموتان على الكفر به

= وقد فصل كُتّابُ العقائد والفرق وأصحاب المقالات من الإسلاميين الحديث عن هذه النحلة. انظر الملل والنحل للشهرستاني، والفهرست لابن النديم، والآراء والديانات للنوبختى، والمغني للقاضي عبد الجبار الجزء الرابع، وغيرهم. ومجمل مذهب المنانية مستخرج من المجوسية والنصرانية. **عثمان**

ويصيران إلى النار. نزل ذلك بمكة، وهما حيّان سليمان، فكان ذلك كله على ما قال وعلى ما أخبر وكما فصّل وفسّر[1].

وهذه غيوب كثيرة لا يكون مثلها بالاتفاق ولا بالحدس ولا بالزَّرق[2]، ولا يتفق لحذّاق المنجمين أقل القليل من هذا.

ومن عجيب الأمور أنها نزلت بمكة، وتلاها رسول الله ﷺ، وسمعها أبو لهب وجميع أعداء رسول الله ﷺ من قريش والعرب وغيرهم، وهم أعوان أبي لهب، فهاجَهُمْ هذا القولُ في عداوته، وزاد في غيظهم وحنقهم، وأَذْكَرَهُم بنفسه وهو معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم، فما ضره، ولا تمّ لهم أمر في الظفر بقتله، ولا على زلة يتبين فيها كذبه وسقوط قوله، وهذا لا يقدم عليه العاقل إلا وهو على غاية الثقة بما يقول، ورسول الله ﷺ ممن لا يَدْفَعُ عدوُّهُ عقلَه. ومنذ نزلت هذه السورة وإلى هذه الغاية يحرص أعداء رسول الله ﷺ أن يجدوا في ذلك مطعنا فما وجدوا.

و قد رجع بعضُهم إلى بعض في ذلك وتشاوروا فيه، وتعاضدوا وتعاونوا، فكان ما انتهى إليه كيدهم أن قالوا: لما رأى عَمَّه وامرأتَه قد صمما في تكذيبه وعداوته قال ذلك فيهما.

قيل لهم: قبل كل شيء قد تم ما قال على ما فسر وشرح، وحصل ذلك على وجه انتقضت العادة به، وظنونكم هذه لن تقدح في هذا العلم، وهذا كاف في جوابكم.

ثم قيل لهم: قد صنع مثل صنيع أبي لهب خلق كثير فما قال هذا فيهم، ومنهم من أسلم. وأيضا فلو قال في أبي لهب: إنه يسلم قبل إسلامه وأسلم لأمكن الخصم

---

(١) راجع جامع البيان ٢٦/ ٤٧٦، تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٣٤، تفسير ابن كثير ٨/ ٥١٤.

(٢) الزرق: الخداع، وفي اللسان: رجل زراق أي خداع. **عثمان**

أن يقول: ما في هذا دلالة، لأن الرجل عمّه، وقد رأى إخوته حمزة والعباس وقد أسلما، وقد أسلم ولدا أخيه أبي طالب جعفر وعلي، فكيف لا يسلم هو أيضا؟ فهذا كان أقرب وأظهر في الرأي والتدبير، فلم يقل ذلك، وقال غيره وخلافه، لتعلم أن هذا قولُ علّام الغيوب وكلامُه عز وجل.

وقالوا: لو أسلم لكان له أن يقول: إنما قلت: إنه سيصلى النار إن لم يسلم وإن أقام على الكفر، كما قال: «إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة».

قيل له: قبل كل شيء قد تمّ ما قال وما وجد له خُلْفُ، وحصل على وجه انتقضت العادة به كما بيّنا وقدّمنا، وأخذت أنت أيها الخصم تقول: لو لم يكن هذا ويتم بأي شيء كان يعتذر؟ وحَصَلْتَ على تدبير ما لم يكن، وجهلت أيضا اللغة وموضع العربية لأن قوله عز وجل: «إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة» إنما هو جزاء، وليس بخبر عن أحد أنه سيفعل ذلك، وهذا كقول القائل: من سرق مالي قطعته، وليس بإخبار عن أحد أنه سيسرق ما له، ويجوز أن لا يسرق ماله أحد ألبتة مع هذا القول.

وقوله تبارك وتعالى في أبي لهب وامرأته إنه: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ ليس من تلك الأمور، وإنه سيصلى وامرأته نارا ذات لهب، إخبار عن أمور ستكون فكانت كما قال، كقوله عز وجل: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢]، وكقوله: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥]. وكقوله عز وجل ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ ﴾ [الإسراء: ٥١].

***

إخباره في سورة الكوثر بأن شانئه هو الأبتر، فظهر أمره، وانبترت ديانات قريش وسائر العرب، وفيه دلالة على صدق الخلفاء الثلاثة وصداقتهم للرسول وإخلاصهم له، والرد على الرافضة

وذلك أن قريشا والعرب لما أعيتهم الحيل في أمر رسول الله ﷺ، كانوا يستروحون إلى أدنى غمّ يناله ﷺ، فمات ابنه إبراهيم وهو أكبر ولده وبه كان يُكْنَى، ومات ابنه عبد الله، فسرت قريش بذلك، وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد انبتر محمد[1]، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣].

فانبترت ديانات قريش والعرب كلها وبطلت عن آخرها، ولم يبق على ذلك الدين عين تَطْرُف، وتم أمره ﷺ، وسطع نوره وعلا وقهر.

وفي هذا غيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون؛ ثم وردت على وجه يَغِيظ ويُغضِب ويبعث على الوثوب به وعلى قتله وعلى إطفاء نوره، وقد حرضوا على ذلك فما تمّ. وهذا قول لا يورده العاقل على الوجه الذي أورده رسول الله ﷺ إلا وهو على غاية الثقة بالله والسكون إلى ما يوحيه إليه عز وجل، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع عدوُّه عقلَه، وكانت قريش تقول فيه لما مات بنوه: محمد صنبور[2]، أي منقطع الأصل منبتر الذِكْر.

وقيل لأعرابي: كيف نخلك؟ فقال: صنبر أسفلُه وعشش أعلاه، أي ضعف أصله وعشش أعلاه فبطل كله وزال الانتفاع به.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٠٤ تفسير البغوي ٨/ ٥٦٠، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ٢٢٢.

(٢) جاء في لسان العرب: الصنبور: النخلة المنفردة من جماعة النخل، ورجل صنبور: فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب ولا ناصر. لسان العرب مادة صنبر. **عثمان**

والكوثر هو على وزن فوعل، كنوفل وحوقل، وهو الكثير من الجُمَّيْز خاصة[1]. فيريد عز وجل: إنا أعطيناك الكثير من التأييد والنصرة والحجة والعزّ والثواب والأجر.

وفيه دلالة على بطلان قول من قال: إن أبا بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعات من المهاجرين والأنصار كانوا أعداء رسول الله ﷺ وشانئيه، وإنهم قصدوا تغيير القرآن، وتبديل دين رسول الله ﷺ، وإماتة نصوصه، ودفع وصيته وخليفته، ففعلوا ذلك وقَهَرُوا وغَلَبُوا وكانت الغلبة لهم، وخليفة رسول الله هو المغلوب المقهور، وهم الغالبون القاهرون، وإن خليفة رسول الله ﷺ ووصيَّه ما تمكن إلى أن خرج من الدنيا.

قلنا: فلو كان الأمر كما قلتم لكان هذا قد كذب ولكان نظم السورة هكذا: «إن شانئك هو الأقهر والأغلب والأظهر، وأنت الأبتر» فلو أنصفوا وتدبروا القرآن لما قالوا في المهاجرين والأنصار هذا القول.

***

محاولةُ المشركين مقاربتَه وتنازُلَه عن بعض ما جاء به، وفَشَلُهم في ذلك، وإخبارُهُ بأنه لا يكون ولن يكون ذلك أبدا

وذلك أن قريشا لما حَرَّضُوا على قتل رسول الله ﷺ وإبادته وإطفاء نوره، وعلى التنفير منه والصدّ عنه، والله تعالى يصرفهم بألطافه عنه، مشوا إليه، وهم: الوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث بن كلدة، وأمية بن خلف، وعتبة بن

---

(١) الجمّيز والجميزى: التين الذكر، وهو حلو وألوان. قاموس. وفي المفردات: الكوثر: قيل: نهر في الجنة يتشعب عنه الأنهار، وقيل: بل هو الخير العظيم الذي أعطاه الله النبي ﷺ، وقد يقال للرجل السخي: كوثر، ويقال: تكوثر الشيءُ كثر كثرة متناهية.

خلف، والجماعة من قريش، قالوا: يا محمد، إنك قد سفهت أحلامنا، وكفّرت أسلافنا، وعِبْتَ آلهتنا وأدياننا، وشتّتّ كلمتنا، وقطّعت أرحامنا، فهلمّ إلى أمر يكون بيننا وبينك، فتعبد أنت آلهتنا التي نعبدها ونعبد إلـٰهك؛ فإن كان معنا خير كنتَ قد أَصَبْتَ منه، وإن كان معك خير كنا قد أصبنا منه، وتكون كلمتنا سواء، وتُسالِمُنا ونُسالِمُك، وتكون لنا ونكون لك(١)؛ فأنزل الله تعالى: «قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ * وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» فأخبر الله أنه لا يَصِيرُ ولا يُجِيبُ إلى ما قالوا، ولا يقبلهم بهذا الشرط، ولا يكونون على هذا الوجه عابدين لله على الوجه الذي عبده، فكان كما قال.

وفي هذا غيوب كثيرة مفصلة جاءت كما أخبر، وهذا لا يكون إلا من علّام الغيوب، ولو لم يكن من آياته إلا هذا لكفى وأغنى.

فهذا يدلّك على خضوع قريش واليهود والنصارى وجميع أعداء رسول الله ﷺ وانقطاعهم في يده، وأنه لا مطعن في آياته. و لهذا المعنى قال الله: «فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» القلم ٩، أي لو قارَبْتَهُم وأجبتهم إلى ما دعوك لأجابوك، ولو داهنتهم لداهنوك. فتأمل قوله: «قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ» كيف يَجْبَهُهُم بالإكفار والتجهيل والتضليل، وهم أشد عالم الله أنفة ونخوة وجبرية، ودفاعا عن أنفسهم، ومواثبة لعدوهم، وهو بمكة معهم وفي أيديهم وفي قبضتهم، والعزّة والغلبة والكثرة لهم لا له، فهيجهم على نفسه بهذا القول، وبعثهم على مكروهه، فنجاه الله منهم.

وهذا قول لا يقوله عاقل وحاله ما وصفنا إلا وهو على غاية الثقة بالله بدفعه

---

(١) جامع البيان ٢٦/ ٤٦٨،

عنه، ورسول الله ﷺ ممن لا يدفع عدوُّه عقلَه، فمن أي شيء تعجب رحمك الله؟ أمن إقدامه، أم من مصير الأمر إلى قوله وحكمه!!

فاعرف هذه القصة واحفظها فإنها عظيمة جليلة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن[1]». وكان يقال في صدر الإسلام لـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ المقشقشتان[2]، أي هما براءة من الشرك، يقال للجرح إذا برأ واندمل: تقشقش الجرح.

***

إخبار الرسول ﷺ بوعد الله تعالى بنصر المهاجرين والأنصار وبتمكينهم في الأرض

وذلك أن محمداً ﷺ وعد أصحابه من المهاجرين والأنصار والمكيين في حال ضعفهم أن الله سينصرهم ويمكنهم ويقوّيهم ويظهرهم، فيقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وتكون العقبى لهم؛ وتلا بذلك القرآن وخلّده وأسمعه عدوّه ووليّه، فقال عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، والمتقي الهندي في كنز العمال، والهيثمي في مجمع الزوائد بلفظ «فكأنما قرأ ربع القرآن»، وثلث القرآن ورد لقراءة سورة الإخلاص وحدها رواه النسائي في السنن الكبرى، أو مع أم القرآن رواه الطبراني في الأوسط، أو مع المعوذتين رواه أبو داود الطيالسي في مسنده.

(٢) قشقش: في اللسان يقال تقشقش الجرح: تعرض قرحه للبرء، والقشقشة: تهيؤ البرء، والمقشقشتان: «قل هو الله أحد» و«قل أعوذ برب الناس» لأنهما كانا يُبرأ بهما من النفاق، وقيل: هما «قل يا أيها الكافرون» و«قل هو الله أحد». اللسان مادة قشش. **عثمان**

﴿... حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾[1] [الحج: ٣٩ ـ ٤١]، فتمكن أصحابه وخلفاؤه، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وكانت العقبى لهم.

وفي هذا غيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون، فكانت كما فصّل وكما أخبر وفسر، لتعلم أن هذا قول الله وكلامه، وأن محمدا رسوله.

* * *

صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان من القرآن العظيم

وفي هذه الآية دلالة على صحة إمامة أبي بكر وعثمان رضي الله عنهم، وشهادة بأنهم أئمة هدى، وأن طاعتهم طاعة الله، لأنهم من المهاجرين والمكيين

(١) كان المشركون يؤذون أصحابه صلى الله عليه وسلم، فيأتون بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بقتالهم. حتى هاجروا فأُنزلت هذه الآية، وكان نزولها عقب الهجرة، وهي أول آية أُذن فيها بالقتال، بعدما نهي عنه في أكثر من سبعين آية، والمعنى ـ والله أعلم ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟...﴾ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي لولا أن الله تعالى يدفع الشر عن قوم بقوم آخرين، ويكف شرور أناس عن غيرهم بأناس آخرين لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف كما هو طبيعة الإنسان، و﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ للرهبان، وهي محل عبادتهم ﴿وَبِيَعٌ﴾ للنصارى ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ لليهود، وهي كنائسهم ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ للمسلمين، ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾.

والتابعيـن ومـن الذيـن أخرجـوا مـن ديارهم بغيـر حـقّ لقولهـم: «رَبُّنَـا اللهُ»، وهم الذيـن تمكنـوا وتولـوا الأمـر ودعـوا إلـى الله وفعلـوا مـا قـال الله، كما هـو مذكور فـي الآية.

ولو كانوا منافقين أو مشركين أو مرتدين كما تدعي ذلك عليهم طوائف الرافضة لكان هذا الخبر قد أخلف وكَذَب، ولكان الذي أتى به وتلاه ليس بنبي بل كذاب، لأن هؤلاء هم الذين تملكوا وتمكنوا وكان الأمر والسلطان والقهر والغلبة لهم؛ فزعمت الرافضة أنهم بدّلوا القرآن وأحرقوه، وغيروا النصوص، وعطلوا الدين، وغيروا الطهارة والأذان والمواقيت والصلاة والصيام والمناكح والطلاق، وأماتوا السنن، وأحيوا البدع؛ وكان خليفة رسول الله ﷺ ووصيه[1] مغلوبا مقهورا يُظْهِر ما يظهرون من الشرك، فأين صدق هذه الآيات.

وقد كان ينبغي أن يكون على ما يدعيه الرافضة أن تكون التلاوة: ﴿والذين إن مكناهم في الأرض عطّلوا الصلاة والزكاة وأماتوا النصوص وقهروا الوصي المنصوص عليه، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف﴾ فتعلم أن هؤلاء قد ذهبوا عن القرآن وفارقوا الدين، وتعلم أن هؤلاء السلف على الحق، وأن الله تولى نصرهم كما وعدهم، والله لا ينصر إلا أولياءه وأحباءه وأهل طاعته. وقد كان المهاجرون يحتجون بهذا.

قال صعصعة بن صوحان[2] ـ و كان قد رحل إلى عثمان في شأن قوم كانوا قد أساءوا في الكوفة، فأخبر أميرُها سعيدُ بن العاص عثمانَ بذلك فأمر بإخراجهم إلى

---

(١) يقصدون عليا رضي الله عنه.

(٢) انظر الطبري حوادث سنة ٣٣، ففيه تفصيل حادثة النفر الذين أخرجهم عثمان من الكوفة بعد أن اتهموا بالشغب فيها، وكان فيهم: مالك بن الأشتر، وثابت بن قيس، وكميل ابن زياد النخعي، وصعصعة بن صوحان.

الشام ـ: ما رأيت أسرع جوابا من أمير المؤمنين عثمان، قلنا له: أُخرِجنا من ديارنا أن قلنا ربنا الله، فقال: كذَبْت، ليست لك ولأصحابك، ولكنها نزلت فينا معشر المهاجرين، أخرجنا من ديارنا أن قلنا ربنا الله، فمنا من مات بأرض الحبشة، ومنا من مات بالمدينة، فنصرنا الله ومكننا، وأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وكانت العقبى لنا.

وهذا لا يذهب على متأمل وإنما ذهب على أهل الغفلة.

***

معجزة الإسراء وما حواه من العجائب ومن الآيات على نبوة الرسول ﷺ، وفي الباب أن الطاعنين في الصحابة قصدهم الطعن في رسول الله

وذلك أنه ﷺ أسري به في ليلة واحدة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عاد من ليلته إلى مكة، ومدة السفر في ذلك مقدار شهرين أي ذهابا وإيابا.

ولما عاد رسول الله ﷺ تحدث بذلك في أهله، فقالت له أم هانىء بنت أبي طالب: لا تتحدث بهذا، فوالله لا صدّقك الناس، وليَكْفُرَنّ بك من آمن بك، ولَيُكَذِّبَنَّكَ من صَدَّقَكَ. فقال ﷺ: إن ربي أمرني أن أخبر الناس بذلك، وإن أبا بكر يصدقني ويشهد لي. فخرج وأخبر قريشا بذلك فسَرَّهُم هذا، وقالوا: الآن يظهر كذبه وينقطع الناس عنه، قوموا بنا إلى صاحبه ابن أبي قحافة لنخبره بما قال صاحبه. وكان أبو بكر ثقيل الوطأة على قريش وأعداء رسول الله، فإنه كان يدعو إلى نبوته، ويخطب بآياته، وكان وجيها في الناس، عالما بقريش، بيِّن الفضل فيهم، فكانوا يقصدونه بالمكاره لهذه الخصال التي كانت تضرهم. وقد استدعى خيارَهُمْ وَوُجُوهَهُمْ إلى الإسلام،

وأنفق ماله في نوائب الإسلام ونصرته، وكانوا يطلبون شيئا يَصُدُّه عن رسول الله ﷺ ويمنعه من اتّباعه. فأتوه وقالوا له: يا أبا بكر، ما زال صاحبك حتى أتى بكذبة خرج بها من أقطارها، قال أبو بكر: حاشاه، وما هو؟ قالوا: زعم أنه أُسْرِيَ به في ليلة إلى بيت المقدس، فقال أبو بكر: إن كان قال ذلك فقد صدق. قالوا: يا أبا بكر، أتصدقه في هذا، والعير تطرد في ذهابها شهرا وفي رجوعها شهرا، أيبلغه في ليلة واحدة؟ قال أبو بكر: إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة واحدة فأصدقه، وبُعْد السماء عن الأرض أكثر من بعد بيت المقدس من مكة؛ قوموا بنا إليه نسأله عن ذلك، فأتوه، فقال له أبو بكر: ما شيٌء بلغني عنك يا رسول الله أنك أتيت بيت المقدس في ليلتك؟ فقال: نعم يا أبا بكر، صلّيت بكم في هذا الوادي، فأتاني آت فأيقظني وأخرجني وجاء بدابته فقال: اركب فارْفَضَّتْ[1]، فقال لها جبريل: اسكني، فما حملت خيرا منه. فسارت بي، وإذا حوافرها تقع مدى بصرها، وكنت إذا أتيتُ صعودا قَصُرت قوائمها، وإذا أتيتُ حدورا طالت قوائمها، فأتيت بيت المقدس؛ وذكر صلاته ودخوله إليه ورجوعه. فقال له أبو بكر: يا رسول الله، هل تستطيع أن تصف لنا بيت المقدس؟ فقال: نعم، فوصف مدخله والمسجد وسقوفه وما فيه شيئا شيئا، وكان إذ ذاك في أيدي الروم، وكان مُلْك الشام لهم، وبعضه في أيدي اليهود، فقال أبو بكر: أتسمعون؟ وكان فَعَلَ أبو بكر ذلك لِيُعَرِّفَ الناس صدق رسول الله ﷺ فيما ادّعى. فقالت قريش: فإن لنا عيرا بالشام، عرفتَ

(١) قوله فارفَضَّت: بالضاد المعجمة: في نهاية ابن الأثير ولسان العرب: وفي حديث البراق: «أنه استصعب على النبي ﷺ، ثم ارفضّ عرقا وأقر» أي جرى عرقه وسال ثم سكن وانقاد وترك الاستصعاب، ومنه حديث الحوض: «حتى يرفضّ عليهم» أي يسيل، ويحتمل أن تكون بالصاد المهملة بمعنى اضطربت، وهو المناسب بالسياق.

خبرها؟ فقال: نعم، مررت بهم في ذهابي، وهم في موضع كذا، وقد ندّ لهم بعير من حسّ دابتي فدللتهم عليه، ورجعت عليهم وهم نيام وقَدَح فيه ماء وقد خمروه، فنزلت وكشفته وشربت وخمرته.

ثم قال: وآية أخرى أنهم يَرِدُون عليكم يوم كذا وقت طلوع الشمس، وتَقدُمُ عيرهم من ثنية كذا، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان، إحداهما برقاء والأخرى سوداء. فأرصدت قريش لذلك اليوم، فقال قائلهم: هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه العير قد أقبلت وأمامها الجمل الأورق وعليه الغرارتان كما وصف. وسألوهم عن البعير الذي ندّ وعن القَدَح الذي كان فيه الماء فأخبروهم بذلك كما وصف، و أنهم وجدوا القدح فارغا بعد أن كان فيه ماء(١).

فتأمل ما في هذا من الآيات والمعجزات والعلامات الواضحات البينات التي لو لم تكن إلا هذه لكفت وأغنت في الدلالة على نبوته.

فمنها مصيره ورجوعه في ليلة واحدة، ومنها إخباره بالوقت التي ترد فيه عير قريش على أي سبيل ترد، فكم في هذا من الغيوب.

فإن قيل: ومن سلّم لكم أن الإسراء قد كان على ما وصفتم لنا من ذهابه إلى المسجد الأقصى وعودته في ليلة واحدة، وكيف علمتم هذا، وما طريق العلم به؟

قيل له: قبل كل شيء قد علمنا أنه ﷺ قد احتج بالإسراء وجعله قرآنا يتلى(٢)، وقد سمع هذا جميع أعدائه من قريش واليهود والنصارى، وهم معه وجيرانه وأشد

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ٢/ ٤٧ ـ ٥٣.

(٢) تناولت سورة الإسراء قصة الإسراء بقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾. عثمان

الناس عليه وأحرصهم على عثرة تكون له أو عيب يكون فيه، وهنالك أصحابه ومن قد اعتقد صدقه ونبوته، ولم يتبعه هؤلاء إلا لأنه نبي صادق وعاقل لا يحتج على عدوه ووليه بما لا يقوم برهانه، ثم لا يرضى الرسول ﷺ إلا أن يأتي في ذلك بقرآن يتلى ويضيفه إلى ربه ويستطيل بذلك على عدوه ووليه، وليس معه في ذلك حسب زعم الخصم إلا الدعوى الخالية من كل الحجج؟ هذا لا يفعله عاقل، وعقل رسول الله ﷺ عند عدوه فضلا عن وليّه فوق العقول. فلابد أن يكون قد أيد دعواه هذه بالحجج.

وأخرى: أن من ادعى هذه الدعوى ـ على ما يدعيه الخصم، أي بدون تأييد لها بالحجج ـ لا يَتْبَعُه أحد ولا يصدقه أحد، بل يرجع عنه من قد اتبعه، إذ ليس معه إلا الدعوى ـ على ما يدعيه الخصم ـ وكل أحد يمكنه أن يدّعي أنه قد أسري به في ليلة واحدة من البصرة إلى بيت المقدس أو من العراق إلى بلاد الهند، فقد تَبَيَّنْتَ وعلمت بما هذه سبيله أن الحجة بذلك قد قامت واتضحت.

وأخرى: ما جرى بين قريش وبين رسول الله ﷺ، وبين قريش وأبي بكر الصديق، وما كان في ذلك من طول المراجعة.

وما احتوته المراجعة من الحجج والدلائل على صدق رسول الله ﷺ في دعوى الإسراء. ومن عنِيَ بذلك يعلم أن الأمر كما حكينا ووصفنا من أن دعوى الإسراء كانت مؤيدة بالدلائل المثبتة لها علما يقينا لا يرتاب به، كما يعلم فرارَ المهاجرين إلى أرض الحبشة، وإخراج قريش عمرو بن العاص وعمارة ابن الوليد بن المغيرة في طلبهم، وما كان لهم معهما مع النجاشي من المخاطبات والمراجعات، إلى أن صارت العقبى للمسلمين. وكما يعلم خروج رسول الله ﷺ إلى المواسم وعرضَه

نفسه على القبائل، وما كان له معهم من المحاورات والمراجعات والمخاطبات.
وكما يعلم خروجه إلى الطائف وعرضه نفسه، وما كان له معهم من المراجعات والمخاطبات.

وكما كان له مع قريش بمكة في حفل بعد حفل ومرة بعد مرة، وفي مشيهم إلى أبي طالب ليكفه عن مخالفتهم وتجهيلهم وذكر آلهتهم، وما تعاهدوا عليه من عداوته وعداوات أصحابه، ومن التجريد في قصدهم بالمكاره، وما كتبوه في ذلك في ترك مبايعتهم ومناكحتهم ومعاملتهم، وما أشبه ذلك من الخطوب التي كانت منهم، فمن رسخ فيما هذا سبيله، عرف قصة الإسراء وما كان لرسول الله ﷺ في ذلك مما تقدم ذكره، ومن لم يكن هذه سبيله لم يعلم، ولكل أحد سبيل إلى أن يعلم ذلك.

فتأمل رحمك الله ما في ذلك، وقولَ أم هانىء، واحتجاجَ قريش في أن المسير في ذلك يكون في شهرين فكيف تم في ليلة واحدة، ومطالبتهم بالحجة في ذلك، ثم مسألتَهم عن عيرهم التي بالشام، ثم مصيرَهم إلى المكان في الوقت الذي ذكر رسول الله ﷺ أن العير ترد فيه وتفقُّدَهم صورتها وما تقدمها، ثم مسألتَهم أهل العير عن القَدَح، لتعرف عقولَ قريش وشدةَ فطنتها وعنايتها بأمر النبي والتفقدَ لأحواله.

وانظر كيف قد سألوا عن ذلك مما يمكن العاقلَ أن يسأل عنه ويتكلم فيه.

وانظر إلى فطنة أم هانىء بنت أبي طالب وخوفِها مما يُخاف مثلُه، وأن هذا الأمر إن لم يقم على الدعوى به حجة لم يصدقه أحد، بل يكذبه من صدّق به ويكفُره من آمن به، لتعلم كذب الحداد، وأبي عيسى الوراق، والحصريّ، وابن الراوندي[1]، وهؤلاء علماء الإمامية ورؤساؤهم، وعليهم يعولون، وإلى كتبهم يرجعون.

---

(١) سبقت ترجمة كلٍّ من الوراق وابن الراوندي.

ولكل هؤلاء كتب يطعنون فيها على الأنبياء، ويدّعون على قريش والعرب الجهل والبلادة والغباء، وأن رسول الله ﷺ خدعهم وسخر منهم.

وهذه الكتب منقوضة قد نقضها غير واحد من العلماء. والمطاعنُ على الأنبياء كلها إنما هي من جهة هؤلاء الشيع، والإمامية تواليهم وترجع إلى أقوالهم، فاعرف هذا فإنه من العجائب، وبك إلى معرفته أشدُ الحاجة.

فمن كُتُب الحداد في هذا الشأن كتابه «الجاروف» وكتابه «الأركان»، وكتاب الحصري «في تسوية أصحاب الكلام بالعوام»، وكتاب «الزمردة» وكتاب «غريب المشرقي» وكتاب أبي عيسى الوراق، وكتاب حنين «البهائم»، وكتاب «التاج» في القِدَم لابن الراوندي، و«الزمردة» و«الفريد» و«التصفح» وكتاب «نعت الحكمة» في الطعن في حكمة الله، وكتاب «الدامغ[1]» يطعن فيه في القرآن، وغير ذلك من كتبهم.

وفضيحتهم في هذه الكتب واضحة، وليس لرسول الله ﷺ أعداء مثلهم، والشيع تتولّاهم لأنهم عملوا كتبا لهم في الطعن في المهاجرين والأنصار.

فمن العجب أن قوما يدّعون أنهم من المسلمين يوالون هؤلاء ويرجعون إلى كتبهم، فتبين رحمك الله الحال في ذلك، لتعلم أنه لا يطعن على المهاجرين والأنصار إلا من يطعن على الأنبياء صلوات الله عليهم، وإنما تستّر هؤلاء الملحدة والزنادقة بالتشيع والإمامة ليستوي لهم الطعن على الأنبياء وتشكيك المسلمين في الدين، فاعلم ذلك.

***

(١) كتاب الدامغ أحد مؤلفات ابن الراوندي الملحد. **عثمان**

إخباره عن مجموعة
ممن اشتدوا في عداوته بخزيهم
في الدنيا وبموتهم على الكفر دون الآخرين منهم

وذلك ما نزل بمكة في رجال بأعيانهم أنهم يصرون على شركهم إلى أن يموتوا، وأن الله سيذيقهم من عاجل الخزي في الدنيا، وقد صنع مثل صنيعهم قوم علم الله أنهم يدخلون في الإسلام فلم يأت من عند الله فيهم ما أتى في أولئك.

فمن ذلك ما نزل في أبي جهل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[1] [القيامة: ٣١ ـ ٣٤]. فقال أبو جهل: لِمَ يهدِّدني رب محمد وأنا أعز أهل البطحاء وأكرمهم؟ فأنزل الله في استهزائه بالزقوم وقوله: إنه التمر بالزبد[2]، قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٣ ـ ٤٩]. أي بزعمك.

نزل هذا كله فيه وهو يومئذ حيّ سليم، فأذاقه الله حرّ الحديد ببدر، ومات على الكفر كما قال وكما أخبر.

---

(١) قال ابن كثير: روى أبو عبد الرحمن النسائي عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾، قال: قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل، ثم أنزله الله عز وجل، روى ابن أبي حاتم عن قتادة قوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وعيد على إثر وعيد كما تسمعون، وزعموا أن عدو الله أبا جهل أخذ نبي الله ﷺ بمجامع ثيابه ثم قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا، وإني لأعز من مشى بين جبليها.

(٢) راجع تفسير القرطبي ١٦/ ١٥٠.

ونزل في الأخنس بن شُرَيْق الثقفي حليف بني زهرة من قريش: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾[1] فمات على كفره.

ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة أخو بني عبد الدار، وكان شديد الرد على الله وعلى رسوله، شديد العداوة والإرصاد. وقد كان رحل في عداوة رسول الله ﷺ إلى فارس، وطلب ما يكيد به الإسلام والمسلمين، فوجد أحاديث رُسْتُم وأَسْفَنْدِيار والفرس[2]، فاشتراها وقدم بها مكة فجعل يتحدث بها. وكان رسول الله ﷺ إذا قام من مقعده خلفه فيه النضر وحدثهم بتلك الأحاديث وقال: حديث محمد عن عاد وثمود والأمم من هذا، بل هذا أحسن. فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] [لقمان: ٦ ـ ٧]، ونزل فيه غيرها أيضا. وقُتِلَ يوم بدر، أصابته جراحة في رأسه، وحصل مع المسلمين في جملة المأسورين وقال: لا أذوق لهم طعاما ولا شرابا ما دمت في أيديهم، فمات من الضربة وصار إلى النار بعد أن أذاقه الله العذاب المهين في الدنيا كما قال وكما أخبر.

ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان من الأشداء على المسلمين، فقال

---

(١) ذكر الطبري في تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ أن بعض المفسرين قالوا: عني بالآية رجل من أهل الشرك بعينه، فقال بعضهم: هو جميل بن عامر الجمعي وقال آخرون: هو الأخنس بن شريق. الطبري ٣٠: ١٦٢. **عثمان**

(٢) ذكر ابن النديم كتاب رستم وأسفنديار بين أسماء الكتب التي ألفها الفرس. الفهرست لابن النديم ٤٢٤. **عثمان**

(٣) راجع تفسير البغوي ٦/ ٢٨٠ تفسير القرطبي ٨/ ٥٧.

لقريش حين حضر الموسم: إن الناس قادمون عليكم وسائلوكم عن صاحبكم، يعني رسول الله ﷺ، فماذا تقولون؟ قالوا: نقول مجنون، قال: يكلمونه فلا يجدونه مجنونا، قالوا: نقول شاعر، قال: فهم أصحاب الشعر يقولونه ويروون بسيطه وهَزَجَه فلا يجدونه شاعرا. قالوا: فنقول كاهن، قال: فقد رأوا الكهنة وتكلّفهم وكذبهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ ففكر وقدّر ونظر وعبس وبسر كما وصفه الله تعالى في سورة المدّثر، ثم قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾.

وكان له عدة بنين، وكان ذا مال واسع، فكان بنوه يحضرون ويشهدون عقلاء، فأنزل الله فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ إلى قوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[1] [المدثر ١١-٢٦]، فلم يزده الله مالا ولا ولدا بعد هذا كما أخبر، ثم مات كافرا كما قال الله. وقد كان عند نزول ذلك حيا سليما، فانظر كم في ذلك من الإخبار بالغيوب.

* * *

قصة انشقاق القمر وما حوته من العجائب والآيات، ودفع بعض الشبه عنها

وذلك ما كان بمكة من انشقاق القمر؛ فإن رسول الله ﷺ مرّ بمكة في ليلة قمراء ومعه نفر من أصحابه، فاجتاز بنفر من المشركين، فقالوا له: يا محمد، إن كنت رسول الله كما تزعم فاسأل ربك أن يشقّ هذا القمر، فسأل اللهَ ذلك فشقّه، فقال

(١) وأكثر الآيات حول الوليد بن المغيرة. **عثمان** راجع تفسير ابن كثير ٨/ ٢٦٧، تفسير البغوي ٨/ ٢٦٦، جامع البيان ٢٣/ ١٩.

المشركون: سَاحِرُوا بصاحبكم من شئتم فقد سرى سحره من الأرض إلى السماء، فنزلت القصة في ذلك[1].

وهذا من الآيات العظام والبراهين الكرام على صدقه ونبوته ﷺ.

فإن قيل: ومن أين لكم أن القمر قد انشقّ له كما ادّعيتم؟ أتعلمون ذلك ضرورة أم بدلالة؟ أوَلَيس النظَّام[2] قد شك في هذا وقال: لو كان قد انشقّ لعلم بذلك أهل الغرب والشرق لمشاهدتهم له؟ وهذا شيء سيكون عند قيام الساعة ومن أشراط القيامة، فبأي شيء تردّون قوله وتبيّنون غلطه إن كان قد غَلِط؟

قيل له: ما نعلم ذلك ضرورة ولكن نعلمه بدلالة، فمن استدلّ عرف، ومن لم يستدلّ لم يعرف، ومن قَصُر عن الاستدلال والنظر غلِط كما غلِط إبراهيمُ النظّام.

فوجه الدلالة على ذلك أن رسول الله ﷺ قد احتج بذلك على المسلمين والمشركين وتلا هذا القول عليهم من سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

ولم يكن ليُقْدِم ويحتج على العدو والوليّ بما لا حجّة فيه، ويشير إلى أمر ظاهر يشار إليه ويشاهده الناس، فلو أراد أن يُكَذَّب ويُرَدَّ قوله ما زاد على هذا؛ هذا لا يقع من عاقل ولا يختاره مُحَصِّل كائنا من كان، فكيف يقع ممن يدّعي النبوة

---

(١) أنزل الله في انشقاق القمر سورة القمر وأولها: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾. **عثمان** راجع تفسير الطبري ٢٢/ ٥٦٥، تفسير البغوي ٧/ ٤٢٥، تفسير القرطبي ١٧/ ١٢٧، تفسير ابن كثير ٧/ ٤٧٢.

(٢) هو ابراهيم بن سيار أبو إسحق النظام، احد أئمة المعتزلة المشهورين، انفرد باراء خاصة تابعه فيها فرقة من المعتزلة سميت النظأمية. توفي سنة ٢٣٢هـ. الاعلام ١: ٣٦. **عثمان**

والصدق وهو أشد حرصا بالناس كلهم على تصديقه واتّباعه؟ فلو أراد أن يكذبوه ويردوا قوله ما زاد على هذا، وهذا لا يذهب على متأمل.

فإن قيل: فما تنكرون على من قال: إنه ﷺ ما احتج بهذا على نبوته؟ قيل له: لا فرق بين من ادّعى ذلك أو ادّعى في جميع ما أتى به من القرآن وغيره أنه ما احتج بشيء من ذلك على صدقه ونبوته.

ومما يزيدك علما بذلك ويبين لك غلط النظّام وجهل كل من ذبّ عن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ فانظر كيف قال: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، وأخبر عن أمر قد كان ومضى، ثم قال على نسق الكلام: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، فجاء بأمر قد كان وانقضى ومضى، فنَسَق على الماضي بالماضي، ولو كان على ما ظنّ النظّام لقال: اقتربت الساعة وانشقاقُ القمر، أو كان يقول: وسينشق القمر، فلما لم يقل ذلك وقال: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، علمت أنه أخبر عن شيئين واقعين قد وقعا وكانا وحصلا، ثم قال على نسق الكلام: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ فأخبر أنها آية مرئية وحجة ثابتة. ثم قال على نسق الكلام: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾، وهذا لا يقال فيما لم يقع ولم يكن. فتأمل هذا التقريع والتعنيف لتعلم أنه أمر قد كان، ولا يسوغ أن يقال في أمر لم يكن ولم يقع: هذا القول.

وأيضا: فإن ما يقع في القيامة وعند قيام الساعة لا يكون حجة على المكلفين، ولا يعنّفون في ترك النظر والتأمل له، فإن التكليف حينئذ زائل مرتفع.

أما قول النظّام: فَلِمَ لا يشاهد هذه الآية كل الناس، فليس هذا بلازم، لأن الناس لم يكونوا من هذا على ميعاد وإنما هو شيء حدث ليلا، وما كان عندهم خبر بأنه

سيحدث وسيكون في وقت كذا فينظرونه، وإذا كان كذلك فقد بطل ما ظنه. يزيدك بيانا أن القمر قد ينكسف كله فلا يرى ذلك من الناس إلا الواحد بعد الواحد والنفر اليسير لنومهم، فكيف بانشقاق القمر الذي انشق ثم التأم من ساعته بعد أن رآه أولئك القوم الذين طلبوه.

ومدار الأمر أن يكون هذا أمرا قد كان، وقد ذكرنا الدلالة على كونه، فلا عذر لمن شك فيه.

ومن الدلالة أيضا على أن ذلك قد كان، أن الصحابة بعد رسول الله ﷺ قد تذاكروه فما فيهم من شك ولا ارتاب ولا توقف، بل وقع إجماع منهم على كونه ووقوعه، فلا معتبر بمن جاء بعدهم ممن خالفهم.

وقد ذكر انشقاق القمر علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وجبير بن مطعم، وابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك[١].

وكانوا يقولون: خمس قد مضين: الروم والقمر والدخان والبطشة واللزام[٢]، يتذاكرون هذا بينهم؛ رضي الله عنهم[٣].

وقد ذكرنا ما في العقل من الحجة في ذلك، وهي تَلْزَمُ كل عاقل بلغته الدعوة، سواء كان من المسلمين أو من غيرهم، وفي ذلك أتم كفاية.

---

(١) راجع تفسير الطبري٢٢/ ٥٦٦.

(٢) يقصد بالروم غلبة الفرس على الروم وما أخبر به القرآن من غلبة الروم بعد ذلك في سورة الروم، والقمر حادثة انشقاق القمر الذي ورد في القرآن في سورة القمر، أما الدخان فما ورد حوله في سورة الدخان، وأما البطشة فيقصد بها وقعة بدر لقوله تعالى: «يوم نبطش البطشة الكبرى»، وأما اللِّزام فقد قيل: إن المقصود بها بدر أيضا، وقد ذكر ذلك ابن الأثير في النهاية ٤: ٥٦. **عثمان**

(٣) راجع تفسير الطبري ٢٢/ ٥٦٧.

ثم ذكرنا تذاكر الصحابة بذلك وهي دلالة أخرى، إذ لا يجوز أن يقول عاقل بحضرة جماعة، وقد أقبل على من يحدثه: قد كنا في وقت كذا حتى حدث كذا وكذا وهو يستشهد بالذي حَدَثَ بحضرتهم ويدعي عليهم، وما عندهم علم ـ فيمسكون عن تكذيبه والردّ عليه.

ثم ذكرنا الإجماع السابق من الصحابة ليتأكد ذلك على كل من كان من أهل الصلاة.

***

ما كان بمكة من إنباء الرسول بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، فكان كما أخبر

وذلك أن الفرس غلبت الروم على أرض الجزيرة وهي أدنى أرض الروم وممالِكِها من سلطان فارس، فسرّ ذلك مشركي قريش لأن فارس كانوا مثلهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم مثلهم أصحاب كتاب، فأخبر الله نبيه ﷺ أن الروم ستظهر على فارس بعد سبع سنين، وأَنَّ غَمَّ المسلمين سيعود فرحا، وأنزل بذلك قرآنا يتلى، فقال عز وجل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم ١ ـ ٧].

فلما نزلت هذه الآية تلاها رسول الله ﷺ على أبي بكر الصديق، وبشره وبشر المسلمين؛ فخرج أبو بكر إلى المشركين وأخبرهم بذلك، وتوعدهم وجادلهم

وأغضبهـم وأغاظهـم. فقـال أبـيّ بـن خلـف: والله لا تغلـب الـروم أهـل فـارس ولا تُخْرِجَنَّهـم مـن أرضهـم. فقال أبـو بكر: بـل تغلبهم وتخرجهـم، فإن شـئت بايعتك، فبايعـه علـى تسـع مـن الإبـل إلـى ثـلاث سـنين. ثـم دخل أبـو بكـر على رسـول الله ﷺ فأخبـره الخبـر، فقـال لـه رسـول الله ﷺ: إنهـا سـبع سـنين فـزده فـي الخطـر[1] ومُدّ في الأجل.

فرجـع أبو بكـر إلى أُبَـيّ بن خلف فاسـتقاله فأقالـه، وقال: إن الـذي يجيء به صاحبـك باطـل. فعـاوده أبـو بكـر المبايعة وزاد فـي الأجل أربـع سـنين، وزاد في الخطـر ثلاثـا مـن الإبـل، فلما خشـي أُبـيٌّ أن يخـرج أبـو بكر من مكـة أتـاه فلزمه وقـال: «إنـي أخـاف أن تخـرج من مكـة فأقم لـي كفيـلا» فكفل لـه ابنه، فلمـا أراد أُبَـيّ الخـروج إلـى أُحُـد أتـاه ابـن أبـي بكـر فلزمـه فقـال: «لا والله لا أدعـك حتى تعطيني كفيـلا» فأعطاه كفيلا.

فأخرجت الروم فارس من أرضها يوم الحديبية[2]، فأخذ عبد الله بن أَبي بكر الخطر من ابن أُبَيّ بن خلف، وكان الخطر إذ ذاك مباحا طلقا.

فانظر كم في هذا من دلالة وآية بينة، وأنه أخبر أن الروم ستَغْلِب فارس، وأن ذلك سيكون بعد سبع سنين، فكان كما أخبر وعلى ما فصّل وبيّن. والبضع فوق الثلاث ودون العشر[3]. وانظر إلى هذا الإقدام وهذه الثقة من رسول الله ﷺ،

---

(١) تخاطر: تراهن، والخطر: السَّبَق يتراهن عليه.

(٢) قال القرطبي في التفسير (١٣/ ٧): روي أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر كما في حديث أبي سعيد الخدري من حديث الترمذي، وروي أن ذلك كان يوم الحديبية، وأن الخبر وصل يوم بيعة الرضوان، قاله عكرمة وقتادة.

(٣) راجع جامع البيان للطبري ٢٠/ ٦٦ ـ ٧٢. وتفسر ابن كثير.

وانظر إلى قوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾. وانظر إلى هذا التقريع والتوبيخ وتأكيده الوعد بقوله: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وانظر كيف يستخف بهم ويستجهلهم وهم يسمعون، وهو معهم وفي قبضتهم وفي أيديهم والغلبة لهم، وانظر كيف يقول الله له في آخر السورة: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، فتأمل هذا البيان وهذا الإفصاح وهذه المكاشفة والاستظهار والعلوّ والاستطالة بالحجة.

والعلم بهذا وأنه قد كان على ما ذكرنا وبيّنا يجري مجرى العلم بقصة المهاجرين إلى أرض الحبشة ونظائرها مما قدمنا في قصة الإسراء وغيرها، فاحفظه وارجع إليه.

***

صدق أبي بكر الصديق، ومواقفه العظيمة في الإسلام، وبيان أن غرض أول من طعن فيه وفي إخوانه من المهاجرين والأنصار الطعن في رسول الله ﷺ وفي القرآن وفي الإسلام

وتأمل حال أبي بكر الصديق في الإسلام وإسلامَهُ في أول الإسلام وفي حال ضعفه وقلة أهله وغلبة الشرك والمشركين عليهم، وفي الحال التي قد كان المستبصِر فيها لا يُظْهِر دينه ويخفي ما في نفسه، وانظر إلى بصيرة هذا الرجل ومكاشفته واستبداله بالمسالمة عداوة، وبالراحة شقوةً، وبالغنى فقرا، وبالكرامة هوانا، كل ذلك للإسلام. ثم كان لسان المسلمين وأكبر داعية للرسول وأجلّ أعضاده وأَنْبَهَ أعوانه، لم يقم مقامه أحد من المسلمين ولا سدّ مسدّه ولا حلّ من رسول الله ﷺ محله، وانظر إلى مقامه في شأن الإسراء، وفي شأن الروم، وفي غير

ذلك مما يطول شرحه. وإنما احتجنا إلى ذكر هذا والتنبيه عليه لأننا في زمان يقول الكثير من أهله: إنه ما أسلم قطّ، وما زال عدوا لرسول الله ﷺ وللمسلمين، وإن عداوته كانت أشد وأضر من عداوة أبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأمثالهم، وإن القرآن كان ينزل على رسول الله ﷺ بإكفار أبي بكر وعمر وعثمان وسعدٍ وسعيدٍ وأبي عبيدة وعبد الرحمن[1] والجماعة من المهاجرين والأنصار، وكان رسول الله ﷺ يتلوه في المحاريب ويسمعه الناس كلهم ويُحَفِّظُهم إياه، وإنه مكث نَيِّفًا وعشرين سنة يفعل ذلك.

وعند العلماء والفقهاء وأهل التحصيل والإنصاف، أنه كان يتقدم المسلمين في الإسلام، وأنه كان أشدهم غنى، وأن أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه كان يُقَدِّمه ويُقَدِّمُ عمر على نفسه ويفضلهما على منابره وهما من الأموات، حتى يقول أبو القاسم البلخي[2] ـ وهو ممن يُفَضِّل أمير المؤمنين ـ: «لا يمكننا أن ندفع قوله: (ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر وعمر)، ولا يدفع هذا من له بالعلم بصيرة، أو له فيه نصيب، ولكنه عندنا ما أراد نفسه»، وقد كانت

---

(١) سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة توفي سنة ٥٥هـ. وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي، أحد العشرة المبشرين بالجنة توفي بعد الخمسين من الهجرة، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله الجراح، أحد المبشرين بالجنة وفاتح الشام وأمين الأمة توفي سنة ١٨هـ. وعبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري أحد العشرة المبشرين بالجنة، لعب دورا كبيرا مع رجال الشورى بعد وفاة عمر حتى بايع لعثمان رضي الله عنه بالخلافة توفي سنة ٣٢هـ. **عثمان**

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود، أبو القاسم البلخي أو الكعبي، أحد أئمة المعتزلة، له فرقة تنتسب إليه، وكان يفضل عليا رضي الله عنه. انظر تاريخ بغداد ٩: ٣٨٤، ووفيات الاعيان ١: ٢٥٢، والأعلام ٤: ١٨٩. **عثمان**

الشيعة الأولى تفضل أبا بكر وعمر عليه. قال: «وقال قائل لشَرِيك بن عبد الله[1]: أيهما أفضل؟ أبو بكر أم علي؟ فقال: أبو بكر، فقال له السائل: أتقول هذا وأنت من الشيعة؟ فقال: نعم، إنما الشيعي من قال مثل هذا، والله لقد رقى أمير المؤمنين هذه الأعواد فقال: ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيّها أبو بكر وعمر، أفكنا نردّ قوله؟ أفكنا نكذبه؟ والله ما كان كذابا».

ذكر هذا أبو القاسم البلخي في النقض على ابن الراوندي إغراضه[2]عَلَى أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، في كتابه «في نظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان».[3]

وينبغي أن تعلم أن الذين وضعوا هذا إنما قصدوا به رسول الله ﷺ وأهل بيته لشدة عداوتهم له، وتستروا بالتشيع، وكان غيظهم على أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعة لأنهم هم الذين اشتملوا على رسول الله ﷺ في حياته ونصروه، ثم كانوا بعد وفاته أشد نصرة في دينه منهم في حياته، وأحدقوا ـ أي تلك الجماعة ـ

---

(١) شريك بن عبد الله: هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي، عالم بالحديث وفقيه، ولي القضاء للمنصور العباسي في الكوفة سنة ١٥٣ توفي سنة ١٧٧هـ. تذكرة الحفاظ ١: ٢١٤، وفيات الاعيان ١: ٢٢٥. **عثمان**

(٢) قوله إغراضه: أي تشدده وانتقاده.

(٣) قد ثبت عن علي ابن أبي طالب بالتواتر أنه كان يقول على منبر الكوفة: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر» قال ابن تيمية في منهاج السنة (١/ ٣): هذا القول متواتر عنه كرم الله وجهه، روي عنه من أكثر من ثمانين وجها، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٣٣٤): ثبت عنه بالتواتر أنه قال على منبر الكوفة: «أيها الناس..إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ولوشئت أن أسمي الثالث لسميته». وقدجاء في رواية أخرى، «فنزل وقال: والثالث عثمان».

بأبي بكر فغزا بهم، وقتل مسيلمة، وأسر طليحة، ورد الردة، وغزا فارس والروم، وأذلّ أعداء رسول الله ﷺ بكل مكان.

واستخلف عمر، فأزال ملك فارس وهو أشد الملوك، وأدخل ملكه في الإسلام، وألحق ملوك الروم بجبال الروم وخلجانها، وأخرجهم من الشام ومصر ومن الجزيرة، وأدخل هذه الممالك في الإسلام، وقتل الشرك وأماته وأحيا الإسلام وبثّه ونشره وبسطه وبناه وشيّده وجعله عاليا على الأديان كلها وظاهرا على أمم الشرك جميعها، فغاظهم ذلك أشد الغيظ، ولم يمكنهم المكاشفةُ بشتم رسول الله ﷺ، فاشتَفُوا منه بشتم هؤلاء وغرّوا من لا يعرفهم، وقالوا لهم: ما هذا القرآن بشيء، وهو مغيّر لا تقوم به حجة، والإسلام مبدّل، والفقهاء جهّال كفار، إلى غير ذلك مما هذا سبيله، وشرحه يطول، فاغترّوا بهم وقبِلوا منهم، وصدّوهم عن الإسلام فأوردوهم ما أصدروهم.

* * *

انقضاض الكواكب
على وجه انتقضت به العادة

وذلك أن من أعلامه ﷺ التي حدثت وهو بمكة، انقضاض الكواكب وامتلاء السماء بها من كل جانب على وجه انتقضت به العادة وخرج عن المعتاد، وهذه آية عظيمة، وبيّنة جليلة، وواضحة جسيمة.

وقد نطق القرآن بها فقال حاكيا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1] [الجن: ٨ ـ ٩].

(١) راجع تفسير الطبري ٢٣/ ٦٥٧ ـ ٦٥٨، تفسير ابن كثير ٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

فإن قيل ومن أين لكم هذا وقد سبقكم زمانه ونحن لا نؤمن بكتابكم ولا نقرّ بنبيّكم؟ وخبرونا عن طريق معرفتكم بذلك هل هو ضرورة أم اكتساب؟

قيل له: العلم بذلك طريقه الاستدلال والاكتساب، ويتهيأ لكل عاقل من كافر ومؤمن أن يعرف ذلك، ويجب عليه أن يعرف، وسبيله سهلة قريبة، فمن نظر واستدل عرف، ومن لم يستدل لم يعرف.

والدليل على أن ذلك قد كان، أن رسول الله ﷺ قد تلا هذه السورة واحتج بذلك على العدوّ والوليّ، فعلمنا أنه أَمْر قد كان ووقع، فإن الحجة به قد قامت وظهرت وقهرت، لأنه لا يجوز أن يقصد عاقل إلى قوم يدعوهم إلى صدقه ونبوته، ويحرص في إجابتهم إلى طاعته والانقياد له، ويريد منهم ذلك ثم يقول: من علامة نبوتي ودلائل رسالتي أن النجوم لم تكن تنقض وأنها الآن قد انقضت، وهو يعلم أنهم يعلمون أن هذا أمر لا أصل له وأنه قد كذب فيما ادعى.

هذا لا يقع من عاقل كائنا من كان، فكيف بمن يدعي النبوة، وعقله العقل المعروف الراجح الموصوف، ثم يقصد إلى أمر ظاهر مكشوف في السماء البارزة للخلق أجمعين، المشاهَدَةِ للأولين والآخرين، سيما والعرب أعلم الناس بالكواكب والأنواء ومَطالعها وسيرها، والثابت الراكد الذي لا يغيب منها. وقد كتب الناس عنهم علمهم بذلك، ودونوا منه شيئا كثيرا، وأكثرهم مأواه تحت السماء، هي تَسْقُفُهم، ورؤيتهم لها ولكواكبها أمر دائم متصل لا يفتر، وقد سبقوا رسول الله ﷺ في السن والزمان والعلم بالكواكب، فكيف يُقْدِمُ على قوم هذه سبيلهم، فيدعي هذه الدعوى وهم من العداوة له والطلب لعثراته وزلاته ولأمر يُنَفِّرُون به أصحابه عنه على حال لا مزيد عليها؟ فأين كانوا عن هذا الكذب الظاهر الذي لا ينفع معه صدق يَقْدُمُهُ ولا

صدقٌ يكون بعده؟ ومَن هذه سبيله لا يكون له رئاسة، ولا يتبعه أحد، ولا يكون له قَدْرٌ. وقد اتّبعه قوم عقلاء ألبّاء[1] فضلاء لأنه نبي ولأنه صادق، وطاعة لله وتقربا إلى الله، واستبدلوا باتّباعه بالعز ذُلا وبالراحة كَدّاً ابتغاء مرضات الله، وتكلفوا في إجابته بتلك الشدائد التي قد قدمنا شرحها، فكيف أقاموا عليه وهو يكذب هذا الكذب الظاهر.

وهناك من أعدائه قريش والعرب واليهود والنصارى وكيدهم عظيم، كيف لم يوافقوا على بيان هذا الكذب ويجمعوا الناس عليه؟ وكيف لم يقولوا لأصحابه وهم إخوانهم وأولادهم ومنهم: يا هؤلاء فارقتم أديانكم، وجَهَّلْتُم أسلافكم، وأكفرتم آباءكم وشهدتم عليهم بالفضيحة، طاعة لرجل فرض عليكم مجاهدة الأمم، وبَذْلَ دمائكم وأموالكم في ذلك، وألزمكم التكاليف الشديدة من شريعته، وهو يكذب هذا الكذب الظاهر البارز للعقول والأبصار؟ وفي تركهم لذلك دليل على صحة هذه المعجزة.

وأعجب الأمور أنه يتلو عليهم قول الله جل وعز: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] أي لا يجدون بك كذَّابا، ولا يجدون في قولك كذبا وإن حرصوا على ذلك واستفرغوا وسعهم، ولو قَدَروا أن يجدوا له عَثْرة أو زلة أو أدنى شبهة لما واثبه قبل الناس كلهم إلا أصحابه، ولا قاتله إلا خاصتُه وثقاتُه وبِطانتُه.

فإن قيل: فلعلهم لم يفعلوا هذا به وإن وقفوا على كذبه لئلا يفضحوا أنفسهم ويُشمِتوا عدوهم، ولئلا يقول الناس لهم خُدِعْتُم، فَأَمْسَكوا لهذا.

قيل له: هذا لا يسأل عنه مميِّز، لأنه إن كان قد كَذَب فأقاموا عليه وقد عرفوا

---

(١) ألباء: جمع لبيب. انظر القاموس المحيط. **عثمان**

كذبه، فقد تعجلوا الفضيحة بإقامتهم عليه وأشمتوا بنفوسهم الأعداء، وخسروا الدنيا والآخرة.

وجواب آخر: وهو أن هؤلاء الذين اتبعوا الأعلام التي كانت معه من القرآن وغيره وقد شهدوا على أنفسهم وآبائهم بأنهم كانوا في ضلال وباطل وفضائح، وما استنكفوا من الرجوع عن ذلك، فلو حسوا[1] بأدنى شبهة فضلا عن كذب لبادروا ورجعوا وكان ذلك أروح لهم، وأخف عليهم، وأبين في عذرهم وقيام حجتهم، فإن مراجعة الحق أولى من التمادي في الباطل.

وجواب آخر: وهو أنهم لو وقفوا على أمر يُرْتاب به لسألوه عنه، وعنف بعضهم بعضا في الإقامة عليه وفي ترك قتله والبراءة منه، ولأذاعوه وأظهروه وإن ضرهم وغمهم وساءهم، فإن الجماعة الكبيرة لا يجوز أن تكتم ما قد عرَفَت وإن ساءهم وإن ضرّهم وإن ذهب برئاستهم وحطّ من أقدارهم. فاعرف هذا فإنه أصل كبير. هذا فيما يقفون عليه خاصة، فكيف بأمر الشهب، وهو شيء يعرفه الناس عامة من وليّ وعدوّ، فتعلمُ أنها آية عظيمة وحجة ظاهرة.

وانظر كيف أوردها وأدلّ على العدوّ والولي واستطال بها فقال: ﴿قُلْ أُوحِيَ
إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ
أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا

---

(١) حسست الشيء: أحسسته، وحسست به أيقنت به. انظر القاموس المحيط. **عثمان**

﴿لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن ١ ـ ١٠] فانظر كيف ذكر هولها وعظمتها وارتياع الجن والإنس لحدوثها، وأنهم لا يدرون لأي شيء حدثت، وهل حدوث ذلك لعذاب أهل الأرض بذنوبهم، أم لموعظتهم وإرشادهم.

وقد جاء مع هذا أيضا أن الكواكب لما انقضت أخذ الناس في الخروج من أموالهم، وقالوا: ما حدث هذا إلا لفناء الدنيا وانقضاء مدتها، فقال عبد نائلة بن عمرو الثقفي(١) لأهل ثَقِيف: أمهلوا فإن إفادة المال بعد إتلافه تشق وتصعب، فانظروا إلى الكواكب المنقضّة، فإن كانت من الكواكب المعروفة المتقدمة فهو لفناء الدنيا، وإن كانت كواكب الآن حدثت والآن خلقت فهو لأمر. فحَدَثَتْ إحدى الليالي، فنظروا فإذا هي كواكب الآن حدثت، فأمسكوا عن أموالهم وترقبوا ما يأتيهم من الأخبار، فإذا قد أتاهم أن رجلا من قريش بمكة قد زعم أن الله أرسله إلى خلقه لينذرهم، فقالوا: لعل هذا الانقضاض شاهد لهذا المنذر، وتبركوا برأي هذا الرجل المشير، وصار مفخرا له ولولده من بعده، حتى يقولوا لثَقِيف: أبونا الذي حبس عليكم أموالكم.

***

توعُّد الرسول ﷺ
المشركين بالحرب والهزيمة، فكان الأمر كما أخبر

وذلك أن من آياته بمكة أنه ﷺ لما جمعهم ووعظهم ودعاهم إلى اتّباعه ومفارقة ما هم عليه من ديانات آبائهم ردّوا قوله ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾

(١) انظر ما أورده ابن كثير في تفسير سورة الجن عن هذه الحادثة. **عثمان**

[ص: ٦] وتوعدوه بكثرتهم وعزهم و أموالهم، ووثقوا بذلك، وغرهم ما رأوا من ضعف رسول الله ﷺ ووحدته، وتوعدَهُم رسول الله وهو في تلك الحال، فأنزل الله ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾[1] [ص: ١١] فكان كما أخبر وكانت العقبى له.

فتأمل الأمر في ذلك تجده عظيما لأنه توعدهم بالحرب قبل الحرب، وقبل الجماعة وفي حال الضعف، وهو معهم وفي أسرهم وفي قبضتهم، فبعثهم على قتله واستئصاله، وهيّجهم على بذل المجهود واستفراغ الوسع في مكارهه، وهذا لا يقع من عاقل إلا أن يكون واثقا بالله، ساكنا إلى تنزيله ووحيه.

❊❊❊

إخبار الله تعالى بأن القرآن عِزٌّ ورفعةٌ للرسول ولقومه، فكان كما قال ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

وذلك أنه مما نزل بمكة قوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] [الزخرف: ٤٣ ـ ٤٤]، أي شرف ونبل وجلالة، فهو عِزٌّ ومُعجِز. ثم قال: «وسوف تسألون» أي عن شكر هذه النعمة، فكان كما أخبر وكما فسر، فإن القرآن بانت آياته، وظهرت بيناته، وقامت حجته، وكملت النعمة على رسول الله ﷺ وعلى صحابته به، فشَرُفُوا وعزوا بمكانه، وذلك من الأمور البينة الواضحة؛ فإنك تجد الفقهاء والعلماء قد أجلّوا القرآن ومن قرأ القرآن ومن عرف

---

(١) أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أي في استكبار عن القرآن ومخالفة له ومعاندة سيُهزمون ويُغلبون. وهذه الآية مثل قوله تعالى في سورة القمر (٤٥) ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فكان ذلك يوم بدر.

(٢) قال الراغب في المفردات: وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي شرف لك ولقومك. راجع تفسير الطبري ٢١/ ٦١٠.

علوم القرآن، ولهذا قال عز وجل لقريش في ابتداء المبعث: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧ ـ ٦٨].يريد القرآن، وأنه عِزٌّ ونبل وشرف، وستشرف به أمم ممن تمسك به ودعا إليه، وقد فاتكم أيها المشركون ذلك لإعراضكم، فكان ذلك كما أخبر(١).

وفي هذا المعنى قوله عز وجل ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى ٦ ـ ٧]، فتأمل ما في هذا، فإنه ﷺ ما عرف العزّ بالأبوين كما يعرف من رباه أبواه؛ فإن أباه مات وهو حمل، وماتت أمه وهو صغير، فآواه الله أكرم إيواء، فلما كمل، آتاه النبوةَ وعَصَمَه وصانه، وأخبره أن الآخرة خير له من الأولى، فإن آخر أمره في عاجل الدنيا في النصرة والعزّ، وثواب الآخرة خير من الأولى؛ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، أي ذاهبا عن النبوة لا تدري ما هي ولا تعرف القرآن(٢).

وفي مثل هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح ١ ـ ٤] فإن ذكره ارتفع بالصدق والوفاء وقيام الحجة، فما وجد له أعداؤه كذبة ولا زلة ولا هفوة مع حرصهم على ذلك، وما بارت له حجة، ولا زلّت له قدم، ولا أسكته خصم، مع كثرة الخصوم له، وطلب العلل وطول المجادلة.

***

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢١/ ٢٣٥.

(٢) راجع تفسير الطبري ٢٤/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨، وتفسير البغوي ٨/ ٤٥٦.

من أعلامه التحدي بالقرآن الكريم،
وعجز الناس كلهم عن معارضته

وذلك قوله عز وجل ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] وفي هذا إخبار عن غيوب كثيرة، لأنه قال لكل واحد من الإنس والجن: إنك لا تأتي بمثل هذا القرآن، ولا أحد يأتي بمثله في كل حال منفردين ولا مجتمعين، فما أتوا به مع حاجتهم إلى ذلك وشدة حرصهم عليه، أفمن هذا تعجب؟ أم من إقدامه على الإخبار بذلك وهو لا يعرف العرب كلها ولا يحصي قبائلها ورجالها ونساءها، والفصاحةُ والبلاغةُ مبثوثة في رجالها ونسائها وعبيدها وإمائها وعقلائها ومجانينها، وقد علم ﷺ أنهم في اللغة والبلاغة قَبْلَه، وهو منهم تعلم، وهو عاقل، فلولا أنه قد تيقن أنهم لا يأتون بذلك لما أقدم على الإخبار بذلك، سيما والذي ادّعاه أمر عظيم وخطب جسيم، وهو النبوة والصدق والعصمة ونفاذ أمره في النفوس والأموال ووجوب طاعته على كل أحد إلى أن تقوم الساعة، وحجته في ذلك كله هذا القرآن؛ وهذه من الآيات التي نزلت بمكة، ولو نزلت بالمدينة أو أين نزلت لكانت الحجة بذلك قائمة لا تأثير للأماكن في ذلك ولا للأزمنة، وإنما نذكر الأماكن لأن الأعداء لما أفلسوا وافتضحوا، أخذوا في تشكيك الملوك والمترفين ومن يحب الرّخص ومن لم ينظر ويتأمل ويسمع من العلماء، أن هذا القول إنما قاله في آخر أمره وفي آخر عمره.

***

القرآن حجة من ثلاثة أوجه

واعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه:

فكل سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة.

وهو حجة لما فيه من الإخبار بالغيوب.

وهو حجة لما فيه من التنبيه على دلائل العقول، فإن ذلك جاء على طريقة انتقضت بها العادة.

***

من أعلام نبوته
إخباره عما في الكتب المنزلة السابقة
من أخبار الأنبياء وغيرهم مع أنه
لم يقرأ النبي ﷺ كتابا ولا اختلف إلى أهل الكتاب

من دلائله وأعلامه ﷺ إخباره عما في الكتب المنزلة وما تضمنته من خلق آدم ﷺ، وما كان له مع الملائكة صلوات الله عليهم، ومع ولده، ومع إبليس، وما كان لنوح مع قومه، ثم إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، وموسى، وهرون، وغيرهم من النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف إلى أهلها ولا اختلفوا إليه، فتعلم أنه ما علم ذلك إلا بوحي الله إليه وإطلاعه عليه، وهي أخبار كثيرة لا يقع الصدق فيها إلا بالوحي من الله عز وجل.

فإن قيل: أين لكم أنه ما قرأ الكتب، ولا كان يختلف إلى أهلها ولا اختلفوا إليه وأنتم ما أدركتم زمانه، وقد قال له عدوه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾(1) [الفرقان: ٥]، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

قلنا: ما ادّعينا أن خصومه ما ادّعوا ذلك عليه، وليس دعواهم حجة عليه، بل لما انقطعوا وقامت حجته ادّعوا هذا عليه، ونحن وإن لم نكن في زمانه ﷺ، فقد علمنا أنه ما قرأ هذه الكتب ولا اكتتبها ولا اختلف إلى أهلها، ولا اختلفوا إليه، ولا تلقى ذلك عن أحد من الناس، لأنه ما من أحد يطلب فنا من الفنون إلا وله في ذلك تارات وطبقات ـ أي مراحل ودرجات ـ؛ فأول ذلك أن يكون طالبا وسائلا عمن عنده هذا الأدب وهذا الفن من العلم والأدب، ثم يختلف إلى أهله ويصحبهم، فيكون تارة مبتدئا، ثم متوسطا ثم ماهرا متقدما. وكل هذه الأحوال معروفة معلومة لأهل زمانه، لا يجوز أن يذهب عليهم، ولا يجوز أن يخفى ولا يُكْتَم عن أحد كائنا من كان. فلو كان قد تعاطاه ﷺ ثم اكتتم عليه، لكان ذلك من أكبر آياته وأعظم معجزاته، فإن العادة قد انتقضت به، فقد أعطاه الخصم أكثر مما ادّعى.

---

(١) يقول الله تعالى مخبرا عن سخافة عقول الكفار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ﴾ كذب ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي واستعان على جمعه وتأليفه بقوم آخرين ﴿فقد جاءوا ظلما﴾ أي افتروا قولا باطلا ﴿وَزُورًا﴾ الزور القول الباطل الذي يعلم قائله أنه باطل، أي يعلمون أنهم كاذبون فيما زعموه ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أكاذيبهم المكتوبة عندهم. جمع أسطورة ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ أمر بكتابتها لأنه أمي ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي صباحا ومساء ليحفظها.

ولو جاز أن يخفى ذلك ويستتر في حقِّ أحد من الناس، لما استتر ذلك في محمد ﷺ لأن عدوّه وطالبه والمتتبع لأمره والمفتش عن أحواله من قريش والأقربين من أهله ومن دهاة اليهود والنصارى وغيرهم كثير، والطلب منهم شديد، ودعواه النفسية عظيمة، وقد ادّعى عليهم الفرية والكذب ولنفسه الصدق، وحجته عليهم ألا يكذب في شيء ولا يناقض، ثم إن الذين اتبعوه اتبعوه لأنه نبي وصادق.

وقد عرف عدوُّه ووليُّه منشأه ومتقلبه ومثواه، ومعهم سافر، وبينهم تربى ونشأ، وأزواجه إنما هنّ بنات أعدائه وأوليائه الذين اعتقدوا صدق نبوته، وهن ممن يعتقد صدقه ونبوته، فمَن هذه سبيله، يتعلم الكتابة بالقلم الواحد أو بالأقلام المختلفة، ويكتب ويقرأ، ويختلف إلى أهل هذه اللغات ويصحبهم ويأخذ عنهم، ويستتر ذلك على أهله ونسائه وعدوه ووليه؟ هذا لا يعتقده من تأمل الأمور وتدبرها. بل لو كان ذلك له ﷺ يوما واحدا أو ساعة واحدة، لعلم به الأولون والآخرون للأحوال التي اختص بها مما قدمنا ذكره.

ولا فرق بين من ادّعى هذا عليه، أو ادعى أنه قد كان مرة تهوّد وأظهر اليهوديّة، وخرج فأقام مرة ببابل، ومرة ببيت المقدس، وأنه كان مرة تنصّر ولبس المسوح وأقام في البِيَع، وخرج مرة وأقام ببلاد الروم وصام صوم النصارى وأقام أعيادهم، وكان يحلق وسط رأسه كصنع الرهبان، وأن ذلك كله تم له وخفي على أهله ونسائه وعدوه ووليه.

فتأمل رحمك الله هذه الآية فإنها عظيمة جليلة، ولو لم يكن له إلا هي لكفت وأغنت. وانظر كيف يقول، قصَّ الله تعالى عليه قصة نوح عليه السلام، ثم قال في آخرها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ

﴿ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] وانظر كيف يقول له: إن هذا ليس من علمك ولا من علم قومك، والعدوّ والوليّ يسمع ذلك.

وتأمل قوله عز وجل في قصة يوسف عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ثم عزَّاه وقال له: آياتك بيّنة وحجتك قائمة وإن عصوك، فما هاهنا شبهة في مخالفتك، ولا أمر يصدّ عن اتّباعك، ولَسْتَ أول من قامت حجته فلم يُتَّبَعْ، فقال له: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٣-١٠٥].

وانظر كيف يدِلّ ويستطيل ويصول على العدو والولي بأن هذا إنما ناله بالوحي، وأنه ما قرأ كتابا ولا خطّ، وأنه قد كان في غفلة من هذا فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾[1] [القصص: ٨٦] ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال له في أول سورة يوسف: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ثم يقول في آخر السورة: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وتأمل قوله عز وجل في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ

---

(١) ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ أي تظن ﴿أَن يُلۡقَىٰٓ﴾ يوحى ﴿إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي لكن أُوحِيَ إليك رحمة من ربك بك وبالناس.

ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤ـ٤٦] وانظر إلى هذا الاحتجاج بأنه ما نال هذا ولا عرفه إلا بوحي من الله.

وانظر إلى قوله في سورة طه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]. فتأمل هذا الاستعلاء على العدو والولي بأن من آياته وعلاماته ما في الصحف الأولى.

وكان مما طعن به ابن الراوندي في هذه الآية أن قال: إن كان معرفته بهذا دلالة على نبوته فمعرفة اليهود بذلك دلالة على نبوتهم، وهذا جهل من هذا الأحمق، لأن اليهود قد قرأوا ذلك وكتبوه وأخذوه عن آبائهم وشاهدوه فلا يكون حجة لهم، وهذا ما قرأه ولا كتبه ولا أخذه عنهم ولا عن أحد من الناس كما دلت عليه العقول، فهو حجة عليهم وعلى غيرهم، ولو أن إنسانا ادعى النبوة، وجعل دلالته بأن أخبرك عن كتاب معك ما قرأه ولا وقف عليه وإنما وقفت أنت عليه فيما لا يقع بالاتفاق ولا بالحدس، لكان ذلك دلالة في نبوته ولم يكن دلالة لك، وكذلك إذا أخبرك عما أكلت وشربت وادخرت.

ولكن اشتبه على هذا الملحد لفرط جهله وبعده من التحصيل، ولولا أن الرافضة والنصارى والزنادقة يرون هذا الرجل بعين المحصِّلين لما ذكرنا أسئلته لركاكتها، ولكنه صنف شيئا للمجبرة، وشيئا للرافضة، فسُرُّوا به لنقصهم، وشهدوا له بالحذق لفرط غباوتهم وأنهم لا يعرفون الإسلام وأهله، فمن أظهر لهم التصويب قبلوه لضعفهم وسوء أحوالهم، وقَبِلَه اليهود والنصارى وحَذَّقُوه، لأنه شتم محمدا

رسول الله وأظهر تكذيبه، قد شتم إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسى وهارون ويحيى وعيسى وجميع النبيين صلوات الله عليهم أجمعين وكَذَّبهم، ولكن اليهود والنصارى بلا حجة ولا بصيرة في مخالفتهم المسلمين، فمن عادى محمدا ﷺ تولوه وإن كان عدوا لأنبيائهم، كما لا بصيرة لأهل البدع في الإسلام من المجبرة والرافضة. وهذه السور مثل القصص وهود ويوسف من المكيات، فاعلم ذلك.

***

من أعلام النبوة

إخبار الرسول عن هزيمة المشركين من قريش، فكانت يوم بدر

وذلك أنه كان ﷺ يتوعد قريشا وهو بمكة بنصر الله له وظهوره عليهم، فيقولون: أيظن محمد أنه يغلبنا على مكه بأتباعه الفقراء والعبيد، ونحن الأقوياء الأغنياء، والناس كلهم معنا والرغبة عندنا لا عنده، والبأس والنجدة لنا لا له، فتلا عليهم سورة القمر وما أنزل الله بأمة أمة من الأمم التي يعرفونها إلى أن قال: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[1] [القمر: ٤٣ ـ ٤٥].

فهزمت جموعهم، وكانت العقبى له كما أخبر وفصل، وقد كان في ظاهر الرأي

---

(١) ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ ﴾ أي ممن تقدم ذكرهم في السورة ممن أهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسل، أي أأنتم خير من أولئكم؟ ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ أي أمعكم من الله تعالى عهد وبراءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ أي جمع مجتمع أمرنا أصحاب قوة وبأس وتناصر منتصر على من أرادنا بسوء ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ وليس الأمر على ما يقولون، بل سيهزم جمعهم في أول لقاء وقتال ينشب بينهم وبين المسلمين ـ وهو يوم بدر ـ ويولون الدبر. قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية ويوم بدر سبع سنين.

والحزم وموجب التدبير أن تكون العقبى لهم لا له، وهم الغالبون لا هو، لأنهم واليهود والنصارى وتلك القبائل يد واحدة عليه وفي العداوة له، والكثرة والثروة والبأس والنجدة والكراع والسلاح معهم لا معه، فلن يغلبهم إلا أن يكون من قبل الله ورسولا لله كما أخبر.

***

إخباره بإتمام الله دينه، وبظهوره على الأديان كلها، وبغلبة سلطانه سلطان الملوك والجبابرة، فآل الأمر إلى ما أخبر

وذلك أنه ﷺ قال حين دعا إلى الله وفي حال وحدته وضعفه: إن الله أرسلني ووعدني أن يظهر ديني على الأديان كلها، فيكون سلطاني أقهر من سلطان كسرى وقيصر، فأغلب الملوك، ويعلو مُلْكِي ومُلْكُ أنصاري وأتباعي كلَّ مُلْكٍ في الأرض. ثـم ما رضي بهذا القول حتى جعله كتابا يُقْرأ وقرآنا مخلدا يُتْلى، يعرفه العدو والوليّ فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨]، وقال أيضا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

فكان كما قال وكما أخبر، فلم يرض أن أظهر دينه بالحجة حتى جَعَلَ أهلَهُ العالين بالقدرة والظاهرين بالمَنَعَة والقاهرين الملوك والجبابرة بالعز والملكة. ثم ما رضي حتى أورده على وجه يغيظ ويغضب ويبعث على الممانعة والدفع والمغالبة، وعلى وجه يجعل العدوّ على أهبة، بخلاف تدبير حَزَمَةِ الملوك ودهاة الجبابرة، فأخبر بهذا وديانات العرب قائمة، وملوكهم على جزيرة العرب كلها مستولية،

وهي جزيرة عظيمة فيها عدة ملوك، كل واحد منهم عظيم الشأن، ثم ديانات اليهود وملوكهم، وديانات النصارى والروم وملوكهم بالشام ومصر والمغرب والجزيرة وأرمينية، إلى غير ذلك، وديانات الفرس وممالكها، وهي كانت أعظم ممالك الأرض وأوسعها ملكا وأشدها بأسا، وممالك الهند. فغلب ملوك العرب في جزيرتها، وغلب ملوك اليهود وممالك الفرس كلها، وممالك النصرانية والروم، فلم يبق مَلِكٌ بحيث تناله الحوافر والأخفاف والأقدام إلا أزاله عن ملكه وأخرجه منه، وأسنده إلى عُقاب[1] يَعتصم بها، ومعاقل يأوي إليها، وقلاع ومطامير[2] وخلجان وبحار يمتنعون بها. ثم ركب البحار إليهم، فأخرج الروم من الشام ومصر وأرض المغرب، وهي اليوم في أيدي عدة ملوك، وغلب على أرمينية، وصار ملوكها يؤدون الجزية، وسار الإسلام حتى نزل على القسطنطينية، وهي محصّنة ممنّعة بالبحار والخلجان والجبال والأسوار، فمذ غزاهم خلفاؤه وأصحابه كانوا في ذلة وفي شعاب ورؤوس مضايق قد سخت نفوسهم عن عيون ممالكهم واستسلموا، وكانوا كأعراب يطلبون النجعة، أو كلصوص يطلبون الغِرّة ويطرقون النيام، أو كصعاليك ينتظرون الفتنة بين المسلمين فينتهزون الفرصة، فأما أن يكون مُلْكٌ يظهر لهم ويقيم بإزاء المسلمين ويعاديهم الحرب ويناوئهم كما كان ذلك بين ملوك الفرس والروم وملوك الترك والهند، فلا.

فما ضَربت ملوك الروم وَتِدًا في بلادها فضلا عن بلاد المسلمين منذ غزاهم أصحاب رسول الله ﷺ إلى سني نيف وخمسين وثلثمائة للهجرة في زمن الديلم.

---

(١) العُقاب بالضم: الرابية وكل مرتفع لم يطل جدا. القاموس.

(٢) المطامير جمع مطمورة؛ البيوت تبنى تحت الأرض.

فأما ممالك السند والهند وأصحاب الفِيَلَة والبأس والعز في البر والبحر، فأخذ من ممالكهم في البر وركب إليهم في البحر مما يطول شرحه، فحازه وصار من بلدان الإسلام كموْلتان والمنصورة وغيرها من المدن والأمصار البحرية ما هو معروف، وشرحه يطول، ومن طلبه وجده.

فقد اعتبر العلماء وأهل التحصيل فما وجدوا أحدا جاء مجيء نبينا محمد ﷺ في الوحدة والفقر والفاقة ومنافرة الأمم كلها ومعاداتها، حتى ما اعتصم بمخلوق ولا صوب مَلِكا ولا جبارا كان في زمانه كما تقدم شرح ذلك، ثم صار أمره في القهر والغلبة ما صار أمره إليه. فإن ظاهر الأمر وموجَب التدبير والعقل أن ذلك لا يتم ولا يكون، وأنه هو المغلوب المقهور المقتول إلا أن يكون من قبل الله الذي لا يغلبه شيء. فإن أمره ﷺ كان كريشة دَفَعت الجبال فسيرتها وطيرتها، أو كزجاجة وضعت على الجبال فدكتها وسوتها بالأرض. فتأمل هذه الآية العظيمة، وكلُّ آياته عظام.

***

لَمْ نَقُلْ بنبوة محمد لمجرد أنه قد غلب، بل لأن غَلَبَه قد وقع كما أخبر وأنذر، ونبذة من الشواهد على ذلك

وما قلنا: إنه نبيّ لأن دعوته قامت ودولته اتسعت، ولكن لما قدمنا وشرحنا من وحدته وفقره وتبرُّئِه من الأمم وإكفارهم وإسخاطهم كما قد فسرنا غير مرة، ومجيء ذلك كما قال وأخبر من أنه مع هذه الحالات سيُظْهِره الله عز وجل، وقد علم ذلك من سمع أخباره ودعوته باضطرار، وأنه أخبر بذلك جميعه في أول أمره قبل أن يكون شيء منه، وأن الأمر كان كما أخبر.

ومعروف من سيرته أنه ﷺ كان يعرض نفسه على القبائل وفي المواسم ليتبعوه،

ويشرط عليهم في دعوته عداوة الأمم كلها ومحاربة الملوك، فيقال له: إن الكسور[1] من ملوك الفرس لا ترضى بهذا ولا تصبر عليه ولا نحن من رجال معاداتهم ومعاداة غيرهم من الملوك، فيقول: أرأيتم إن منحكم الله مُلْكَهم وأفرشكم نساءهم أتطيعونه وتعبدونه؟ فيتعجبون من هذا القول، ويقول بعضهم لبعض: ما هذا إلا مجنون[2]، واحدٌ وحده لا يغلب على دار بمكة وقد ناصبه قومه وهو يقول هذا، ويقول بعضهم ما هو إلا عاقل، فإن كان رسولا لله كما قال فسيكون ذلك، فيقال: بمن سيكون هذا؟ وأين خزائن الملوك وعساكرها وغضبها لِمُلْكِها وأنفتها وكبرياؤها ونخوتها حتى تترك هذا يغلبها؟! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[3] [القصص: ٥٧].

***

أمر الردة عقب وفاة الرسول، وقتال أبي بكر للمرتدين مع كثرتهم وقلة المسلمين ثقة منه بوعد الله ووعد رسوله، وظهورُه عليهم

وذلك أنه عليه السلام لما توفي وارتدت العرب، جال أهل مكة جولة، وهمّوا بالردة، فاستخفى عتّاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ على مكة[4]، فقام سهيل بن

(١) الكسور جمع كسرى كأكاسرة.

(٢) راجع البداية و النهاية٣/ ٣٨٨.

(٣) راجع تفسير الطبري ١٩/ ٦٠١، تفيبر القرطبي ١٣/ ٣٠٠.

(٤) هو عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس، من أشراف العرب في صدر الإسلام، أسلم يوم فتح مكة واستعمله النبي عليها عند خروجه إلى حنين سنة ٨هـ. وبقي واليا عليها إلى خلافة عمر، توفي سنة ١٣هـ.

عمرو فيهم خطيبا ونهاهم عن ذلك، فقالوا: إن محمداً قد مات والناس قد رجعوا عن دينه، فقال لهم سهيل: إن كان محمد قد مات فإن الله لم يمت، وقد علمتم أني أكثركم قتبا في برّ وجاريةً في بحر، فأَقِرّوا أميركم، وأنا ضامن إن لم يتم هذا الأمر أن أردّها عليكم جذعة، وإن كنت أعلم أن هذا الدين سيمتد من طلوع الشمس إلى غروبها، قالوا ومن أين علمت؟ قال: إني رأيت رجلا واحدا وحيدا لا مال له ولا عزّ، قام في ظلّ هذا البيت فقال: إني رسول الله، وإني سأظهر، فَكُنّا بين ضاحك وهازل وراجم ومستجهل، فما زال أمره ينمي ويصعد حتى دِنَّا له طوعا وكرها، والله لو كان من عند غير الله لكان ـ أي رسول الله ـ كالكِسرة في يدَيْ أيِّ فتًى من فتيان قريش[١].

وسهيل بن عمرو هو أحد رجال قريش وعقلائها وخطبائها وذو الرأي منها، وهو صاحب القضية يوم الحديبية، وله تلك المناظرة والمجادلة، وكان أحد أعداء رسول الله ﷺ والمجرِّدين في ذلك، وكان إذا تلا رسولُ الله ﷺ القرآن بمكة يقوم خطيبا وكأنّ كلامه يخرج من صدع صخرة، فينثال الناس عليه، وهو القائل وهو على باب عمر مع وجوه قريش وسادات العرب وقَد حُجِبُوا، فخرج آذِنُ عمر فيقول: أين بلال؟ أين عمار؟ أين صهيب؟ فينهض هؤلاء الموالي مكرَمين ويُحجَب أولئك، فرآهم سهيل وقد تمعّرت وجوههم[٢] فقال لهم: مالكم تتمعر وجوهكم، هؤلاء قوم دُعُوا ودُعِينا، فأَسْرعوا وأبطأنا، ولئن غَبَطْتموهم اليومَ بباب عمر، لَـمَا أعدّ الله لهم غَدًا في الجنة أفضل[٣].

---

(١) ذكر نحوه ابن الأثير في الكامل في التاريخ.

(٢) جاء في اللسان: غضب فلان فتمعر لونه ووجهه: تغير وعلته صفرة. **عثمان**

(٣) راجع ترجمته في أسد الغابة.

ولما أبى أبو بكر الصديق قبول الصلاة والجهاد ممن منع الزكاة. قال له أصحاب رسول الله ﷺ: يا خليفة رسول الله، من نقاتل ومن ندع؟ لا طاقة لنا بحرب العرب كلها، اقبل من هؤلاء الصلاة ودع الزكاة، فلعلهم إذا رغبوا في الصلاة أن يرغبوا في الزكاة[1]. حتى إذا فرغوا من قولهم تكلم أبو بكر فقال: الحمد لله الذي هدى فكفى، وخلق فسوّى، وأغنى وأقنى[2]، إن الله جل ثناؤه بعث محمدا ﷺ والإسلامُ[3] غريب شريد قد رث حبله وولّى أهله، ومقت الله أهل الكتاب فلا يعطيهم خيرا ولا يصرف عنهم سوءا حين غيّروا وحرّفوا، والعرب الأميّون صفر من الله[4]، أضلُّهم دينا وأشدُّهم عيشا، فجمعهم الله بمحمد ﷺ، فنصرهم من أنفسهم، ووعدهم بالنصر على عدوهم. فلما تَوَفَّى الله محمدا ﷺ، ركب الشيطان مركبه الذي كان أنزله ـ أي أنزله محمد ـ عنه فأخذ بحبل رقهم ـ أي بحبل ضعفهم أي أتاهم من الناحية التي يضعفون فيها وهي ناحية المال ودفع الزكاة ـ ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقد ارتدّ من حولكم، ومنعوا شاتهم وبعيرهم، ولم يكونوا في دينهم أزهد منهم يومهم هذا، ولم تكونوا في دينكم أرغب من يومكم هذا، والله لا نبرح نقاتل على أمر الله جل وعزّ حتى ينجز الله لنا وعده ويفي لنا بعهده، فَيُقْتَل من قتل منا شهيدا من أهل الجنة، ويبقى من بقي منا خليفة ربّه في أهله، مطيعين متوكلين، قضاءٌ لا خُلْفَ له ﴿**وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟**

---

(١) راجع تاريخ الطبري ٢/ ٢٦٢و٢٥٥، و البداية و النهاية ٧/ ١٨.

(٢) وأقنى: أقناه الله: أرضاه.

(٣) قوله والإسلام غريب...إلخ: يقصد بالإسلام الدين الذي جاء به الأنبياء السابقون.

(٤) قوله صفر من الله: أي خالية من قبل الله ليس عندها من دين الله الحق شيء.

ﭐلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]، وقال الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨]، والله ليُنجِزنّ الله لنا ما وعدنا في كتابه، وليظهرنّ ديننا على جميع الأديان، وليمكننّ لنا في الأرض كما وعدنا في كتابه، وهو اليقين الذي لا خلف له[١].

وقد كانت ردة العرب بعد وفاته عليه السلام بألوان الردة: منهم من ادّعى النبوة، ومنهم من كانت ردته بتعطيل الشريعة كلها، ومنهم من كانت ردته بمنع الزكاة على أن يقيم الصلاة ويجاهد مع المسلمين، فإن لم يُقْبَل منهم ذلك صاروا مع العدو على المسلمين. وأغاروا على المدينة، وزحفوا حتى شارفوا المدينة، وخافهم المسلمون، فسألوا أبا بكر أن يقبل ذلك منهم مدة إلى أن ينكشف ما بالمسلمين، فأبى، فقيل له: ما نراك تنحاش[٢] لما قد بلغ من الناس ولما يتوقع من إغارة العدو. فقال أبو بكر ما دخلني إشفاق من شرّ ولا دخلني في الدين وحشة إلى أحد منذ ليلة الغار، فإن رسول الله حين رأى إشفاقي عليه وعلى الدين قال: «هون عليك أبا بكر، فإن الله قد قضى لهذا الأمر بالنصر والتمام»[٣] فقبلوا منه ورجعوا إلى قوله، وقاتلوا العرب كلها فغلبوهم وقهروهم مع قلة المسلمين وكثرتهم، لتعلم معرفتهم بما أخبرهم به رسول الله ﷺ من الظهور وثقتهم بذلك.

***

(١) راجع البداية والنهاية ٧/ ١٨.

(٢) في القاموس انحاش عنه: نفر وتقبّض، والمراد هنا تخاف وتشفق.

(٣) قال السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٤٠): أخرجه ابن عساكر.

غزو المسلمين فارس والروم بعد وفاة الرسول ﷺ، وما جرى بين ملوكهم وقادتهم وبين رسل المسلمين من المساجلات والمحاورات الغريبة، وغلبة المسلمين مع قلتهم وضعفهم عليهم

فلمّا فرغ أبو بكر من العرب أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ على مشارف فارس والروم أن الله قد وعدكم الفتح، وأن يظهر دينه على كل دين، وأن يستخلفكم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم، والله متم أمره، ومصدق رسوله، ولكن أَخْوَفُ ما أخاف علينا أن يصرف الله ذلك إلى غيرنا لتقصير يكون منّا، فجدّوا وبادروا لتحوزوا ثوابها. ثم قال لهم: إن بلادهم خرسة يعني خراسان، فقد سمعنا رسول الله ﷺ يذكرها ويخبر أنكم ستفتحونها[1].

فذكرها، وهي أقصى ممالك فارس وأوسعها بلادا وأكثرها رجالا وأشدها بأسا.

ولما صار النعمان بن مقرن مع النفر الذين معه من المسلمين إلى يزدجرد ابن شهريار ملك فارس برسالة عمر بن الخطاب يدعونه إلى الإسلام وأداء الجزية أو القتال، فقال لهم يزدجرد: لا أعرف أمة أقلّ ولا أشقى منكم.

ثم ذكر من ذلّة العرب وسوء حالها ما يطول، ثم قال: تقولون لفارس، ومَلِكُها أعزُّ ملوك الأرض، وملوك الأرض كلها تخضع لها: تعطوننا الجزية، يا كلاب، لولا أنكم رسل لقتلتكم، سأتقدم إلى رُستُم، يعني صاحب جيشه، بأن يدفنكم وأميرَكم ـ يعني سعد بن أبي وقاص، وكان سعد نازلا بالعُذيب ـ في خندق القادسية، ثم أرسل

(١) يشير المصنف إلى أحاديث فتح أرض فارس التي رواها الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في السنن الكبرى، وغيرهما.

إلى بلادكم فأستأصلكم وأصنع بكم أشد مما صنعه سابور بكم. وأخذ يتعجب من ضعف أجسامهم ورثاثة سلاحهم وكسوتهم.

فقالوا له: إنا قد فهمنا ما ذكرت أيها الملك من القلة واستطالة الملوك علينا، ولكن الله بعث فينا رجلا منا يدعونا إلى الله، ووصفوا له الإسلام وحال النبي ﷺ ووحدته وفقره، وأنه وعد أن يُغلِبنا ويَغلِب الأمم، فعجبنا من قوله، وتلقيناه بالجهل والرد والتكذيب، فلم تزل مواعيده تصدق، فما أخلف في شيء قاله. وقد وعدنا ممالككم وأرضكم ودياركم، ولن يَخْلُف قولُه، فأجيبوا إلى دينه فإنه دين يُحَسَّنُ فيه الحَسَن ويُقَبَّحُ فيه القبيح، نخلف فيكم كتاب الله فتجاهدون من يليكم فتفوزون، وإلا فالجزية نقبلها منكم عن يد وأنتم صاغرون، فإنكم إن تقاتلوا ينصرنا الله عليكم. فقال: ما تريدون بقولكم عن يد؟ قالوا عن يد منّا عليك في قبولها منك، فازداد غيظه وقال: قوموا يا كلاب عني، وجرى لهم معه ما يطول، وإنما أردنا ذكر ثقتهم بهذا الوعد.

ولما سار رستم بجيوشه إلى سعد بن أبي وقاص وهو في المسلمين، أرسل رستم طلائعه وقال لهم: بادروا، ومن وقع بأيديكم من العرب فأسرعوا به إليّ. فجاءوا برجل من المسلمين، فقال رستم للترجمان: قل له ما جاء بكم إلى بلادنا؟ فقال المسلم: لنأخذ موعود الله، فقال رستم: وما هو؟ قال المسلم: أنفسكم وأموالكم ودياركم، فقال رستم الملك له: يا كلاب، كأنا قد وُضِعْنا في أيديكم؟ فقال له العربي: أعمالكم وضعتكم في أيدينا، إنك لست تحاول البشر وإنما تحاول القدر، فقال له رستم: أما أنت فتقتل الساعة، فقال له المسلم: أنا أقتل فأصير إلى الجنة، ومن بقي من المسلمين يظهر عليكم.

ولما نزل القائد رستم القادسية، أرسل إلى سعد أن أرسل إليّ من يبلغني عنك ويبلغك عني، فأرسل إليه رجلا واحدا، فجلس رستم له على سريره، وأحدق به جنوده وهو في عشرين ومائة ألف في خيول وفيلة وشدة وبأس. فقال رستم للمسلم: قل لي: ما جئتم تطلبون؟ ـ وظن رستم أن المسلمين سيرهبون لما يرون من جنوده ـ فقال له المسلم: إنك لا تسمع مني إلا أن تنزل إليّ أو أصعد إليك، فهاله ذلك منه وهو رجل واحد، فلما صار معه وصف له الإسلام ورغبه فيه، فقال له رستُم: مثلكم معشر العرب مع فارس مثل رجل كان له كَرْمٌ فدخلته الثعالب فتغافل عنها فطمعت فيه، فسدّ عليها المثاغب[1] ثم قتلها عن آخرها وكذا يكون أمركم معنا، وذكر من كان يولونه على العرب وغلبتهم لهم، ثم قال: هاتوا يا أشقياء جِمالَكم هذه نوقرها لكم تمرا وبرّا ونكسوكم فإنكم عراة وترجعون، فهو خير لكم، فإنه لا طاقة لكم بالملوك، وخاصة ملوك فارس. فقال له المسلم مثل قول أصحابه من حال رسول الله ﷺ وكيف كان ابتداؤها وما وعد به، فانصرف.

ثم عاود رستم سعدا فيمن يرسله إليه، فأرسل إليه رجلا واحدا، وكان رث الهيئة واللبسة والسلاح، فسأله رستم عما جئتم له، فوصف له مثل ما وصف أصحابه، وقال مثل ما قالوا، فسأله رستم عن الإسلام، فوصف أصوله وحدوده ـ والترجمان يترجم عنه ـ فأقبل رستم على من حوله من الملوك والقواد والوزراء والأساورة، فقال: ألا ترون إلى حسن ما يصف من هذا الدين، وإلى هؤلاء كيف لا يختلف قولهم مع كثرتهم، فقالوا له: نُعيذك بالله أيها الملك أن تستحسن دين هؤلاء، أما ترى عريهم ووسخهم ورثاثة سلاحهم ولباسهم، فقال لهم رستم: أنتم

---

(١) الثغب هو الأخدود تحتفره المسايل من عل، فإذا أنحطت حفرت أمثال القبور والدبار.

قوم عُنيتم بالملابس والمآكل والمشارب، وعُنُوا بالأحساب[1]، انظروا إلى عقولهم وبصائرهم وصبرهم. وجرى له معهم ـ أي جرى لرستم مع رسل سعد ـ أكثر مما جرى لهم مع الملك الكبير يزدجرد مما يطول شرحه[2].

وهم يذكرون هذا الوعد مع كثرتهم، ولا يختلف قولهم، وكانت الملوك تمتحنهم بمثل هذا لينظروا هل يختلف قولهم، وهل هناك زَلّة أو هفوة لصاحبهم، فتظهر من بعضهم على طول المدة، أو تميل بهم الرغبة إلى عاجل الدنيا مع تعجل السلامة، وهل يَهُولُهم ما يرون من العتاد والعدة وما يسمعونه من التهديد بالقتل، فما وجدوا عندهم شيئا من ذلك، وكانت قرة أعينهم بما آتاهم الله من البصيرة في دينهم، كما قد قال سليمان عليه السلام: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦].

ولقد كتب أمير المؤمنين عمر إلى سعد: سرت في العرب ونزلت على الفرس، ما تنتظر؟ ناجز القوم. فكتب إليه سعد يذكر له عَدَدَ فارس وبأسها وشدتها وعتادها وعدتها، وضعف من معه وقلتهم ورثاثة سلاحهم، فكتب إليه عمر: بهذا وُعِدْنا، قال الله: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] فاشكر الله يا سعد أن سَمِعْتَه بأذنك، ورَأَيْتَه بعينِك، وبَاشَرْتَه بيدك.

وكم كان للمسلمين مثل ذلك مع ملوك الروم بحمص ودمشق وأنطاكية ومصر وغيرها، مما كانت[3] الرسل تقوله لهم عند المجادلة أن نبينا قد وعدنا بظهور دينه

---

(١) الحسب: الكرم وما يعد من المآثر، وإن لم يكن لآبائه شرف، ورجل حسيب كريم بنفسه، وأما المجد والشرف فلا يوصف بهما الشخص إلا إذا كان فيه وفي آبائه. وقال الأزهري: الحسب الشرف الثابت له ولآبائه.

(٢) راجع تاريخ الطبري ٢ من صفحة ٣٨٦ إلى ٤٠٦.

(٣) قوله مما كانت: ما موصولة بيان لمثل ذلك.

على الأديان، وأنه قد أخبرنا وأنذرنا وبشرنا بأمور كثيرة فما أَخْلَفَنا في شيء قط، وما جرى لهم معهم يطول شرحه، وهو مذكور في مواضعه.

وإنما ذكرنا هذا القول لأن من قَطَعَتْهُ هذه الآيات فتحيرّ فلم يجد متعلقا فأخذ يقول فيها عند صحتها: «هذه المواعيد لم تكن في أول الأمر»، وإنما يقال هذا فيمن أخلف مواعيده وظهر كذبه في شيء بعد شيء، فأما من مكث ثلاثين سنة يخبر بما في هذا القرآن، ثم ينحو مثله من الأخبار، فلم يخلف في شيء منه، كيف يقال فيه مثل هذا، ولو كان قد قال هذا القول قبل موته بساعة لما خرج من أن يكون آية ودلالة على نبوته وأنه شيء قد انتقضت العادة به، فإنه ﷺ ما خلف بيوت الأموال ولا مروج[1] الكراع ولا خزائن السلاح، بل مات فقيرا، ومرض وعنده سبعة دنانير، فقال: ما كان يقول محمد لربه لو لقيه وهذه عنده، فقسمها وتصدق بها.

وقد حمى نفسه ونساءه وأهله ووَلَدَهُ عن الدنيا كما هو معروف، وما خلف في أصحابه وعليهم إلا البصائر فقط.

وقد ارتدت العرب بعده إلا مسجدين: مكة والمدينة، فنهض أصحابه بالأمر وليس معهم إلا التقوى والبصائر، وإنما يقول مثل هذا من أن المواعيد لم تكن في أول الأمر من لا يعرف الفرس والروم وقديمها وشدة بأسها وحزمها وضبطها ويسرها وكثرة جنودها وتقادم الملك فيها وضَنَّها بملكها، وحالَ رسول الله ﷺ وسيرتَه وما خَلَّفَه، وكيف كانت حال العرب في المهانة والضعف والقلة عند ملوك الفرس والروم والهند وغيرهم، وشرح ذلك يطول. فما غلبت العرب إلا بالتقوى ولا عزت إلا بالإسلام.

---

(١) المرج أرض ذات نبت ومرعى.

ولقد كانت الفرس تنفذ إلى جزيرة العرب فيما يكرهونه بالرجل الواحد وبالنَّفَر اليسير. وكذا الروم فينفذ أمرهم، ولهذا مزق كسرى أبرويز كتاب النبيّ ﷺ ووجّه باثنين من اليمن في إشخاصه وأخذه إليه. فأما عند الحرب فما كانوا ينفذون إلى الجمع الكبير من العرب إلا بالنفر اليسير، ولقد عجبت العجم والعرب من انكسار السريّة الذين أنفذهم كسرى بسبب النعمان بن المنذر(١) يوم ذي قار، حتى قال النبي ﷺ «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا».

ثم عاد الأمر إلى خلاف ذلك، فكان النفر من أصحاب رسول الله ﷺ يَلْقَون الجمع الكثير، ولقد قال أبو أمامة الباهلي صاحب رسول الله ﷺ في زمن بني أمية وقد رأى لهم رايات وتهويلات: ما تصنعون بهذا ثكلتكم أمهاتكم؟ والله لقد أخذ هذا الملك الذي في أيديكم رجال ما كان لسيوفهم قباع، والله ما كانت مجانّهم إلا برادع جمالهم.

وكان عمر أمير المؤمنين كثيرا ما يقوم في الصحابة خطيبا، فيذكر لهم ما كانت فيه العرب من القلة والذلة والفقر والشقاء وشدة العيش واستطالة الأمم عليها، ثم إلى أي شيء آل أمرها برسول الله ﷺ، ويقول: إنما أقول هذا لكم لأني سمعت الله يقول لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، ويأمرهم بلزوم طاعة الله، فبها غلبوا الأمم وقهروا الملوك، حتى صار مُلكهم أعز من كل مُلك في الأرض، ودينهم أظهر الأديان وأهيبها وأجلها، وإنهم ما لزموا ذلك لا يزالون ظاهرين قاهرين.

* * *

---

(١) النعمان بن المنذر بن الحارث: توفي سنة ٣٨ قبل الهجرة، أمير من أمراء بادية الشام في الجاهلية، نفى الروم أباه إلى القسطنطينية ثم إلى صقلية، فاستوطن هو وأخوه الصحراء يغزو منها مراكز الروم في أطراف الشام، انتهى أمره بأن أَسَرَه قيصر عام ٥٨٤ للميلاد.

تعجب ملوك الفرس والروم
وقادتهم من انهزام جيوشها الكثيرة القوية
أمام جيوش المسلمين القليلة الضعيفة

وكانت ملوك الفرس والروم تعجب من انهزام عساكرها الخشنة الـمُعَدَّة القوية الشديدة من بين أيدي المسلمين، مع قلتهم وضعفهم وقلة آلتهم وسلاحهم، حتى لقد قال رستم الملك لما عبر العتيق[١] لحرب سعد بالقادسية: أين عسكر هؤلاء الكلاب، فقيل له: أشخص بصرك إلى هذه الجهة تره، فقال لما أشخص بصره: أرى سوادا فأين هو من السواد، فقيل له: هو السواد، فعجب وقال: وهذا هو كله؟ قالوا: نعم، قال: وقد بذلنا لهم الصلح فما أجابوا وهذا قدر عسكرهم؟! لا تقتلوهم وادفنوا هؤلاء الكلاب أحياء. قاله استقلالا لهم.

فلما قامت الحرب نزعوا برادع جمالهم يستَخْفون[٢] بها، وقَدّموا ابن أم مكتوم وهو أعمى ومعه رايتهم، فصاروا عنده كالضُّحْكة، والطمع فيهم أشد، واحتقاره لهم أكثر. فلما رأى صبرهم تحير، حتى قال لجواسيسه: يا ويلكم، أيّ ناس هؤلاء، أما يملّون ما هم فيه، أما يطلبون الراحة، أما يشغلهم أكل. قيل: إنهم إذا قاموا من منامهم ابتدؤوا بأكلهم، قال: وما يأكلون، قيل له: مع كل واحد منهم خشبة يأكلها، يعني بذلك السّواك، لأن الجاسوس كان يراهم يستاكون عند القيام من النوم فظن أن ذلك طعامهم، لأن الفرس والروم لا تعرف السّواك[٣].

---

(١) العتيق نهر يخرج من الفرات عليه كانت وقعة للمسلمين مع رستم، وهي الوقعة المعروفة بالقادسية.

(٢) أي يتترسون.

(٣) راجع تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٨.

ولما قدمت منهزمة الروم على هرقل وهو بأنطاكية استعظم انهزامهم، وكان عنده أن المسلمين هم الذين ينهزمون، وأنه يصير إلى المدنية فيستأصلهم، فقال لهم: أخبروني ويلكم عن هؤلاء القوم الذين تقاتلونهم، أليسوا بشرا مثلكم، قالوا: بلى، قال: فأنتم أكثر أم هم، قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافا في كل موطن، قال: فما لكم تنهزمون كلما لقيتموهم، فقال شيخ منهم: من أجل أنهم يقومون بالليل ويصومون بالنهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويتناصفون، ومن أجل أنّا نزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصِبُ ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض. قال: أنت صدقتني.

***

نقل جواسيس الفرس والروم أخبار المسلمين الطيبة لملوكهم وقادتهم، وإخبارهم أن شعوبهم تُفضِّل المسلمين لعدلهم فيهم عليهم

وكانت نصارى العرب بين تَغْلب وتَنُّوخ وبلخ وغَسَّان وغيرها من القبائل تُعِينُ الرومَ والفرسَ على المسلمين، وكانوا ينغمسون في المسلمين لأنهم عرب فيظنهم المسلمون منهم، فيرجعون بأخبارهم إلى الروم، فيحدثونهم عن عسكرهم، وعن أمرائهم ورؤسائهم، كشرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، وخالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح وهو أمير الأمراء، و أنهم لا يَبِينُون من جندهم بشيء، وأن كل واحد منهم هو الذي يقوم على فرسه ويخدم أهل عسكره، وأن الذين في عسكرهم من بني هاشم ـ وهم أهل بيت نبيّهم ـ ورهط أبي بكر وولد عمر في العسكر كضعفاء الناس، لا يَبِينُون من غيرهم بشيء، وأن من سرق قطعوه، ومن قتل قتلوه، ومن افترى جلدوه، ومن كذب أسقطوه وأبعدوه وإن كان ابن نبيّهم أو ابن أميرهم.

وأنهم في الحدود والحقوق سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى في دينهم. وأنهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار. ويحدثونهم بحب النصارى لهم، وتشبثهم بهم، وأنهم أحب إليهم من ملوك النصرانية، وأن أهل حمص بكوا لرحيل أبي عبيدة بن الجراح عنهم لما تكاثرت عليه ملوك الروم، فقيل لأهل حمص: تبكون على هؤلاء وهم أعداؤكم في الدين، والذين يجيئونكم ملوككم و أهل دينكم، فيقولون: هؤلاء أهل الأمانة والوفاء وقول الحق والعمل به، وقد أَمِنَّاهم: ـ فهل سمعتم بمن يأمنُه عدوُّه؟ ـ دماؤنا محقونة، و أموالنا موفورة، وسبلنا آمنة، وأعراضنا مصونة، وأهل ديننا يفتضّون أبكارنا، ويشربون خمورنا، ويأكلون ودوابّهم أقواتَنا وعلفَ مواشينا، ويُسَخِّرُوننا لمعونتهم. فكان سرورهم بملك المسلمين لهم عظيما.

وهكذا كانت رجال الفرس، فإن عمر حين ملكهم أقرّهم على أديانهم و أموالهم، وأخذ الجزية منهم، وفرض على أرضهم القفيز والدرهم(١)، وصدقهم في ادّعائهم، واستعمل عليهم وفي أرضهم وخراجهم حذيفة بن اليمان، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، وعثمان بن حنيف، وأمثالهم، ووصاهم بهم، وحَرَصَ الفرس به أن يستعملهم عليهم(٢) وضمنوا التوفير، وقالوا نحن أعلم بهم، فلم يفعل، فسقط عن الفرس رسوم ملوكهم عليهم من حق النوروز والمهرجان والكسور(٣) والأجور وحق الخزن وغير ذلك، فأيسروا وسمنوا وصاروا كشحم الكُلَى، فأحبّوا الإسلام والمسلمين فما رأوا سوءا، إلى أن كتب زاذان فرّوخ ـ رجل منهم ـ للحجاج فسار بهم سيرة ملوكهم فقالوا: ما زلنا مع المسلمين بخير حتى دخل بيننا وبينهم

---

(١) أنواع من المكاييل

(٢) أي حَرَص رجال من الفرس بعمر أن يستعمل رجالا منهم عليهم.

(٣) لعله يقصد حق الأكاسرة ملوكهم.

رجل منا، فكنا كما يقال: إن فأسا طرح بين شجر فقال بعضهم لبعض: ما لهذه بيننا؟ فقالت شجرة منهن: ما علينا منها بأس ما لم يدخل فيها شيء منّا.

***

تعجب ملوك الفرس والروم
من غلبة سلطان المسلمين الضعيف السيِّء التدبير
على سلطانهم القوي المحكم التدبير

وكانت ملوك الفرس والروم يعجبون من سلطان المسلمين وأنه يقوم بدرّة[1] ومرقعة ويغلب الجبابرةَ و أهل الملك القديم، وأصحاب التدبير والسياسة والترتيب، وأصحاب الكنوز، وأتاهم عن عمر أن كنوزهم تحمل إليه فيقسمها ولا يخزنها. وأن قائلا قال له: يا أمير المؤمنين لو ادّخرت من هذا المال ذخرا ليكون إن كان، فقال له: كلمة ألقاها الشيطان على لسانك، أما إنها لن تضرني ولكنها فتنة لمن بعدي، يُدَّخَرُ لِكَونٍ إن كان تقوى الله وطاعتُه وطاعةُ رسوله، وقَسَّمَ المالَ ولم يقبل منه. وكان يأخذ عماله بإنصاف الناس ورعايتهم وخدمتهم، وأن يعودوا العبيد والضعفاء، إلى غير ذلك مما يطول.

ولما انكشف ملوك الروم من الشام ومصر، واحتجزوا من المسلمين بالمضايق والدروب، أخذوا في مداراته[2] ومراسلاته، وطمعوا في كفه واستعطافه بالرفق، فكانت رسلهم ترد المدينة مع نفر من المسلمين في ثغورهم، فلا يرون له قصرا ولا منزلا يتميز به من سائر الناس، بل يَرَون منازلهم كقامة رجل من جريد النخل،

---

(١) السوط

(٢) أي مداراة عمر.

وربما لم يجدوه في بيته ولا في مسجده، فيسأل المسلمون الذين معهم: أين أمير المؤمنين؟ فيقولون: ها هنا كان آنفا وما ندري أين مضى، فيمشون مع رسل الروم يطلبونه في المدينة فيجدونه وحده في طرف من الأطراف مشغولا بشأن المسلمين، فيقول الروم للمسلمين: هذا الذي أخرج الروم والفرس من ممالكها، لا قَصْرَ له ويمشي وحده حافيا، أما يخاف هؤلاء الملوك؟ فيقول المسلمون لهم: هو أعز على المسلمين من ذلك، فيرجعون إلى ملوكهم بخبره، فيسألون بينهم وفي حكمائهم، هل رأوا وبلغهم أن سلطانا بهذه العزة والغلبة قام بدرّة ومُرَقَّعة، فيقولون: لا، ما سمعنا ولا ظننّا، ولولا أنا رأينا ما صدقنا.

وقد كان يزدجرد بن شهريار ملك فارس قال لرستم صاحب جيشه وقد سأله رستم عن النعمان بن مقرّن[1] والذين كانوا معه وكيف رآهم، فقال له يزدجرد: ما ظننت أن في العرب أمثالهم، ما تقصر عقولهم عن عقول فارس، وجدتهم على بصيرة ويقين من أمرهم، ولقد وُعِدُوا أمرا لا ينتهون عنه أو يبلغوه أو يهلكوا.

ولما ظفر سعد برستم، وهزم جيوش الفرس، صار إلى المدائن، وهرب يزدجرد إلى نهاوند، كان يجاري خواصه، ويكثر تعجُّبُهم من ضعف العرب وغلبهم الجبابرة الأقوياء أهل الملك القديم والتدبير السديد من الروم والفرس، وشدة جرأتهم عليهم وإقدامهم عليهم في وقت واحد، لا يكون لهم عندهم من الهيبة ما يصمدون لـمَلِكٍ مَلِكٍ حتى إذا فرغوا منه تفرغوا لغيرة، بل تفوقوا عليهم كأنهم ملك واحد أو سلطان واحد فأصابوهم، مع سوء التدبير واطراح الحزم خلافا لما

---

(١) النعمان بن مقرّن المزني: صحابي من الشجعان، وهو الذي قدم بشيرا على عمر بفتح القادسية، وهو الذي فتح أصفهان، استشهد في نهاوند في خلافة عمر سنة ٣١هـ.

يفعله حزمة الملوك، فيقول يزدجرد: ما أظن صاحبهم إلا رسولا لله كما ادَّعى، فلو لم يكن من آياته إلا طاعة العرب له وقد كانوا منتشرين يأكل بعضهم بعضا لكفى.

وإنما رماهم يزدجرد بن شهريار بسوء التدبير وسوء الاختيار، لأنهم قصدوا الملوك كلهم، وأثاروا أهل الأرض كلهم على أنفسهم ضربة واحدة، وما هكذا كانت تسير الملوك، بل كانوا يقصدون لبعض الوجوه ويدارون غيرها، ويتقون كل جنبة جنبة منه. هذا قول يزدجرد بن شهريار.

***

إخباره بأن الله تعالى قد كفاه المستهزئين

وهو قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر ٩٤ ـ ٩٥]، وكانت قريش والعرب قد تفرغوا لمكارهه، وأفردوا كل قوم بضرب من مكروهه، كما كانت تفعل اليهود ذلك به في المدينة، فكانت خمسة من مشيخة قريش قد تفرغوا للاستهزاء والمنع في المواسم والمحافل من أن يستمع منه أو يصغى إلى القول منه، وهم: الوليد بن المغيرة المخزوميّ، والعاص بن وائل السهميّ، والأسود بن المطلب الأسديّ، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والحارث بن الطلاطلة[1]، فبلغوا منه في الإذلال، فشكاهم إلى الله عز وجل فأرسل إليه جبريل عليه السلام فقال له: إن الله تعالى قد أمرني بطاعتك فمُرْ فيهم بما أحببت، فاستند إلى الكعبة، فمرّ به الوليد، فأومأ إلى أخمص رجله، وكان قد مر برجل من خزاعة وهو يريش نبلا له، فوطىء على فصل منها، وكان من ذلك مريضا ثم اندمل، فانتقض به عند ذلك ومات. ثم مر به الأسود بن المطلب وبيد النبيّ عليه السلام ورقة خضراء،

---

(١) الطلاطلة: الداهية، وهو اسم أمه.

فرمى بها في وجهه وقال: اللهم أَعْمِ بصره، وأثكله ولده، فعمي بصره وقتل بنوه: زمعة، وعقيل، والحارث بن زمعة. ومر به العاص بن وائل، فأومأ إلى رجله، فركب حمارا يريد الطائف فطرحه الحمار فدخلت في رجله شوكة فمات[1].

في رواية ابن إسحق: ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله[2].

وقد علمنا أنه كان هناك من كان يستهزىء به، وأن قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥] إخبار عن أن الرسول قد كُفِيَهُم، وقد قرأ ذلك عليهم، فعلمنا أن كان هناك مستهزئون وقد كُفِيَهم.

***

إخباره بأن الأرض يرثها الصالحون من عباد الله

وهو قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء ١٠٥ ـ ١٠٧] فورثها أصحاب محمد ﷺ كما قال وكما أخبر، وفيه مع كونه دلالة على نبوة محمد ﷺ موافقة لما في الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء السابقين، أن النبيّ الأخير من ولد إسماعيل بن هاجر بن إبراهيم، القائم من فاران، هو أعز وأعلى وأقهر من جميع النبوات، وأن أتباعه الصالحين يرثون الأرض، ويحيون الحق، ويميتون الباطل، ويذلون الجبابرة كما هو مذكور في الكتب ذكرا تقدم به الحجة عند العلماء، وقد ذكره من أسلم، مثل: عبد الله بن سلام

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) سيرة ابن اسحاق ٢٥٤.

ومن يليه طَبَقةً طبقةً، وللعلماء فيه كتب مفردة، مثل أحمد بن يحيى بن المنجم المعروف بالنديم، ومثل أبي عبد الله محمد بن زيد الواسطي الكاتب، ومثل أبي بكر الزهيري الكاتب، ومثل ابن قتيبه[1]، وغيرهم، فإنهم ذكروا تلك المواضع من تلك الكتب، وما فيها من البشارات والإشارات، فإن أردتها وجدتها، وإن كان معك ما يغنيك عنها.

***

دلالة القرآن على صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى أن الصحابة من المهاجرين والأنصار كانوا من عباد الله الصالحين

وفي هذا أيضا دلالة على صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ وعلى صلاح أتباعهم وشيعهم، فإن الله قد شهد لهم بالصلاح وهم ورثوا الأرض.

فإن قيل: فقد ورثها بعضهم ممن ليس هو في مثل حالهم عندكم، حتى انتهى ذلك إلى القرامطة والروم وأشباههم، ومن يقرب حاله من حالهم، فإنهم قد غلبوا على كثير من الأرض.

قيل له: لو ملكوا الأرض كلها لم يقدح ذلك في هذا العلم ولم يؤثر في هذا الخبر، لأنه ما قال: لا يرثها إلا الصالحون، ولا تخرج من أيدي الصالحين.

ومثله قال موسى لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن

---

(١) أحمد بن يحيى المنجم المتوفى سنة ٣٢٧هـ أديب وشاعر ومتكلم وفقيه. معجم الأدباء: ١٤٦ ومحمد بن زيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦هـ متكلم معتزلي. الفهرست ١: ١٧٢. وأظنه يقصد ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري. المتوفى سنة ٢٧٦هـ. **عثمان**

يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومثله قوله: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقد خرجت من أيدي بني إسرائيل، ومَلَكَها بختنصّرُ وملوكُ الروم وأمثالُهم من الكفرة، وهذا غير مشكل.

وقوله في آخر الآية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يزيدك علما بأن المراد، أن الوارثين للأرض هم أهل دينه والقائمون بشريعته، وهذا خبر وبشرى ووعد، وإخبار الله لا يكذب، ووعده لا خلف له فشهد عز وجل لمن قدّمنا بالصلاح.

وعند الإمامية وطبقات الرافضة أن أبا بكر وعمر وعثمان والبدريين والمهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم وأعانوهم على وراثة الأرض حتى أبادوا الأمم وغلبوا ملوك الفرس والروم والترك وغيرهم من أمم الشرك كانوا كُفّارا مشركين طلاب دنيا لا طلاب دين، وأنهم غيروا القرآن، وعطّلوا النصوص، وبدلوا الشريعة من الطهارة والأذان والصلاة والمواقيت والصوم والمواريث والنكاح والطلاق، ورفعوا ما كان، ووضعوا ما لم يكن، وشهادة الله لهم بخلاف قول هؤلاء فيهم.

وأنت وإن كنت قد عرَّفك الله بعقلك بطلان دعاويهم عليهم فاعرفه أيضا بالسمع، فقد أتاك الله به في غير موضع من القرآن ومن غير القرآن. وفي قوله عز وجل: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف: ٩] دلالة أيضا على طهارتهم وعمق إيمانهم وبراءة ساحتهم، فهم أظهروا الدين، وأخذوا الممالك والأمصار ممن قبلهم، والذين من بعدهم إلى طاعتهم رجعوا، وبأمرهم سفكوا الدماء، وبقولهم أخذوا وأعطوا، فلو كانوا مبطلين لما كان الظاهر هو دين رسول الله ﷺ على الدين كله، بل كان ما ذهب إليه هؤلاء الصحابة ظاهرا، ودين رسول الله ﷺ الذي تدعيه الرافضة

خاملا خفيا ميتا، فإن الذي يقول الإمامية عنه أنه الحجة وأن الحق معه قد كان مغلوبا مقهورا، قد أسكته بزعمهم الخوف عن النطق بالحق والدعاء إلى دين النبي، وألجأه إلى تصديق الكاذبين وتكذيب الصادقين، وموالاة المشركين.

و الذي قرّره هؤلاء الصحابة من الدين والشريعة والقرآن هو الظاهر على الأديان، القائم به الحجة إلى الآن.

فإذًا قد أخلف هذا الوعد من قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فاعلم ذلك، ففيه أتم كفاية.

و هم يقولون: ما ظهر بعد، وإنما يتم ظهوره بقيام صاحب الزمان. وجواب هذا: السكوت عنه والتعجب منه، فإنه ليس مع المكابرة مناظرة.

وقد علم المتأمل كذب من ادّعى أن دين رسول الله ﷺ كان في زمن أبي بكر وعمر وعثمان ذليلا ميتا قد أطفىء نوره وقُلِعت أصولُه، وقد علمنا أن في زمان هؤلاء كسرت الأصنام، وهدمت بيوت النيران وتعطل النوروز والمهرجان وعيد السلامة وعيد الصليب، ولَمّا انضاف إلى ذلك من جميل أفعالهم فقد تيقّنّا أن هذا هو المراد من دين الإسلام، وهو معنى ظهوره.

***

من آياته ما أخبر به من قيام حجته وظهور أمره ودينه على الدين كله

من ذلك قوله تعالى في سورة بني إسرائيل وهي مكية: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ

﴿ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[1] [النمل: ٨٠ ـ ٨١]، فتأمل ما في هذا القول من امتهان الخصم وإذلاله وتهييجه وإغضابه وإثارته والعلو عليه، وأنه مفتضح لا حجة معه ولا حراك به، وهم أشد الناس حرصا على تكذيبه وفضيحته واستئصاله وإطفاء نوره.

ومثله قوله: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[2] أي: قد أخرسهم حقك وأسكتهم وأماتهم فما يَجِدون سبيلا إلى تكذيبك، وهذا أشد على قريش والعرب من ضرب السيوف ووقع السهام، وهم المعروفون بغلظ الأكباد والفرار من العار.

ومثله قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [سبأ: ٤٩]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] فتأمل في هذا فإنه قول مختصر وفيه معان عظيمة، ولقد قال ﷺ: (أوتيت جوامع الكلم واختُصر لي اختصارا).

ولو بلغهم دون هذا عن ملك الصين أو الروم لما صبروا حتى يذبّوا عن مجدهم وينضحوا عن أنفسهم، فكيف عمّن هو معهم وفي قبضتهم ومنهم، وقد ادّعى ما فيه كلُّ الرئاسة والسُّؤدَد، وما ترك شيئا يغيظهم ويغضبهم ويسقط من أقدارهم وأقدار آبائهم إلا وقد أتى به وارتكبه، وألجأهم إلى تكذيبه وإقامة حجة عليه، فما وجدوا إلى ذلك سبيلا.

---

(١) أي ذهب الباطل وزهق واضمحل، كقوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾، ولما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح، وجد الأصنام منصوبة حول الكعبة فجعل يطعنها بسِيَةِ قَوْسِهِ ويقرأ ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾، ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾. رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

(٢) ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي إن الباطل صار بحالة لا يبدئ فعلا ولا يعيده، أي هلك وزهق، والإبداء الفعل ابتداءً، والإعادة الفعل ثانيا، والحي إما أن يبدئ فعلا أو يعيده، وإذا هلك لم يبق له إبداء فعل ولا إعادته، فجعل العرب قولهم: (لا يبدئ ولا يعيد) مثلا في الهلاك.

ولقد كان يبلغهم أن كسرى ملك فارس يُسفِّه أحلام العرب ويستخف عقولهم، فيقلقهم ذاك ويحزنهم، ويرسلون إليه من يستأذنه في النطق بين يديه فيما بلغهم عنه، ولا يصبرون وإن كانوا مقهورين مغلوبين والملوك تتحيّفهم وتسترقهم، وليس أحد يبكي من الهجاء ويحزن من الضيم غير العرب، وسيما قريش، فكيف بهم مع رجل يقيم على هجومهم خمسا وعشرين سنة بكتاب يتلو فيه ليلا ونهارا مثل قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ وقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان ٤٣ ـ ٤٤] ومثل قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ومثل قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومثل هذا كثير، فتأمل تجده، وتأمل ما في هذا من الإدلال[1] بالحق والدعاء إلى البحث والنظر، وعرض ما معه على عقول العقلاء لينظروا فيما أتاهم به، والمبطل لا يفعل هذا.

فتأمل مذاهب النصارى والمجوس فإنهم يمتنعون عن البحث والنظر والتفتيش والقياس، وكذا يصنع الفلاسفة، فإنهم ينهون أصحابهم عن المتكلمين ويقولون: هؤلاء سوفسطائية، ويقتصرون على الرضا عن أنفسهم والعجب بما معهم.

وانظر إلى هذه الطائفة: القرامطة التي قد طبقت الأرض، وفيها الملك، واستهوت الأمم، كيف يُحلِّفون من يجيبهم على كتمان ما يلقونه إليه، وأن لا يخرج

---

(١) الإدلال: الجرأة أي الجرأة بإظهار الحق.

به إلى أحد، ولا يشكو ما به إلى أحد، ولا يعرض ما معه على أحد لينظر ما عنده، هذا مع الملك القاهر والتستر بالإسلام، فتأمل ما في هذا.

***

من أعلام النبوة
أكل الأرضة من صحيفة القطيعة كل موضع فيه ذكر عقوق أو قطيعة

لقد ضاقت قريش ذرعا بما يسمعونه منه ﷺ ليلا ونهارا، ويتربصون به الموت فلا يموت، ويرومون قتله مع وحدته فلا يتم، فأجمعَ رأيُهم على هَجْرِه وهَجْر الأَدْنَيْن من بني هاشم، مؤمنهم وكافرهم، إلا من جرّد في قصده مثل تجريدهم، وتَرْكِ مبايعتهم ومناكحتهم، ومنعهم من ابتياع ما يؤكل ويشرب، والتضييقِ عليهم والإساءة إليهم، وحصرهم في شعب من شعاب مكة، حتى يقتلوا محمدا أو يسلموه إليهم حتى يقتلوه أو يمثلوا به. وتحالفوا على ذلك، وكتبوه في صحيفة علقت في بيت الله الحرام بمكة. فمكث ﷺ ومن معه من أهله في ذلك الشعب أربع سنين متواليات في الحصار الشديد، لا يدخل إليهم ما يتقوّتونه إلا بالحيلة والمسارقة، ولا يقدر أن يخرج منهم إنسان في حاجة إلا عن غفلة من المشركين أو ليلا.

وقد شملهم الخوف فلا يأمنون إلا من موسم إلى موسم، و أهله يتضرعون إليه بأن يلين لقومه من قريش ويمسك عن عيب آلهتهم، ويرجع عن تضليل آبائهم، ويخوفونه فلا يلين، ولا يزداد إلا شدة وصرامة. ثم أخبرهم بعد أربع سنين: إن ربي أوحى إليّ أني قد سلطت الأَرَضَة على الصحيفة التي كتبها المشركون، فأكلت كل موضع منها فيه ذكر عقوق أو قطيعة، وتركت ما سوى ذلك، فقال له عمه أبو طالب ـ وكان كافرا مقيما على دين قريش ـ: يا ابن أخي، انظر ما تقول، فإني لست آمن إن

لم يكن الأمر حقا أن يشتد علينا قومنا ويزيد أذاهم لنا، فقال له رسول الله ﷺ: ما قلت لك إلا حقا، فامض لشأنك.

فنزل أبو طالب وقريش في أنديتها، فلما رأوه قالوا له: نرجو أن تكون يا أبا طالب جئت لصلاح وخير، وأن يكون ابن أخيك قد أقصر عن شأنه وما نكره من أمره، قال أبو طالب: للخير والصلاح جئت.

فلما استقر به مجلسه قال: إن محمدا أخبرني ـ ووالله ما كذب قط قبل أن يقول إن ربه أرسله فكيف الآن ـ أن ربه أوحى إليه في هذه الليلة أنه سلط الأرضة على الصحيفة التي تمالأتم على كتبها علينا فأكلت منها كل موضع فيه ذكر عقوق وقطيعة ومأثم، فانظروا فيما ذكر، فإن كان الأمر على ما قال فعلام تستجيزون ما أنتم عليه.

فأحضرت الصحيفة وفتحت، فوجد الأمر على ما أخبر به النبي ﷺ عن ربه، فخزي المشركون، وفرح المسلمون، وفرّج الله عن بني هاشم، فخرجوا من الحصار الذي كانوا فيه، وعادوا إلى ما كانوا عليه، وكان هذا من الفتوح العظيمة[1].

والأمر في شأن هذه الصحيفة معروف، يعرفه أهل العلم كالعلم بما كتبه رسول الله ﷺ إلى كسرى وإلى قيصر وإلى المقوقس ملك مصر وإلى النجاشي ملك الحبشة، فأهل العلم لا يرتابون بشيء من أمر هذه الصحيفة كما لا يرتابون من الأمور المعروفة مما قدمنا ومن غيره، فاعرف هذا فإنه باب من أعلامه.

***

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧ ـ ٢٩.

الهجرة إلى المدينة
وما احتوت عليه من أعلام النبوة العظيمة الباهرة

لما اشـتد الأمـر بمكة على رسول الله وعلى المؤمنين به استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في الهجرة إلى المدينة، فأذن لهم، غير أبي بكر، فإنه احتبسه لنفسه، وقال له: أقم عليَّ فلعل الله يأذن لي في الهجرة فتكون معي، فأقام.

ولما مات أبو طالب اشتدت قريش على رسول الله ﷺ، وقالوا: إلى كم نصبر على سبِّ محمد لنا ولآبائنا وآلهتنا، وإلى كم لا نناجزه، فإما حبسناه، أو أخرجناه إلى حيث نرى، أو قتلناه، خذوا فيما يريحنا منه، وقدموه ولا تؤخروه.

فاجتمعوا ودخلوا دار الندوة، وكتموا سرهم، ولم يدخل معهم إلا من انتخبوه من ثقاتهم. فقال قائلهم: انظُروا في شأن هذا الرجل، فوالله ليوشكنّ أن يواتيكم في أمركم بمن قد بايعه من أصحابه، وقد تسمعون وعيده، وأنه يملككم ويملك الأرض.

فقال قائل منهم: شدوه وثاقا واحبسوه، فيكون أسيرا في أيديكم إلى أن يموت، وقال بعضهم: أخرجوه من بين أظهركم لتستريحوا منه؛ وقال قائل ليس هذا برأي. حتى قال أبو جهل: فإني أشير برأيي: أرى أن يؤخذ من كل قبيلة غلاما شابا، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما، فيضربونه ضربة رجل واحد حتى يقتلوه، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن بني هاشم يقومون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فوَدَّيْناه لهم(١)، وقطعنا عنا شأفته واسترحنا منه(٢).

---

(١) أي قبلوا أن يأخذوا ديته

(٢) راجع سيرة ابن هشام صفحة ٢ ـ ١٢١ وما بعدها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] فأجمعوا على هذا الرأي، ورسول الله ﷺ لا يعلم ذلك، ولا أحد من المسلمين. فأتاه جبريل فأخبره بما عزموا عليه، وأمره بالهجرة.

ومضى إلى بيت أبي بكر في الهاجرة، وقد كان يأتيه في كل يوم مرة، فأتاه في ذلك اليوم مرتين: في الهاجرة وفي ساعة مبكرة، وخلا بأبي بكر وأخبره بما عزمت عليه قريش، وبما أتاه جبريل به، وقال له: إنّ ربي قد أمرني بالهجرة وأن آخذك معي، فبكى أبو بكر مسرورا.

وقد كان أبو بكر قد أعدّ راحلتين يعلفهما ورق التمر منذ أخبره رسول الله ﷺ بأنه ينتظر أمر ربه في الهجرة. وفي الليلة التي قرر المشركون قتله اجتمع الفتيان ببابه ليقتلوه فخرج الرسول وهم ببابه وهو يتلو: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩] وجعل على رؤوسهم التراب ومضى إلى بيت أبي بكر، فخرجا جميعا ليلا من بيت أبي بكر، وصارا إلى الغار، وطلبته قريش فلم تجده صبيحة ذلك اليوم، وطلبت أبا بكر فلم تجده، فتحرقوا والتهبوا، وهاجوا يطلبونه ويطلبون أبا بكر بمكة وشعابها وجبالها، وجعلوا لمن أتاهم برسول الله ﷺ مائة ناقة، ولمن أتاهم بأبي بكر مائة ناقة، أسيرين أو مقتولين. و قد كان رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه تغشّ هذه الليلة ببردي ونم في مضجعي فإنه لا بأس عليك، ولن يصلوا إليك.

وصار رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار، وسارت قريش في طلبهما ومعهم قائف(١)، فلما انتهوا إلى قريب من الغار انقطع الأثر ورجعوا بدون أن يدخلوا الغار،

---

(١) هو الذي يقتفي الأثر.

وأقاما في الغار ثلاث ليال؛ وفي الليلة الرابعة أتى إلى الغار عبد الله بن أرقط وكان قد استأجره الرسول وأبو بكر هاديا بالطريق ومعه الراحلتان فخرج الركب إلى الطريق.

قال أبو بكر: واتبعنا سراقة بن مالك فبينما نحن في جلد من الأرض[1] إذ به وراءنا، فقلت: يا رسول الله أُتِينا، فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فدعا عليه رسول الله ﷺ فارتطمت فرسه إلى بطنها أذى، فقال: إني قد علمت أنكما دعوتما عليّ فادعوا الله لي، فالله لكما عليَّ أن أردّ عنكما الطلب. فدعا رسول الله ﷺ له، فنجا، فرجع لا يلقى أحدا إلا قال: قد كُفيتم ما هاهنا، ولا يلقى أحدا إلا ردّه.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فقدمنا المدينة ليلا، فتنازعوا أيهم ينزل عليه، فقال رسول الله: أنزل على بني النجار أخوال عبد المطلب، أكرمهم بذلك.

فصعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الخدم والغلمان في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله، جاء محمد، جاء رسول الله.

فهذا من آياته العظيمة الباهرة، قد نطق بذلك القرآن، فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومعجزة الهجرة قد أعاد الله ذكرها، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

(١) أرض جلد: أرض صلبة مستوية المتن.

﴿فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة الآيات ٣٨ ـ ٤٠] فَذَكَّرَ المؤمنين بهذه الآية، وعظم هذه المعجزة، وما احتملت عليه وحوته مع نجاته منهم، وما أغشى أبصارهم حين خرج وهم ينظرونه، وسلامة عليّ رضي الله عنه كما قال له.

وفي الحديث الصحيح أن أبا بكر نظر إلى أقدام المشركين فقال: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما.

وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾، أي: فقد عرفتم نصري له حين هاجرتم وتركتموه مع صاحبه وحيدين، فأَبْطَلْتُ كيد المشركين مع كثرتهم ووحدته، وصدقتُ وعدي بمنعي عنه وعصمتي له، وأكذبت أقاويلهم، وهو معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾.

فتأمل هذا ففيه آيات بينات باهرات، وهذا الخطاب والعذل والاستزادة إنما هي للمؤمنين. ألا تسمع قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وأيضا فلا يجوز أن يقول للعدو: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾.

***

جملة من فضائل أبي بكر في القرآن، وبيان أن غرض أول الطاعنين فيه الطعن في رسول الله ﷺ

ولقد قال العلماء من السلف: إن الله أفرد أبا بكر الصديق بفضل الصبر على جميع المؤمنين من غير تأثيم لهم، كأنه يقول: لو صبرتم مثل صبره ولم تترخصوا لكان ذلك أفضل، فإن أبا بكر يفضل صبره عليهم. وقوله: «لا تحزن» ليس بنهي،

وإنما هو بشرى، كقوله لموسى وهرون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وكقوله لأم موسى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي بالنصر والتأييد، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وأبو بكر في هذا الحزن ممدوح لأنه خاف على رسول الله ﷺ الأذى والعنف من المشركين، فجازاه الله بأن بشره أنه معهما بالنصر والتأييد. قال أهل العلم في قوله: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾، يعني على أبي بكر، فأما النبي ﷺ فقد كانت السكينة عليه قبل ذلك.

ومن حديث عبد الملك بن عمير، عن أسيد بن صفوان، أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال وهو يثني على أبي بكر حين توفي: كنتَ ثاني اثنين، وصاحبه، والمنزل عليه السكينة، ورفيقه في الهجرة والمواطن الكريمة. وقالوا في قوله: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾: إنه أيّد أبا بكر كما يؤيد المؤمنين من غير أن يروهم، وبشره رسول الله ﷺ بذلك فعلمه وتيقنه بتعريفه إياه.

وإنما ذكرنا حال أبي بكر عند ذكر الآية التي هو مذكور فيها لأن الخصوم يسألون عن ذلك، ولحاجتك إليه، ولأن هدف الطاعنين على أبي بكر هو الطعن على رسول الله ﷺ جعلوا الطعن على أبي بكر وأمثاله من المهاجرين والأنصار آكَدَ الطرق إلى تكذيبه، والطعن عليه، والإيحاش منه، والتنفير عنه، وأيسرَها للتشكيك في صدقه ونبوته، وهم: أبو شاكر الديصاني، وأصحابه: الحداد، وأبو عيسى، وابن الراوندي، والحصري، ولكلهم كتب في الطعن على رسول الله ﷺ، وفي نصرة الإمامية وطبقات الرافضة، ولأن الطريق في العلم ببراءة أبي بكر والمهاجرين والأنصار مما رموهم به، كالطريق في العلم ببراءة رسول الله ﷺ مما رموه به.

البشرى برد الله الرسول
إلى مكة بعد هجرته منها

من آياته ﷺ قوله عز وجل لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] ومعاد الرجل بلده، وسمي معادا لأنه ينصرف في البلاد ويضرب في الأرض ثم يعود إليه، وكذلك مثاب الرجل منزله، لأنه يثوب إليه[١]. ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يريد أن الناس يثوبون إليه كل سنة وفي كل حين، أي يعودون للحج والعمرة.

وهذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين خرج من مكة يريد المدينة، فكان لخروجه منها محزونا لمفارقة وطنه، فبشره الله بالظهور والغلبة، وأعلمه أنه يعود إلى مكة، فكان كما قال وكما أخبر.

***

التحدي بالقرآن وعجز الناس كلهم عن معارضته

وهو قوله عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] فما أتوا بمثله مع حاجتهم إليه، فانظر كيف يقطع الشهادة أنهم لا يأتون بمثله، وهذا من التحدي المهيج الذي يغيظ ويغضب، وفي هذا غيوب كثيرة لا يأتي بمثلها حذاق المنجمين ولا يتفق مثلها بالتبخيت ولا بالتخرص[٢].

---

(١) معاد الرجل بلده، ومثاب الرجل منزله.

(٢) التبخيت من البخت بمعنى الحظ والصدفة

فإن قيل: فما تنكرون أن يكونوا قد أتوا بمثله؟

قيل له: لو أتوا بمثله لجاء ذلك مجيء القرآن، ولكان العلم به كالعلم بالقرآن، ولجاء مجيء أمثاله من الأمور التي كانت بينهم وبينه، وما قاله لهم وقالوه له.

فإن قيل: فإن الغلبة والدولة منعت من إظهار ذلك ونشره ونقله والتحدث به لأنه ظهر وقهر في حياته، وقام أبو بكر بعده فقتل مسيلمة، وردّ الردة، وأسر طليحة، وغزا فارس والروم، وأذل أعداء محمد ﷺ في كل مكان، وأسكتهم وأخرسهم، وأعز أولياءه وأهل طاعته، وكذا من أتى بعده من الخلفاء والملوك، وبعدُ، فكيف تنقلون ذلك وتذكرونه وأنتم تكرهونه وفيه بطلان قولكم ودينكم.

قيل له: إنك ما تزيدنا على الدعاوي الخالية من كل حجة، وإذا أثبتنا لك بطلان دعواك الأولى انتقلتَ إلى دعوى أخرى، فإنك قلت في الأول: أتوا بمثله، فقلنا لك: فأين هو وأين العلم به، فانتقلت فادعيت أن الغلبة والدولة منعت من إظهاره ونقله، فدعواك الثانية كالأولى.

على أن دليلنا هذا قد دلّ على أنهم ما أتوا بمثله، ولا بما يقاربه، ولا بما يدانيه، ولا فرق بين من ادّعى هذا أو ادعى أن مائة ألف قد أتوا بمثله، وإنما الدولة قهرتهم ومنعتهم من إظهار ما أتوا به.

على أن الدول والممالك لا تأتي ولا تغطّي على الأمور التي قد كانت ووقعت، ولا يطمع عاقل في كتمان ما هذا سبيله وإن ضره ظهوره، وساءه انتشاره، وأسقط من قدره. ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما ادّعى النبوة، وأكفر الأمم وفرض مجاهدتهم، وأباح دماءهم و أموالهم وحريمهم، قد ساءهم ذلك وضرهم، وأسقط من أقدارهم، وذهب برئاستهم؛ وقد ودوا أن ذلك لم يكن، فما كتموه، ولا طمعوا

في طيّه وتزميله، بل هم تحدثوا بذلك لكل أحد، ونقلوه وعرفوه، وأدوه إلى من لا يسمعه، لأنه ﷺ لم يكن حين ادعى ذلك ودعا إليه له أتباع يخالدون ذلك ويدونونه وينقلونه، وإنما كان يفعل ذلك عدوه.

وتأمل ذلك بالشعر الذي هجي به، ومن هجاه من الشعراء، وما كان لهم معه من ضربه وسبّه وأذيته، ومن قتلوا من أعمامه ومن أصحابه، ومن ادّعى بعده ومعه النبوة، فإن المسلمين قد نقلوا ذلك وخلدوه ودوّنوه وإن غمهم وساءهم.

وانظر إلى الكتب التي صنفت في تكذيبه وفي الطعن عليه وعلى إخوانه من الأنبياء، التي صنفت في دولة الإسلام، وأشد ما كان الإسلام شوكة وغلبة، كالتي عملها الحدّاد والورّاق وابن الراوندي والحصري والكندي والرازي وأمثالهم، وادّعوا أن فيها الحجة والبرهان في إبطال الربوبية وتكذيب الأنبياء. وأنت تراها مبثوثة ظاهرة تباع في أسواق المسلمين، لا يُسْقَطُ منها حرف. والمسلمون كلهم قد كرهوا ذلك وغمّهم، وودّوا أنه لم يكن، وإنما كان يضعها الواحد بعد الواحد مستخفيا خائفا لا يُظهِر ادعاءها، ولا يعلن وضعه لها، بل كان يكتم اسمه ويكني عن ذكره، وإنما يلقيه إلى الواحد بعد الواحد من أمثاله، كما صنع أبو عيسى بكتبه وترجمتها تصنيف الغريب المشرقيّ، وهي من الظهور اليوم على ما ترى، حتى إنها لتبلغ مشارق الأرض ومغاربها. فالعدوّ ينشرها للاحتجاج بها، والمسلمون ينشرونها لنقضها والإجابة عنها. فعلمت أن الدولة والممالك لا تؤثر في العلم بالأمور التي قد كانت ووقعت، وبهذا تعلم أنه ما كان لرسول الله ﷺ زلة ولا هفوة ولا سقطة ولا غدرة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولا أخجله خصم.

***

عجز العرب
عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن

وذلك أنه ﷺ قد علم وتيقن حين تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل عشر سور أو بمثل سورة أنهم لا يأتون بذلك، ولو لم يتيقن ذلك لما تحداهم ولا قال، لأن العاقل لا يقدم على مثل هذا وهو لا يأمن أن يأتوا بمثله فيفتضح وتبطل حجته ويستظهر عليه خصمه ويظهر كذبه وينصرف عنه أصحابه وتبطل رئاسته، سيما والعرب أمم كثيرة، والفصاحة مثبوتة فيهم غالبة على رجالهم ونسائهم وعبيدهم وإمائهم، وهو لا يعرفهم بأعيانهم ولا يحيط علما بأشخاصهم وبشعرائهم وخطبائهم وبلغائهم وفصحائهم، فكان لا يأمن أن يتبتّل له قوم منهم غضبا لأديانهم، وعصبية لآبائهم، وأنفة لأنفسهم، فيأتون بمثل ذلك في الفصاحة والبلاغة، أو بما يقارب ذلك، فيهدمون كل ما بنى، وهو العاقل الحليم الذي لا يدفع عدوه عقله فلم يكن ليخبر أنهم لا يأتون بشيء من ذلك إلا وهو على يقين أنهم لا يأتون بذلك ولا بما يقاربه، فما في الدنيا عاقل تأمل أمره ﷺ إلا وأثمر له الفكر والعلم بذلك.

فإن قيل: قد يقول العاقل في صنعة يدّعيها، أو شجاعة، أو في شدة وقوة وأشباه ذلك: إن أحدا لا يساويني في ذلك ولا يدانيني فيه، وإن كان لا يعلم أن الأمر كما ادّعى ولا يخرجه ذلك من أن يكون عاقلا.

قيل له: لا يسأل عنه وعن أمثاله من تأمل ما قلنا، فإنا لم نقل أنه ليس في الدنيا عاقل ادعى أنه لا يساوى في منزله إلا وهو على يقين من أن الأمر كذلك، وإنما قلنا: إن هذا الرجل ﷺ قد ادعى أعظم الأمور وأجلها، وهو أن الله اصطفاه على العالمين، وجعله وحده منذ أرسله حجة على كل من أدركه وكل من يأتي بعده إلى

يوم القيامة، وأن من خالفه فقد حلّ ماله ودمه وأهله وذريته، وعليه الخزي والغضب من الله في الدنيا والآخرة، وأنه قد وجب على كل عاقل طاعته والانقياد إلى أمره إلى غير ذلك مما ادعاه وفرضه مما يطول ذكره، وأن حجته في ذلك أن الخلق أجمعين لو اجتمعوا واجتهدوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة منه لا يأتون بمثله، وأنهم إن أتوا بذلك فقد بان كذبه وحرمت طاعته ووجبت معصيته وحل دمه ودم كل من صدَّقه، فبهذه الشريطة قلنا ذلك وادّعيناه، وبهذا قد علمنا، لا بما ظنه السائل.

***

حفظ الله لرسوله
وهو في المدينة كما حفظه في مكة

من أعلامه ﷺ أنه لما صار هو وأصحابه في المدينة مشى اليهود إلى الأوس والخزرج وقالوا لهم: لقد جلبتم على أنفسكم باتباع هذا الرجل الضلال والبلاء العاجل بمعاداة الأمم، ولو كنتم يهودا لناظرناكم؛ وقد كان في الأوس والخزرج من قد تهود.

وقالت النصارى لهم مثل ذلك، ورغبوهم في النصرانية، وهددوهم بنصارى العرب وبملوك الروم، وأكثروا في ذلك وهوّلوا، فقال الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة ١٣٥ ـ ١٣٧] فكفاهم الله إياهم كما وعد وكما أخبر، وقد كانوا أشد الناس حرصا على

قتله واستئصاله وبواره، يبذلون في ذلك أموالهم ودماءهم. وقد كانت حاله بالمدينة وإن كان قد صار في جماعة وأنصار قريبا من حاله بمكة، فقد كان يجلس وحده ويمشي وحده، ويدعو به الرجلُ والمرأةُ لحاجة فيمشي مع من دعاه، وقد يكون في بيته وعند أهله وحده، وإنما بيوته ومسجده من جريد النخل وارتفاعها مقدار قامة.

وكانت سبيله في ذلك سبيل خلفائه وأصحابه في البذل والتطرح، وقد قصد العبد المجوسي لقتل عمر فقتله، وقصد ابن ملجم لقتل علي بن أبي طالب فقتله، وقد تحصن عثمان وأخذ حذره وجمع نفسه ومع هذا فقد تسلق عدوّه عليه ودخل من خوخته ونال منه حاجته، وهم الأمراء، فتعلم أن سلامة رسول الله ﷺ من هذه الأشياء، من الآيات العظيمة، سيما وقد قال لعدوّه: إن الله سيَكْفِينِيكُم، وفي هذا تهييج لعدوه على نفسه، وبعث على مكروهه.

وقد كان أهل مكة يبعثون اليهود والنصارى وَمَن بالمدينة على قتل رسول الله ﷺ، ويحرشون بين الأوس والخزرج، ويبعثونهم على من آمن برسول الله ﷺ وعلى من اتبعه، وقد كان اليهود وأعداء رسول الله ﷺ ممن بالمدينة يَرِدُون مكة ويلقون قريشا فيبعثونهم على مكاره رسول الله ﷺ وقتله.

وقد كان لليهود بالمدينة وبالحجاز وبجزيرة العرب عددٌ جمٌّ وقُرًى وحصونٌ، ولهم بأس، ولهم نجدة وخيول وفرسان، وأبطال وفصحاء وشعراء، ولهم ثروة، وفيهم أجواد ويستجار بهم ويجيرون ويمنعون جيرانهم، ويقاومون الملوك ويدفعونهم عن أنفسهم؛ ونصارى العرب أكثر في هذا كله وأقوى وأشد، فاعرف هذا فبك إلى معرفته أمس الحاجة.

***

نصرالله في بدر وما حواه من آيات بينات

من آياته ﷺ ما كان ببدر فإنه يومٌ كانت فيه آيات كثيرة وأظهر الله عز وجل لنبيّه أعلاما عظيمة.

وكان للمشركين من قريش عِير قد أقبلت من الشام فيها أموال وبزّ وأمتعة فاخرة، وخرجت قريش وقد خافت عليها المسلمين في نحو ألف فارس مُعَدّين ومُستعِدِّين ليحموها، ووعد الله المسلمين إحدى الطائفتين: أن يُظفِرهم بهم أو يُغنِمهم إياهم، ووَدّ المسلمون أن تكون هذه الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير، لقلة المسلمين وضعفهم وكثرة المشركين وقوتهم، وكان المسلمون في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا يعتقب العِدَّةُ منهم البعير الواحد، ولا فرس معهم يومئذ إلا فرس المقداد وفرس الزبير، وقد سبقهم العدو إلى الماء، واحتوى على الشعاب، واستظهروا على المسلمين بالماء والمكان، فوافى المسلمون في ضعفهم وقلتهم، فحصلوا على المضايق والخروق[1] من الأرض، ولا ماء لهم، فأنزل الله عليهم الماء فشربوا وسَقَوا ركابَهم وتطهروا، وتوطت الأرض لهم ما كان منها رملا حتى ثبتت أقدامهم عليها، وعند الحرب ألقى الله عليهم النعاس في الوقت الذي لا يكون فيه نعاس ويطير النوم للخوف على النفوس، فطيب قلوبهم وطير خوفهم، وشجع جبنهم، وأرسل إليهم ملائكته فثبتتهم وبشرتهم، وأخذ رسول الله ﷺ كفا من تراب وفيه حصيات فرمى به في وجوههم وقال: شاهت الوجوه، حم، لا ينصروا، فتفرق الحصى في عسكر المشركين وبلغ إلى خلق كثير بخلاف ما جرت به العادة. وقد ورد القرآن بذلك وتفصيله ورودا يشهد عقل كل عاقل ومتأمل ومعتبِر ومُتَفَكِّر أن

---

(١) الخروق: الواسعة.

ذلك قد كان ووقع في قوله في سورة الأنفال إلى قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ١٧].

فانظر كيف يصف لهم أحوالهم وضعفهم وخوفهم وقلّتهم، وما كان قد وعدهم به من الظفر بإحدى الطائفتين قبل اللقاء، وما نَصَرَهُمْ به على ذلك التفصيل.

ولا يجوز أن يقول لهم: قد كنت وعدتكم وقد كنتم كارهين وخائفين ومستضعفين، فأزلت خوفكم، وطيبت نفوسكم، وأنزلت عليكم الماء، وغشيتكم بالنعاس أمنة مني، ونصرتُكم بالملائكة، وهو يعلم أنهم يعلمون أنه كاذب، وأن ذلك لم يكن؛ وهذا القول يسمعه العدو والوليّ، وهو يمتنّ به على أصحابه وأتباعه، ويحتج به على العدو والوليّ، ويصول بذلك ويَدُلُّ ويستطيل؛ هذا لا يقع من عاقل، ولا يتوهمه عاقل تدبر وفكر، فكيف بمن يدعي النبوة والصدق، ويريد من كل

أحد سمع قوله أن يتبعه ويعتقد ذلك منه ويطيعه. وهؤلاء الذين اتبعوه وأطاعوه وبذلوا أموالهم ودماءهم، إنما فعلوا ذلك لما اعتقدوه من نبوته، وعرفوه من صدقه، وتحققوه من قوله.

ففي كل واحد من هذه الآيات ما فيه أتم الحجة بانفراده، فكيف بترادفه واتصال بعضه ببعض، ولو افردت لكل آية بابا وشرحت ما فيها لكان أولى وإن طال، وأنت متى شئت قدرت على ذلك.

وانظر ما في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤١ ـ ٤٤] فتأمل احتجاجه عليهم، وليس يدّعي أن هذا قوله، بل يقول لهم: هذا قول ربي وربكم، وهو الذي كان وعدكم هذه المواعيد وضمن لكم النصر وقد وفى لكم بجميع ذلك.

وانظر إلى حسن تدبير الله سبحانه وتعالى لهم، فإنه ضمن لهم إحدى الطائفتين ولم يقل أيهما هي، وودوا هم أن تكون غير ذات الشوكة، فإنها كانت في عدة من الرجال قليلة، و أموالها كثيرة؛ وكرهوا ذات الشوكة لقوتهم، وكثرة عددهم؛ وأراد الله أن يحق الحق بكلماته التي وعد نبيّه أنه يهزم جموعهم وينصر ضعف المسلمين عليهم. ولو قال لهم: إنكم تلقون ذات الشوكة هالَهم ما عاينوا، إذ هم رجّالة وعدتهم قليلة وأولئك خيّالة وعدتهم كثيرة فخافوا أن يبرزوا فيجول عليهم العدوّ جولة يصطلمهم فيها فأيدهم بذلك النصر، وسلمهم تلك السلامة، فظفروا بعدوهم فقتلوا سبعين وأسروا سبعين وهزموا الباقين.

وتفهم معنى قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] أي بذلك النصر وذلك التأييد وتلك الآيات والمعجزات استوى لكم قتلهم، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] لأنه ﷺ لما رمى بَلَّغَ الله رميته إلى ما لم يكن في وسعه تبليغها وبثها وإيصالها، فما أحد أصابته إلا قتل أو أسر؛ وليس يجوز أن يقول لهم: فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، ومثل ذلك قد يكون وقد يتفق، وكذا في قوله: «وَلكِنَّ اللهَ رَمى» ووليّه وعدوّه يسمع هذا، وهم قد مارسوا الحروب قبله وجربوها وعرفوها وسمعوا بها، ليعلم أن ذلك شيء انتقضت به العادة وكان فيه آيات ومعجزات.

***

تحدي الرسول اليهود بأن يتمنوا الموت، وإخباره بأنهم لا يتمنونه

لما نزل الرسول ﷺ بالمدينة ودعا إلى ربه، وبها وحولها من اليهود خلق كثير، فدعاهم ووعظهم وبين لهم، فرجع الرؤساء والأتباع وتواصوا بالانحراف عنه وبالصدّ وبالقصد له، وكان عددهم كثيرا وشوكتهم شديدة، فمشوا في الأوس والخزرج في الصدّ عنه، ومالوا إلى عبد الله بن أُبيّ بن سَلول، وكان الأوس والخزرج اتفقوا على أن يُمَلِّكُوه عليهم إلى أن جاء الإسلام فانتقض ما عزموا عليه.

وكانت اليهود تدّعي أنها على بصيرة من أمرها، وأن الجنة لها، وأن نعيم الجنة خالص لها، فأخبر الله نبيّه أنهم ليسوا من أمرهم على يقين كما يدعون، وأن رهبتهم لكم شديدة، وأنك إن دعوتهم إلى تمني الموت لا يتمنونه، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

[البقرة ٩٤]. ثم قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾[1] [البقرة ٩٤ ـ ٩٥] إلى آخر القصة. ثم أعاد هذا التقريع والتوبيخ في سورة أخرى وفي زمان آخر فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. ثم قال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة ٦ ـ ٧]، فما تمنوه أبدا مع هذا الاقتضاء والمطالبة التي تُغيظ وتُغْضِب، ومع شدة عداوتهم لرسول الله ﷺ وحرصهم على تكذيبه وفضيحته وزلة تكون منه، وقد بذلوا في ذلك دماءهم وأموالهم وأولادهم وحاربوه وأعانوا عدوه عليه، وتكلفوا كل شدة وكل مشقة في ذلك، وما أقدموا على تمني الموت مع سهولته وقربه، وهو أن يقولوا: ليتنا متنا.

وهذه من الآيات العظام والأعلام الكبار الهائلة الواضحة المكشوفة الباهرة القاهرة التي ما فكر فيها عاقل إلا ملأت قلبه علما بنبوته ﷺ وصدقه، وبهرت عقله، فإنك ما تدري أمن إقدامه ﷺ على الإخبار عنهم بأنهم لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته ومع علمه بشدة حرصهم على تكذيبه وفضيحته تعجب، أم من إحجامهم عن ذلك مع شدة حاجتهم إليه. ولم يقل: هذا من عندي ولا من قولي، بل قال: هذا من قول الله ربي وربكم وإلـٰهي وإلـٰهكم والعالم بسركم وجهركم، فجعله كتابا يقرأ وقرآنا يُتلى، ليكون أشد وأغيظ وأبلغ في الحجة وأظهر في التنبيه، ولتعلم أنه ما قال هذا لهم إلا وهو عالم أنهم لن يتمنوه. وهو أعجب من قوله للعرب: إنكم لا تأتون بمثل هذا القرآن، وهذا مقام لا يقومه مثله مع عقله وعظم دعاويه إلا مع اليقين، لتعلم ثقته بربه جل وعز وسكونه إلى ما يوحى إليه.

وقد تحيرت الملحدة وأعداء رسول الله ﷺ، وتاهت عقولهم عند هذه

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢/ ٣٦٧، وتفسير البغوي ١/ ١٢٣.

الآيـات، فهـم يلعنـون العرب لم لم يأتـوا بمثل هذا القـرآن، واليهود لِـمَ لم يتمنوا المـوت، فيكذبونـه فيسـتريحون ونسـتريح. وهذا يقولـه مثل الحـدّاد وصاحبه أبي عيسـى قبحهم الله.

فمرة يقولون: كانوا جهالا بها، فقيل لهم: ما قد تقدم ذكره من أن من رمى أعداء رسول الله ﷺ من قريش واليهود والنصارى بالجهل والغباء فهو كمن رماه ﷺ بذلك. ومرة يقولون: قد كانوا عقلاء وفطناء ولم يكونوا أهل جَدَلٍ ونظر فيعرفوا مثل هذا. قلنا: لو كانوا مثلكم في النظر والجدل لعميت قلوبهم كما عميت قلوبكم. وبعد فما حاجتهم إلى جدلكم ونظركم ليعرفوا ما دعاهم إليه ﷺ وهم بهذا أعلم الناس، وهو شيء يعرفه الرجال والنساء والصبيان من كل أمة، فإن من استعلى على خصمه بأنه لا يأتي بمثل ما أتى من كتابة أو سباحة أو فصاحة أو خطابة أو شعر فإنه قد عرف الوجه في ذلك، فإن الصبي يقول لقريبه: أنت لا تحسن تكتب كما أكتب، ولا تحسب كما أحسب، ولا تطفر هذا الجدول كما أطفر، فإن خصمه يدري ما أراده منه وبأي شيء قد طالبه، وما الوجه في مغالبته وإكذابه، وكذا تمني الموت قد عرفته اليهود وعرفوا كل أحد منهم ما أراده ﷺ.

فذكر ابن الراوندي أن الوراق كان يقول: إنما لم يتمنوا الموت لأن اليهود والنصارى كانوا يؤمنون بموسى وغيره ممن كان يدعي النبوة، وقد أخبر هؤلاء في كتبهم بنبوة محمد ﷺ، فلم يقدموا على التمني لهذا. فقيل له: فهذا يدل على نبوة أولئك ونبوة محمد جميعا فقد لزمكم القول بكتبهم أجمعين، وأنتم تنكرون ذلك كله. قال: إنما إخبار هؤلاء عن مجيء محمد ﷺ كما يخبر المنجم عن ما يكون. قيل له: ومتى كان مثل هذا في أخبار المنجمين أن يخبروا عن مثل مجيء محمد ﷺ،

وفي أي زمان يجيء، وبأي شيء يجيء، ومن أي بلد يجيء، ومن أي جيل هو، وابن من هو، على التفصيل الذي جاء به، مثل هذا لا يكون في أخبار حذاق المنجمين ولا ما يقاربه ولا ما يدانيه، وإنما يتفق لهم الإصابة في شيء مجمل قليل يسير بعد أن يكذبوا ويخطئوا في ألف شيء، فيتفق ما يتفق لهم من ذلك بطريق التجارب والزجر، كما يتفق للصبيان من الإصابة في إخراج الزوج والفرد وفي اللعب بالخاتم، بل ما يتفق للصبيان في الإصابة أكثر وأسرع وأحسن وأبدع، وكذا ما يتفق للقوابل في أن الحمل ذكرا أو أنثى، وكذا ما يتفق لمن يزجر الطير ويضرب بالحصا، وكذا ما يتفق للمتفائلين بالثعلب والمتطيرين بالبوم ولمن يزجر الطير، فكَذِب المنجِّمين وخطأهم أكثر من كل كبير، وهو شيء لا يستنكر، وهم يعترفون بهذا فيقولون: لا تعجبوا من خطئنا ولكن اعجبوا من صوابنا، وإنما صوابهم كمجنون نطق بحكمة، أو صبي أتى بنادرة، فإن الناس يحفظون ذلك ويعجبون به لأنه أتى من غير معدنه، ولا يحفظون ما يكون من المجانين والصبيان من الجهل والكذب، فكذا ما يكون من المنجم، يخطىء في ألف شيء ويكذب في ألف شيء فلا يحفظ عليه لأن ذلك غير منكر منه، فإذا اتفق له الصواب في شيء واحد تعجبوا وحُفِظ لقِلَّته من مثله ولأنه أتى من غير معدنه. على أن الناس يكذبون للمنجمين ويدّعون لهم ما ليس لهم ولا في صنعتهم، ويضايقون الأنبياء ويتعنَّتونهم.

ثم قال هؤلاء الزنادقة: إنما لم يتمنوا الموت لأنهم لو تمنوه بألسنتهم لقال: إنما عنيت أمنية القلوب، فإن قالوا له: قد تمنينا بقلوبنا، قال لهم: قد أخبرني جبريل أنكم لم تفعلوا ذلك.

قيل لهم: قد حصلوا لنا غير متمنين بألسنتهم، وانتقضت العادة، وقامت الحجة

وظهرت البينة، وحصلتم تُعلِّلون ما لم يكن وما لم يقع، وقد كنتم نسبتم اليهود في تركهم التمني إلى البله، والآن فقد نسبتموهم إلى التمييز والتحصيل وإلى غاية الذكاء والفطنة، ومن هذه مرتبته في الذكاء كانوا ينبغي أن يقولوا للرسول: أنت قلت لنا: لن نتمنى ذلك أبدا، وها قد تمنيناه، وهذا إكذاب لخبرك ظاهر بين. فرجوعك إلى ما في القلوب هو الانقطاع، على أنك قد نفيت التمني منا نفيا عاما لما كان منه باللسان وما كان منه بالقلب، فإذا تمنيناه باللسان فقد أكذبناك وقد أفضحناك وقامت حجتنا عليك، وقولك بعد هذا: إن جبريل أخبرك أنا ما تمنيناه بقلوبنا قدح منك لأنا نحن نقول لك: إن جبريل ما أتاك ولا يأتيك، فكيف يكون دعواك حجة علينا.

فتعلم بهذا بطلان كيد الخصوم في توكلهم لليهود بعد أربعمائة سنة. وبعدُ فكيف لم يقولوا له: أيَّ الأمنيّتين أخبرتَ، إنَّا لا نفعلها، ليبينوا للناس أنه لا حجة عليهم فيما أخبر به عنهم في أنهم لا يتمنون الموت مع حرصهم على تكذيبه وإبطال حجته.

***

إخبار الرسول بِهَمِّ اليهود بإلقاء الحجر عليه لقتله

من آياته ﷺ، أنه مضى ومعه أبو بكر وعمر إلى اليهود في بعض الشأن، فلما جلسوا أرسل اليهود من يُلْقِي عليهم صخرة لتقتلهم، فلما صعد رسول اليهود لذلك أنذره الله عز وجل، فنهض من ساعته وقال لأبي بكر وعمر: قُوما، فإن هؤلاء قد أرسلوا من يلقي علينا ما يقتلنا، فخجل اليهود لذلك.

وفي ذلك يقول الله ممتنًّا عليهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى

ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[1] [المائدة: ١١]، وهي قصة معروفة، فلهذا جاز الامتنان بها، ولا يجوز أن يَمتنَّ ويقول مثل هذا إلا لما هو مشهور معروف عندهم سمعه الوليّ والعدو.

***

إخباره عن موالاة المنافقين لليهود والنصارى، وعن أنهم سيَندمون على ذلك

من آياته ﷺ أن قوما من المنافقين وممن في قلوبهم مرض وضعفُ يقينٍ وقلة بصيرة كانوا يمالئون اليهود ويتودّدون إليهم، فيقال لهم: لا تفعلوا هذا، فيقولون: الصواب لنا ولكل عاقل أن يفعل ذلك، فإنا لا نأمن أن يكون لليهود دولة فيصيبنا منهم دائرة، وهم كثرة ولهم نجدة وبأس وشدة، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] أي من تولاهم فإنه منهم في الكفر لا من المؤمنين، إن الله لا يهدي القوم الظالمين أي لا ينجيهم من العذاب ولا يوصلهم إلى الثواب[2]. ثم قال على نسق الكلام: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ ثم قال: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة ٥٢]، والفتح هو نصر رسول الله ﷺ عليهم وغلبته لهم، فوعده بذلك ثم أنجز له ووفى له، وعسى من الله واجبة الوقوع. فوَاقَعَ رسولُ الله ﷺ اليهود وقائع كثيرة فنصره الله عليهم، وندم أولئك المنافقون في إسراعهم فيهم كما قال وكما أخبر.

---

(١) راجع تفسير الطبري ١٠/ ١٠١، تفسير البغوي ٣/ ٢٨.

(٢) راجع تفسير الطبري ١٠/ ٣٩٨.

وقال المؤمنون حين رأوا غمّ المنافقين بما نزل باليهود وبما آتاه الله من نصر نبيّه ﷺ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ [المائدة: ٥٣].

وفي هذا آيات عظيمة وإخبار بغيوب كثيرة أخبر بها قبل أن تكون على وجه يغيظ ويغضب ويبعث العدو على استفراغ وسعه وبذل مجهوده في تكذيبه وفي إعمال حيله في أن لا يتم ما قال وما أخبر، خلافا لتدبير عقلاء البشر، فإنهم لا يظهرون لعدوهم وجوه مكايدهم لئلا يسبقوهم إليها، ولئلا يتحرروا منها، لتعلم أن هذا تدبير الله الغالب لكل شيء، الذي لا يغلبه شيء، وأن هذا القرآن كلامه وقوله لا كلام أحد من البشر. وكان ميل أولئك المنافقين إلى اليهود، فأنزل الله هذا في اليهود وفي النصارى، ونصر المسلمين عليهم أجمعين، وكانت وقائع المسلمين مع النصارى أكثر، وكان بأس النصارى أشد، وعددهم أكثر، ومدة محاربتهم أطول، فكانت العقبى للمسلمين.

***

إخباره بأن من ارتد من المؤمنين عن دينه أتى الله بمن يغلبه ويقهره

من آياته ﷺ ودلائل نبوته، قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

فأخبرهم أن من ارتد منهم عن دينه أتى الله بمن يغلبه ويقهره، فلما قبض رسول الله ﷺ ارتدّت القبائل الكبيرة من العرب عامة وخاصة على وجوه من الردة كما قد تقدم شرح ذلك، فشمر أبو بكر الصديق لحربهم، وأرسل المهاجرين

والأنصار على قتالهم، وقاموا على ساق، فقهروهم وأذلوهم وغلبوهم، وظهرت كلمة الإسلام فكان العز للمسلمين، وهذا من الآيات العظام، فانظر كيف قال عز وجل لهم بالمواجهة: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولم يقل: من يرتد عن دينه، فكانت عدة تحتمل التسويف بل قال: ﴿مِنكُمْ﴾.

وفي هذا غيوب كثيرة، فإن القبائل التي ارتدت تلك الأنواع من الردة كانت كثيرة، ولها بأس وشدة كما قد تقدم ذكر ذلك.

***

صحة إمامة أبي بكر مؤيدة بالآيات حيث وصفه الله ومن معه بأنهم يحبون الله وأن الله يحبهم

وفي هذا أيضا تأييد لإمامة أبي بكر الصديق، وأنها حق وهدى وصواب ورشاد ودين لله، وقد وصفه الله ومن معه بأنهم يحبون الله وأن الله يحبهم، وأنهم يخضعون ويذلون للمؤمنين وأنهم يستعلون ويشتدون على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون أحدا ولا يراقبون أحدا ولا يهابون في الله مخلوقا، وأن هذا فضل من الله ساقه إليهم وخصهم به، وهذه صفات أعلى المؤمنين درجة عند الله.

فلو لم يَقِفْ مِن غَلَطِ من اتهمهم ورماهم بالريب إلا من هذا الوجه لكفى وأغنى وزاد على الكفاية.

ولو كان أبو بكر رضي الله عنه وأصحابه ارتدّوا وكفروا كما زعم هؤلاء وادعوا لأتى الله بمن يقهرهم ويغلبهم، وإلا كان خبر الله قد كذب وأخلف، وحاشا لأخبار الله أن تكون كذلك.

وعند هؤلاء الزنادقة أن هؤلاء الصحابة قد ارتدّوا، وأنهم أعداء الله وأعداء رسوله، وأن أمير المؤمنين عليا ونفرا كانوا معه على الإسلام كانوا مغلوبين مقهورين مقصودين بالإذلال والمكروه، وأن أبا بكر وعمر وعثمان والمهاجرين والأنصار كانوا يُعِزّون المشركين وأعداء الدين والمرتدين والمبدلين والمغيرين ويذلون المؤمنين، وهذا ضد التنزيل وتكذيب لقول الله فيهم كما قد شرحه الله وبينه في الآية، وأظهره من ضمائر هؤلاء ونياتهم. وعلى ما يقوله الخصم كان ينبغي أن يكون التنزيل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يبغضهم ويبغضونه يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الشيطان﴾ فهذه صفاتهم عند هؤلاء الخصوم، نعوذ بالله من العمى.

***

كان عَلِيٌ على عهد الخلفاء الثلاثة أعز المؤمنين وأحبهم للخلفاء وأشدهم طاعة لهم، وقد كان الخلفاء الثلاثة بطانة رسول الله وخاصته

والذي عند العلماء، أن عليا رضي الله عنه كان في أيام هؤلاء أعز المؤمنين وأجلهم وأعلاهم، نافذ الأمر مسموع القول؛ وبه قام سلطان أبي بكر وبأمثاله من المؤمنين، وقد تولى لأبي بكر أتعاب المدينة، وتولى له أموال رسول الله، وسار معه إلى الربذة وإلى ذي القصة، وغزا معه، وأشار عليه بتلك الآراء، وردّه إلى المدينة وأطاعه حياته وبعد موته، ونفَّذ وصيته في عمر. وكان رضي الله عنه مضرب المثل لأصحابه، وأنه كان في سلطان أبي بكر وعمر أنفذ قولا منه في سلطانه، وأن أولئك كانوا أعرف بحقي منكم، وأني لو كنت الخليفة في زمانهم لكانت طاعتهم إلي

أحسن، وكان يقول لعدوه مثل ذلك، ولقد كتب إلى معاوية يتمنى أولئك الذين مضوا من المهاجرين والأنصار فقال:

لـو أَنَّ عِنْـدِيَ يـا ابـن حَـرْبٍ جَعْفَـرا   أو حَمْـزَةَ اللَّيْـثَ الْهمـامَ الأَزْهَـرَا

أو أَنَّ لِـي صِـدِّيقهـا أو عُمَـرَا   أو مِـن أولاك السـابقين مَعْشَـرا

رأت قريـش نجـم ليلـي ظهـرا

والخصم في زمانك هذا يقول: ما أسلموا قط ولا لهم إسلام، و أنهم ما زالوا أعداء المسلمين.

والـذي يعرفه أهل العلم والتحصيل أنهم كانوا خاصّة رسـول الله ﷺ وبطانته، وأمنـاءه وثقاته على نفسـه و أهله ودينه، وأنه كان يحبهـم ويودهم ويجلهم ويعزهم ويواليهـم، وأنـه قد فـرض محبتهـم وموالاتهم وأوجبهـا على الخلـق أجمعين إلى يـوم القيامـة. والعلـم بهذا قبـل العلم بنبوتـه، وهو كالعلـم بأن عقبة بـن أبي معيط، والعـاص بـن وائـل، والوليـد بـن المغيـرة، والنضر ابـن الحـارث بن كلـدة، وأبي بـن خلـف، وأمية بـن خلـف، وعتبة بـن ربيعة، وشـيبة بن ربيعـة، وأمثالهـم، كانوا أعـداء رسـول الله ﷺ، وأنـه قـد فـرض بغضهـم والبـراءة منهـم إلـى يـوم القيامة. فمـا يُحتـاج فـي هـذا إلى تـلاوة آيـة ولا إلـى روايـة خبـر، وإن كان القـرآن مملوءا بذلـك، والحديـث مسـتفيضا بـه، فـإن فَعَلْتَ ذلـك فمن طريـق الزيادة فـي الحجة والمظاهـرة بالبينة.

***

قصة غزوة أحد، وتحقق وعد الرسول بالنصر يوم أحد، وما اشتمل عليه هذا اليوم من الآيات[1]

من آياته ﷺ، أن قريشا والعرب تجمعوا وأعدوا الخيل والرجال والسلاح وقالوا: نسير إلى محمد فنقتله ونقتل أصحابه ونأخذ بثأرنا يوم بدر. فساروا في ثلاثة آلاف، وقال رسول الله ﷺ نَدَعُهم حتى يَرِدوا المدينة؛ فقال قوم من الأنصار قد أصابوا زروعنا فنخرج إليهم فنلقاهم وراء المدينة، فصار رسول الله ﷺ إلى رأيهم وسار. ثم فكروا وقالوا: نأخذ بما أشار به رسول الله ﷺ ونقاتلهم في المدينة، فقال رسول الله ﷺ: ما كان لي أن ألبس لَأْمَتي[2] فأرجع حتى ألقى العدو.

خرج في سبعمائة وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول وأمثاله ممن في قلبه مرض، فقال رسول الله ﷺ: ستكون فيكم مصيبة، وذاك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن بقرا تنحر فتأوله قتلا في أصحابه، ورأى أن سيفه ذا الفقار قد انفصم، فكان قتل عمه حمزة رضي الله عنه، ورأى أن كبشا أعين قتل فتأوله كبش الكتيبة، فكان عثمان بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين[3].

فلما صاروا بأُحُد والتقَوا مع المشركين عبّأ رسول الله ﷺ أصحابه ورتبهم وقال لهم: إنكم ستهزمونهم، وأقام الرماة من أصحابه في موضع خَافَ أن يدخل المشركون منه فيصيروا خلف العسكر، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: إن رأيتمونا قد هَزَمْناهم حتى بلغنا بهم بموضع بعيد فلا تبرحوا أنتم، فانهزم المشركون كما قال رسول الله ﷺ، ووضع المسلمون فيهم السيف يقتلونهم، ونظر الرماة إلى

---

(١) انظر تفاصيل غزوة أحد سيرة ابن إسحاق صفحة ٣٠١ و ما بعدها، سيرة ابن هشام ٣/ ٢٣ و ما بعدها.

(٢) اللَّأْمَة الدرع والسلاح.

(٣) انظر تفسير الطبري ٧/ ٣٧٣.

الهزيمة فتركوا مراكزهم واتبعوا العدو، واشتغلوا بالغنائم، وثبت أميرهم مع طائفة وقال: والله لا أعصي رسول الله ﷺ، فلما زال الرماة عن مكانهم دخل المشركون وصاروا من ورائهم، ونادى مناديهم بصوت عال: قتل محمد، وقتل ابن أبي قحافة، وقتل ابن الخطاب.

وانصرف عبد الله بن أبيّ بن سلول بمن معه، وانهزم المسلمون، وبقي رسول الله ﷺ مع نفر يسير، فما برح وما برحوا مع قلتهم وكثرة المشركين، منهم أبو بكر وعمر وعلي وطلحة وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ونفر من الأنصار.

وأقبل أبو سفيان بأصحابه نحو الجبل الذي فيه رسول الله ﷺ والنفر الذين معه، فصرفهم ـ أي المشركين ـ اللهُ فلم يقدموا عليهم، فنادى أين ابن أبي كبشة؟ يعني رسول الله، أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فما أجابه أحد فقال أبو سفيان: قتل هؤلاء، فقال عمر: يا رسول الله ألا أجيبه، فقال: أجبه، فقال أبو سفيان: اعلُ هُبَل، فقال عمر: الله أعلى وأجل، قال أبو سفيان: لنا العزّى ولا عزّى لكم، فقال عمر: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: الأيام دول، والحرب سجال، وأُحُد ببدر، وحنظلة بحنظلة، يعني ابنه حنظلة الذي قتل في بدر بحنظلة غَسِيل الملائكة من شهداء أحد، فقال له عمر: ولا سواء، قتلانا في الجنة يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون، فقال أبو سفيان: يا ابن الخطاب أسألك عن شيء فأخبرني، فقال: قل، فقال: أما أنت فحيّ، سألتك بالله أمحمد حيّ وابن أبي قحافة حيّ؟ قال: نعم، ورسول الله يسمع كلامك ولك منه ما تكره، فقال أنت أصدق، فإن ابن قَمِئَة أخبرني أنه قتل[1].

---

(١) هو عبد الله بن قَمِئَة الليثي: جرح وَجْنَة الرسول في أحد فدخلت حلقتان من حلق الدروع في وجنته، وانظر لهذه المحاورة سيرة ابن هشام ٣: ٩٣ ـ ٩٤. **عثمان**

فقال النبي ﷺ: اللهم أَقْمِئْه - أي أذلَّه - في الدنيا قبل الآخرة، فاعتقل عنزا ليحلبها فنطحته فمات[1].

وفي هذه الوقعة يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي تقتلونهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ إلى آخر القصة [آل عمران: ١٥٢].

فتعلم أنه لا يسوغ ولا يجوز أن يقول رئيس قوم لهم: قد كنت وعدتكم أن تقتلوهم وقد صدقتكم فيما وعدتكم وأريتكم ما تحبون ثم عصيتم أمري وخالفتم وصيتي، وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذب في جميع ذلك، فكيف بمن يدّعي النبوة والصدق في جميع ما يقوله ويخبر به.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ إلى قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني بالذين يريدون الدنيا أولئك الذين أَخْلَوا المراكزَ واشتغلوا بالغنيمة ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢ - ١٥٤].

---

(١) أخرج الطبراني في معجمه الكبير (٧٥٩٦) عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قَمِئَة بحجر يوم أحد، فشجَّه في وجهه، وكسر رباعيته، وقال خذها وأنا ابن قَمِئَة، فقال له رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «ما لك، أقمأك الله». فسلَّط الله عليه تَيْسَ جبلٍ لا تيسَ، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعةً قطعةً.

وهذه أيضا من الآيات بأحد، فإن النعاس غشيهم كما غشيهم ببدر، في الموضع الذي يطير فيه النعاس.

والّذي يدلّك على كونه امتنان الله عليهم به أنه لا يجوز أن يمتن عليهم بذلك والعدو والوليّ يسمع هذا الامتنان، وهو أمر لا أصل له، وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذبهم في ذلك. إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾، وقال لنبيّه عليه السلام: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فأمره بالاستغفار لهم وأن يعود لهم إلى حالهم في مشاورتهم، فإن المشورة فيما لم ينزل به قرآن مستحبة حسنة. والذين أشاروا من الأنصار على رسول الله ﷺ بأن تكون الحرب خارج المدينة كان لهم أن يشيروا بذلك، وكان لرسول الله ﷺ أن يأخذ برأيهم.

ولقد اجتهد أعداء عثمان في أن يجدوا له عيبا فما قدروا عليه مع طول المخاطبة، فقال له قائل منهم: أنت ممن تولى يوم أحد فقال له عثمان: فلم تعيرني بذنب قد غفره الله، أما سمعت قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ إلى آخر الآية.

وفكِّر في معنى قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] أي بذنبكم وتقصيركم وترككم الموضع الذي قال لكم نبيكم ﷺ: سنهزمهم فلا تتركوا مركزكم ولا تمسوا غنائمهم حتى تفرغوا. وقد كانوا يوم بدر قتلوا سبعين وأسروا سبعين، فلهذا قال لهم: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ لأن القتلى من المسلمين كانوا يوم أحد سبعين. فتأمل ما تقرأ وأطل الفكر فيه تقف على المراد به، فإن الذكر للقصة بأُحُد

من قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فتأمل طول هذه المراجعة والمواقفة للمؤمنين على الوفاء بما ضمنه لهم، وعلى الصدق فيما أخبرهم، وفيما كان من تقصيرهم، فكم فيه من آيات ودلالات.

وانظر إلى هذا الإدلال بالحق والاستطالة على العدوّ والولي بالحجة حتى ما يستطيع العدو المكاشَف أن يدفع شيئا من ذلك.

وانظر إلى المواقفة والمناظرة التي كانت بين عمر وبين أبي سفيان، هل قدر أبو سفيان وأصحابه وهم يناظرون المسلمين من عسكرهم أن يقولوا: إن محمدا كذبنا في كذا وأخلف في كذا وكيف تطيعونه وتفارقون أديانكم وبلدانكم وتقتلون أنفسكم لرجل هذه سبيله وما أشبه ذلك، وهذا موضع حاجتهم إلى ما هذه سبيله.

وانظر إلى أهل الردة على طبقاتهم، فقد كانوا أشد الناس عداوة لأبي بكر وقد نال منهم كل منال وقتلهم كل قتلة، فما استطاع أحد منهم أن يقول له: وأنت فقد بدلت دين محمد ونقضت عهوده فكيف أنكرت علينا ما صنعنا، ولِمَ تقتلنا لأنا منعنا الزكاة، وهذا موضع حاجتهم إليه وحجتهم عليه، ولتعلم أنه لم يكن فيه مغمز كما لم يكن في رسول الله ﷺ.

ولما رجع المشركون من أحد وصاروا بالروحاء[1]، أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وأنهم صاروا في عسكر عظيم وهم لا يشكون في أنهم يقتلون رسول الله ﷺ ويستأصلون الإسلام، فخاب أملهم واختلفت أقوالهم وقالوا: لا محمدا قتلتم ولا كواعب أردفتم، فبئس ما صنعتم.

---

(١) ()اسم مكان. معجم البلدان ٣: ٧٦

وقد كان أبو سفيان نادى أصحاب رسول الله ﷺ قبل انصرافه من أحد: ما بيننا وبينكم موسم بدر الصغرى نلتقي بها، فقال النبي ﷺ لمن كان يجيبه من الصحابة: قل نعم إن شاء الله، فلما حضر الوقت تعذر على أبي سفيان الخروج للوعد أو كرهه، فأتى نعيمَ بنَ مسعود فقال له: إني واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى وقد بدا لي أن لا أفعل، وأكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة، ولَأَنْ يكون الخلف من قبلهم أحبّ إليّ، فلك عشرة من الإبل إن حَبَسْتَهُم عني. فقدم نعيم على أصحاب رسول الله ﷺ وهم مجهزون، فجعل يثبطهم ويخوفهم، ويذكر أن أبا سفيان قد جمع لهم الجمع الكبير، وأنهم إن خرجوا لم يفلت منهم أحد. وجعل يريهم النصح لهم والإشفاق عليهم، فما قبلوا وبادروا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرجوا وتخلف أبو سفيان عن الوعد وفيهم نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٣].

فتأمل خيبة المشركين وخُلْفَ أقوالهم وحيرتهم مع كثرتهم، وصدق جميع ما وعدهم رسول الله ﷺ، وجرأة المسلمين مع قلتهم وفقرهم وشدة الأمر عليهم.

* * *

احتجاجه على النصارى بأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، ودعوتهم إلى المباهلة، وانصرافهم عنها وقبولهم الجزية

من أعلامه ﷺ، أن نصارى نجران وغيرهم من النصارى دعاهم إلى الإسلام فقالوا: أسلمنا قبلك، فكذبهم في قولهم بأنهم قالوا: لله ولد، وعظّموا الصليب،

وأكلوا الخنزير. فقال شيخ منهم كبير فيهم: من أبو عيسى؟ فسكت النبي ﷺ، وكان لا يعجل حتى يأمره الله، فأنزل الله عز وجل ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران ٥٩ ـ ٦٢] فقرأ رسول الله ﷺ عليهم ذلك، ثم دعاهم إلى المباهلة، وأخذ بيد الحسن والحسين وعليّ وفاطمة رضوان الله عليهم، فقال واحد منهم لمن معه من النصارى: أنصف الرجل، وتشاوروا، وقال قائل منهم: إنه لصادق، ولئن باهلتموه لتُحرَقُنّ.

فقالوا له: لا نبارزك، وكرهوا الإسلام، وأقروا بالجزية، وسألوه أن يقبلها منهم فأجابهم إلى ذلك، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو باهلونا[1] لأضرم الله عليهم الوادي نارا، فرضوا بالجزية وانصرفوا بالخزي[2].

فانظر إلى هذا الاحتجاج في أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، احتجاجُ غيرِ متكلِّف ولا متعمِّل ولا مُخالِطٍ للمتكلمين، ولا هو في بلدٍ الجدلُ صنعتُهم. فأشار لك بهذه الإشارة التي هي من جوامع العلم ومفاتيح الحكمة كما قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي اختصارا» فإن خلق آدم من أكبر الحجج على النصارى، وخلقه أبدع، لأنه خلق من غير ذكر ولا أنثى، وأكمل الله له قوته وأداته وعقله وتمييزه ضربة واحدة، وتولى الله عز وجل مناجاتَه وتأديبه وتعليمه بنفسه دون كل أحد من خلقه.

وعلى كل حال فالمسيح قد تقلب في الحشا كالأطفال، وخرج من الفرج،

---

(١) انظر تفصيل هذه المباهلة في سيرة ابن هشام ٢: ٥٧٣

(٢) انظر تفسير الطبري ٦/ من صفحة ٤٧٦ إلى ٤٨٢.

وكانت أمه تحتاج إلى آية في أنه مولود من غير ذكر، وقد خلق الله حواء من آدم، وقد خلق الملائكة من غير تناسل ولا أكلوا ولا شربوا ولا بالوا ولا تغوطوا، وليس كذلك المسيح، فإن سبيله في ذلك سبيل سائر الناس.

وقد ذكر أجناس الحيوان التي خلقها الله من غير ذكر ومن غير أنثى وبغير تناسل في الكتاب المعروف «بالمصباح»، وخلقُ الدودةِ والذبابةِ في الحجة كخلق الفيل، فإن المخلوقين لا يتأتى منهم إنشاء قلامة ظفر ولا إحياء دودة، بل إحياء الدودة أبدع من إحياء الفيل، كما أن نظم الخردل أبدع من نظم الحنظل. هذا.

وقد بيَّن الله دلالة العقل، في أن الولد لا يتخذه الحكيم إلا للعز والرفد وبقاءًا للذكر، فإذا كانت الحاجات منتفية عن الله عز وجل علمنا أن اتخاذ الولد لا يجوز منه، فقال عز وجل: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨].

***

من دلائل التوحيد

وقد تبين أيضا من طريق العقل أنه لا كفء له ولا إلٰه معه، فقال عز وجل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ فليس مع التضادّ نظام ولا مع الشركة استقامة.

ولما قالوا له ﷺ: كَفَّرْتَ أهل الكتاب من النصارى ومشركي العرب، بأيّة ما آية يا محمد جعلت الإلٰه واحدا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فقدم الدعوى، ثم أتبعه بأدلة العقل فقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ

بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فتبيَّن أنه لو كان هاهنا آلهة أُخَرَ لقدّم هذا الإلـٰه ما أخره الآخر وأخر ما قدمه، وسوّد ما بيضه وبيض ما سوده، لأنه ليس بمحال أن تنبت اللحى للنساء وأن يكون ابتداء نبات اللحى أبيض أو أخضر كالحصرم، أو أصفر كالزعفران، وأن تلد النساء كأولاد الأنعام وتلد الأنعام كأولاد النساء، وأن يكون ماء البحر عذبا فراتا وأن يكون ماء دجلة ملحا أجاجا، وأن يولد المولود كامل العقل والقوى والأدوات، كاسيا كيِّسًا كالفَرُّوج، عالما بالصنائع من غير تعلم ولا تمرين كفرخ الإوَزّ وعِلمِه بالسباحة حين يخرج من بيضته، وكعلم دود القز والعنكبوت بالنسج والنحل ببناء البيوت، كل هذا ممكن، فلما جاء ذلك على طريق واحدة فلا ينتقضُ بما نبهت عليه(١)، علمت وتيقنت أنه لا إلـٰه إلا هو، وأنه المعتز بالقدم فلا قديم إلا هو، وأن كل موجود ليس هو الله فكائن بعد أن لم يكن.

فإن قيل: فما ينكر أن يكون هناك آلهة جماعة إلا أنها قد وكلت التدبير إلى واحد منها فجرى تدبيره على طريقة واحدة.

قيل له: هذا خلاف ما يعقل وخلاف ما أخرجت العبرة في أن الجماعة لا يتفقون في المشيئة والإرادة والتقدير والتدبير أبدا على طريقة واحدة، وهي جعل الأمر كله جليله وحقيره الى واحد منهم.

***

---

(١) أي بأن يقدم هذا ما أخره ذاك...إلخ.

الإلـه لا يكون محتاجا

وقد بين أيضا بحجة العقل أن الإلـٰه لا يكون محتاجا، فقال عز وجل: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فقال: أنتم ترون حاجته وحاجة أمه وفقرهما وضعفَهما، وحاجتهما الى الطعام والخلاء، فكيف يكون من هذه سبيله إلـٰها؟ فإن كان عندكم إلـٰها بكون الآيات ظهرت على يديه، فقد خلت من قبله رسل كانت لهم آيات ومعجزات عظيمة كثيرة، ثم قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، فقد كان المسيح لا يدفع عن نفسه الحاجات والآفات فكيف يملك لكم؟.

***

بيان أن قول النصارى بالأقانيم
والتثليث والاتحاد مأخوذ من ملاحدة فلاسفة الإغريق،
وبيان جهالات أرسطو

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، يقول: أنتم معشر النصارى قد آمنتم بنبوة موسى والأنبياء قبل عيسى، وصدقتم كتبهم، وكلهم قد جاء بإخلاص التوحيد، وأنه إلـٰه واحد غني قديم لا إلـٰه إلا هو، لا يعرفون ما يقوله النصارى من الجوهر والأقانيم والاتحاد وما أشبه ذلك، وأن هذا نمط من ينكر خلق السموات والأرض والبعث والنشور وما جاءت به الأنبياء عليهم

السلام، فكيف تكونون من أهل الكتاب وهذه سبيلكم؟ فينبغي أن لا تتناقضوا في أقوالكم وعقائدكم، وأن تسيروا فيها على نمط واحد.

فتأمل رحمك الله هذه الجملة، فإن الجوهر والأقانيم والاتحاد هو من قول أرسطوطاليس وأشباهه من القائلين بالقدم وتكذيب الرسل وبإنكار البعث، وهم قالوا: إن الإنسان إذا عرف شيئا فقد اتحد به، وأن العقل والعاقل والمعقول يصير شيئا واحدا، وأن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة، فهذه الجهالة والحماقة هي لهؤلاء وعنهم أخذتموها، وهم يسمون حكامهم ورؤساءهم آلهة، لا الأنبياء وأهل الكتاب، فانظر إلى هذه من مقالة هؤلاء كيف أطلع الله عز وجل محمدا عليها، ولو لم يكن من آياته إلا هذا لكان عجبا.

ويبلغ من جهل أرسطوطاليس وأمثاله أنهم يقولون: إن الشمس والقمر والكواكب حية عالمة سميعة بصيرة تخلق وترزق وتحيي وتميت، وهي عندهم آلهة يدعونها ويسألونها ويرغبون إليها في الرزق والعافية والحياة، ولكل كوكب منها عندهم هيكل ودعاء وبخور ودخنة، فقد كان الناس يعجبون من قولهم في الناس إنهم آلهة حتى صاروا يقولون ذلك في الجماد والموات، إذ لا فرق بين من ادعى ذلك في الشمس والقمر أو ادعى في البرق والغيم والريح والنار والياقوت والزجاج، أو ادّعى في شعاع الشمس، أنه سميع بصير خطيب شاعر.

على أن إخوانهم من الـمَنَانِيَّة قد ادّعوا في الغيم والمطر والريح والماء وفي جميع الأجسام أنها حية سميعة بصيرة حساسة درّاكة.

وإنما ذكرنا هذا وإن لم يكن كلاما في النبوة لتعلم أن أدلة التوحيد ونفي الشركة والشبيه مأخوذ من القرآن، مجتذب إلى ما في أدلة العقول من ذلك، ولتعلم أن الخير كله في القرآن ومن القرآن، ومنه صنفت كتب الكلام بما في العقل من ذلك.

إخباره عن أن الكفار سينفقون
أموالهم في الصد عن سبيل الله ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون

من أعلامه ﷺ قوله عز وجل: «الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أموالهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الأنفال ٣٦.

فأخبر بإنفاقهم قبل أن ينفقوا، وبقتالهم قبل أن يقاتلوا، وبهزيمتهم قبل أن يهزموا، ثم كان ذلك كما قال وكما أخبر وكما فصل، وأورد ذلك مورِدًا يغيظ ويغضب ويبعث على تكذيبه وعلى الممانعة من وقوع ما أخبر به، بخلاف تدبير البشر، فإن الحكماء يتواصون بكتمان ما يدبرونه ويعزِمون عليه ويقولون: من فساد الأمر والتدبير إعلانه قبل الفراغ منه، ثم لا يرضى أن يجعل ذلك خبرا عن نفسه بل يجعله خبرا عن ربه.

***

إخباره عن اليهود بأنه لا يؤمن منهم إلا قليل،
وبأنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى،
وبأنهم سيولون الأدبار ويغلبون عند القتال

من آياته وعجيب أعلامه، إخباره عن اليهود فقال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [آل عمران: ١١٠ ـ ١١٢].

فأخبر أن أقلّهم يؤمن، ولو لم يكن على بينة من أمره وثقة عن خبر ربه عز وجل وما يوحيه إليه، لم يكن ليقول هذا، وهو لا يأمن أن يتبعه أكثرهم ويؤمنون ويدخلون

في دينه. ثم قال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ ولو لم يكن على يقين لم يقل: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ وهو لا يأمن أن يتجاوزوا الأذى إلى أخذ المال أو إلى سبي الذرية وإلى قتل الأنفس، وأن يغلبوه إن قاتلوه ولا يولون الأدبار[1]، فقاتلوه ﷺ يوم قينقاع فنزلوا على حكمه، وقاتلوه يوم بني النضير فأجلاهم عن بلادهم، وقاتلوه يوم بني قريظة فولوا الأدبار فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، وقاتلوه يوم خيبر فهزمهم ومَلَكَهم وأخذ عُنوةً خيبر بالسيف، فرضوا به أن يقرهم على أن يكونوا حَرَثَةً يعملون له في النخل.

فتأمل هذا الشرح وهذا التفصيل في هذه الأخبار، فإن مثلها لا يقع اتفاقا ولا من حذاق المنجمين ولا الكهنة، وانظر كيف أخبرهم بها قبل وقوعها، وأنذرهم بما يكون قبل أن يكون، وجعلهم على أهبة، بخلاف تدبير البشر.

وقد كانوا جماعات كثيرة لهم خيول وسلاح وحصون ويمتنعون ويقاتلون من ناوأهم وأرادهم وقصدهم، لتعلم أن هذا من إخبار علّام الغيوب، وهذا من الدلائل الواضحة والأعلام البينة النيرة، ولا يأمن من ليس على يقين مما يخبر به أن يقع الأمر بخلاف ما خبر ولا يحمل أحد نفسه على هذا من غير يقين إلا لغاية في الحمق والجهل والنقص.

***

---

(١) راجع تفسير الطبري ٧/ ١٠٧ و ما بعدها، تفسير البغوي ٢/ ٩٢.

إخباره عن الكفار بأنهم سيغلبون

من آياته ﷺ، أنه لما كانت وقعة بدر، وصدقت أخباره وتحققت مواعيده، ماج أعداؤه من اليهود وغيرهم، وقال بعضهم لبعض: ما أخلف محمد في شيء أصحابه، وإنه لنبيّ، وستؤول الأمور إلى ما يقول، وسيظهر على الناس وتكون الدولة له. فلما كان يوم أحد وقتل من أصحابه من قتل اشتدت قلوبهم ورجعوا على إخوانهم الذين قالوا لهم ما قد تقدم، وقالوا لهم: أبشروا بما كان عليه يوم أحد، فأنزل الله عز وجل ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]، ثم أذكرهم بالآيات التي كانت يوم بدر فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ آل عمران ١٣، فغلبوهم وقُهِروا كما قال، وإلى جهنم يحشرون كما أخبر، فصِدْقُ إخباره بالأول يشهد بالثاني، فتأمل هذه الأجوبة والأدلة المكشوفة الواضحة، وانظر كيف يذكر قصة بدر، ويحتج عليهم بها ويجعل ذلك عن ربه لتعلم أنها قصة قد عرفها العدوّ والولي.

***

إخباره بأن المسلمين سيملكون المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وأن الكفار لا يدخلونهما حينئذ إلا أذلاء خائفين

من آياته قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، فإن مسجد بيت المقدس قد كان غلب عليه الروم الدهور الطويلة، واستولوا عليه مع ملكهم بالشام، وأقاموا فيه الشرك، ومنعوا

من ذكر التوحيد فيه، وغلبت قريش على المسجد الحرام وغيرهم من مشركي العرب، وقد كان أبو بكر الصديق بنى مسجدا بمكة بفناء داره قبل الهجرة فكان يتلو فيه القرآن ويدعو إلى الله وإلى رسوله، وقد كان أجاره رجل من سادات قريش على أن يفعل ذلك، وهو ابن الدُّغُنَّة الحارث بن يزيد.

فمشت قريش إلى ابن الدغنة، فذكروا له محل أبي بكر وحلمه وبيانه ولطفه، وأنه يمر به القيان والعبيد والنسوان فيسمعون دعاءه فلا يلبثون أن يجيبوه إلى دين محمد، فلا تُجِرْهُ. فقال لهم: إنه رجل يَكْسِب المعدوم ويصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، فكرهت أن يخرج من بينكم ويهرب بدينه عنكم، فتعدمون هذا الفضل، قالوا: فليلزم بيته ولا يعلن دينه؛ فمنعوه من ذكر الله في مسجده.

فبشر الله نبيه عليه السلام وأصحابه بالظهور على هذه المساجد، ومُلكَهُم لها ولمن فيها، وأن الكفار لا يدخلونها إلا أذلاء خائفين مقهورين، أو بأمان وعهد وإذن من رسول الله ﷺ أو من أصحابه. ثم أخبر بخزيهم في الدنيا وعقوبتهم مِن مَنْعِ مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فنزل بهم ذلك الخزي بقتل من قاتل منهم، وضُرِبَ عليهم الذل بأداء الجزية لمن رغب في الإقامة فيما غلب عليه الصحابة، فكان كل ذلك كما أخبر، وفي هذا غيوب كثيرة.

وقد كانت ممالك الروم وغيرهم قوية ممتنعة فوفى الله لنبيه بتصديق هذه المواعيد، وبفتح هذه الأمصار ومنها بيت المقدس والمسجد الأقصى، وبنزول الخزي على مشركي العرب وغيرهم في الدنيا، وسينالهم في الدار الآخرة عذاب عظيم كما قال؛ وكما صدق في الأول صدق في الثاني، فنعوذ بالله من عذابه وسخطه.

***

إخباره بأن مفتاح الكعبة
يكون في يده يضعه حيث يشاء

من هذا الجنس، أن رسول الله ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة جاء ليدخل الكعبة، فدفعه عثمان بن أبي طلحة العبدري ومنعه من دخولها، فقال له النبي ﷺ: لا تفعل يا عثمان، فكأنك بمفتاح الكعبة في يدي أضعه حيث شئت، فقال له عثمان: لقد ذلت قريش يومئذ وقلّت، فقال النبي ﷺ: بل كثرت وعزت[1].

***

ما أخبر به من أن الله سيمكن لأصحابه في الأرض ويستخلفهم فيها

من آياته ﷺ، ما أخبر أصحابه من أن الله يمكّن لأصحابه في الأرض ويستخلفهم فيها كما استخلف الذين من قبلهم، ويؤمن خوفهم، فيخلصون في عبادته وحده لا يُشْرِكون به شيئا، فقال عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وهذه نزلت في غزوة الأحزاب وفي الخندق، وقد تحزبت العرب واليهود عليهم، وغدر من حول المدينة بهم، وهم في حومة الموت وشدة الخوف، وما كان بأيديهم إلا المدينة مع من بها من اليهود والمنافقين، فأظهر الله أصحاب رسول الله ﷺ، واستخلفهم ومكّن لهم وبدّلهم من بعد خوفهم أمنا، وعبدوه وحده وأطاعوه، وفي هذا غيوب كثيرة لا تكون بالاتفاق ولا لحذاق المنجمين، ولا هو مما يغلب في العقل.

بل الغالب في العقل والظاهر في الحزم والتدبير أن يكونوا هم المغلوبين

---

(١) راجع عيون الأثر ٢/ ٢٠٠.

المقهورين، إلا أن يكون الغلب من قِبَل الله، وأن يكون صاحبهم رسولا لله.

والذي يدلك على أن هذا نزل وهم غير متمكنين وأنهم قد كانوا خائفين قوله عز وجل: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، فلا يجوز أن يخبرهم بما لم يكونوا عليه ويمتن عليهم بذلك والعدو والولي يسمعه، وهو يعلم أنهم سيعلمون أنه قد كذبهم، ثم يؤكد هذا بأن يقول: هذا قول الله لكم، ووعد الله لا وعدي، وبشارة الله لا بشارتي.

***

صحة خلافة الخلفاء وبطلان مذهب الإمامية من القرآن

وفي هذا دلالة على صحة خلافة الخلفاء من بعده، ألا تسمعه يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ ولو قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لكانت عدة تحتمل التسويف والتأويل، فلما قال: «منكم» جعلها فيهم ولهم ومنهم، فزالت الشكوك وارتفع اللبس.

ولو كان الأمر على ما يقول الإمامية لكانت هذه الأخبار قد كذبت وهذه المواعيد قد أخلفت لأنهم زعموا أن المستخلف كان علي بن أبي طالب، وأنه ما كان متمكنا ولا آمنا بل كان مقهورا مغلوبا خائفا، فأين تصديق ما وعد الله، فنعوذ بالله من الذهاب عن الحق.

وعندنا أنه رضي الله عنه كان في زمن أبي بكر والخلفاء قبله ممكنا غالبا قاهرا آمنا عزيزا نافذ الأمر مسموع القول كما قد تقدم شرح ذلك لك، وبه وبإخوانه من المهاجرين والأنصار كانت خلافة من قبله وعزّ سلطانهم، فالعدة فيه وفي أبي عبيدة بن الجراح وفي سعد ومعاذ وعبد الرحمن وغيرهم من المهاجرين والأنصار، والله عز وجل وعد أن لا يستخلف إلا المتقين ولا يمكن إلا لأوليائه وأحبائه و أهل طاعته.

وليس هذا بنصّ جليّ مكشوف في خلافة هؤلاء رضي الله عنهم، ولكنه شيء يعرف بالاستنباط والاستدلال والتدبر في هذه التلاوة، فلا يسوغ في تأويلها وتفسيرها إلا هذا.

***

الأصل في الطعن في خلفاء رسول الله وفي المهاجرين والأنصار هو هشام ابن الحكم(١)

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ حين ارتدت العرب بعد وفاته وكثر من خالفهم يستبشرون بظهور الإسلام وغلبة المسلمين بهذه الآية، وقد تلاها أبو بكر الصديق عليهم في ذلك الزمان، وقال لهم ما لعله قد تقدم لك شيء من ذكره.

وهذا شيء قد تقدم به الإجماع وسبق به الاتفاق قبل أن يُخلَق هشام بن الحكم الذي هو الأصل في الطعن على خلفاء رسول الله ﷺ والمهاجرين والأنصار، ومع هذا فقد ذكر هشام بن الحكم أنه أدرك الشيعة وكلهم يتولّى أبا بكر وعمر وعثمان، ويقولون هؤلاء(٢) ما أنكروا فضل الوصيّ عليّ بن أبي طالب ولا دفعوه عن حقه،

---

(١) هشام بن الحكم الشيباني: شيخ الإمامية في زمانه، ولد في الكوفة ونشأ بواسط وكان بارعا في المناظرة والجدل، توفي عام ١٩٠هـ. عثمان. أقول: الأصل الأول في هذا الطعن، هو عبد الله بن سبأ، ويلقب بابن السوداء، وهو من يهود اليمن، قدم المدينة على عهد سيدنا عثمان، وأظهر الإسلام، وادعى أن عليا وصي رسول الله ﷺ وخليفته من بعده، وأن الصحابة قد ظلموه واغتصبوا حقه، وكان له ضلع في الثورة على عثمان وقتله. وكان يُسِرّ إلى خواصه أن عليا هو الله، وكان يدعي بعد مقتل علي أنه لم يُقتل وأنه سيعود، لكن مذهبه هذا استمر بعده عند بعض الأفراد، ولم يتحول إلى مذهب معروف لطائفة معروفة لها كيان ووحدة، وأما هشام فكان هو السبب في تحول هذا المذهب مذهبا لطائفة كبيرة تنتسب إلى الإسلام.

(٢) أي يقول الشيعة هؤلاء أي خيار الصحابة.

وأن الذين دفعوه عن حقه وأنكروا فضله هم المنافقون الذين كان القرآن يهتف بهم. قال هشام: وهذا ـ أي ما قاله الشيعة ـ كله تلزيق وتلفيق دعاهم إليه هيبة أولئك القوم، فما أقدموا على تهمتهم ولو عرفوهم لاتهموهم، ثم أخذ يذكر ما عنده من تهمتهم، فقد أقر بلسانه أنه لم يسبقه أحد إلى شتمهم ولعنهم، ولو لم يقر لكان العقل يشهد به ويدل عليه.

***

غزوة الأحزاب وما جرى فيها من العجائب والآيات العظام ومن نصر الله مما امتن الله تعالى بقسم منه في كتابه

من أعلامه وآياته، أنه كان يقول في أوان ضعفه وعنفوان أمره: أنه سيعظم أمره ويعلو شأنه، وتتحزب الأمم عليه، وتقصد لقتاله وقتله واستئصاله واستئصال أتباعه، ويأتونهم من كل وجه. وأن أصحابه يثبتون ويزدادون بصيرة ويقينا في أمرهم عند ذلك.

وأن من رآهم ورأى من سار إليهم يكون عنده وفي عقله ورأيه أنهم لا ينجون، فكان ذلك كما قال، وأخبرهم الله في تلك الحال: أنه عز وجل سيكفيهم أمر هؤلاء وأمر مَن ظاهرهم من أهل الكتاب، ويستخلفهم في الأرض، ويؤمن خوفهم، ويبدلهم بالضعف قوة، ويمكن لهم في الأرض، وكان هذا في قصة الأحزاب، وأنزل الله فيها وفي يومها الآية الواردة في سورة النور[1].

---

(١) وهو قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني ولا يشركون بي شيئا). راجع تفسير =

وأما أنه كيف تحزب الأحزاب واتفقوا على غزو المدينة واستئصال المؤمنين فيها، فقد كان ﷺ أجلى بني النضير من اليهود لأذيتهم له وغدرهم به، فرحلوا عن المدينة من جواره، وصاروا إلى قريش وإلى عبس وذبيان وفزّارة وغيرهم من القبائل، وحرضوهم عليه بأنه أكفر أسلافكم وعاب أديانكم واستجهلكم، وذهب بسيادتكم ورئاستكم وبأحسابكم، وفرق آلافكم وحمل الأبناء على قتل الآباء، والآباء على على قتل الأبناء، وهو يزعم أنه يظهر عليكم ويستأصلكم وأنتم غير آمنين مما يوعدكم به، فبادروا مادام في ضعف قبل أن يقوى بأشد مما كان عليه ببدر وأحد.

وكانت لليهود بالحجاز رئاسات وضيافات ومنن على العرب، يجيرون من استجار بهم، ويمنعون عن جيرانهم ويقاتلون دونهم؛ فأثاروا قريشا والعرب على رسول الله ﷺ، فساروا إليه في نحو عشرين ألفا، وجاء حييّ بن أخطب اليهودي النضري إلى بني قريظة من اليهود، وكانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ أن يسالموه ولا يعينوا أحدا عليه أبدا وكتبوا بينهم وبينه في ذلك كتابا، فجاء حييّ إلى كعب بن أسد رئيس بني قريظة، وقال له: جئتك بشرف الدنيا وبالعزّ، وهذه القبائل من قريش والعرب قد ساروا إلى محمد فكن معنا، فقال: دعني فإن هذا الرجل قد عرفناه بالصدق والوفاء، إن قال نعم فهي نعم، وإن قال لا فهي لا، ما لقوله خلف، وأكره أن أغدر به ولعلكم ألا تظفروا به، فقال حيي: ليس هذا من تلك العساكر التي لقِيَتْهُ قبل هذا، ونحن في كثرة وهو في قلة، ولن ننصرف عنه أو نستأصله، فتندم في قعودك عنا؛ وإنما هو وأصحابه قليلون، وهذه قريش في هذا العدد. وذكر عدد تلك القبائل وما زال بهم حتى غدرت قريظة، فأرسل رسول الله ﷺ بسعد ابن معاذ وسعد بن عبادة إليهم ليعرف ما عندهم وهل غدروا أم لا. فلما بصرت قريظة بالسعدين مزقوا

= الطبري ١٩/ ٢٠٨، وتفسير ابن كثير ٦/ ٧٧.

الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ وسبوه، فرد عليهم سعد بن عبادة، فقال له سعد بن معاذ: كُفَّ، فما بيننا وبينهم أجلّ من السباب.

فرجعا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه بغدرهم تعريضا إشفاقا على ضعف المسلمين، وكانت قريظة بالقرب من المدينة وفي أَحَد جوانبها. وجاءت قريش والقبائل من وجه آخر.

وأشار سَلمان الفارسي رحمة الله عليه بحفر خندق، وكان هذا أول مشهد شهده سلمان. فأمر رسول الله ﷺ بحفر الخندق، وأخذ كل جماعة من الصحابة قطعة يحفرونها، فاعترضتهم صخرة صلبة لا يعمل فيها المعول فهموا بالتعريج عنها، ثم قال قائل: عَرِّفُوا رسول الله ﷺ، وقد كان ﷺ سار بالمسلمين عن المدينة وعسكر بإزاء العدو، فنزل ﷺ إلى الصخرة وأخذ المعول فضربها ضربة، فثار منها برقة عظيمة. فكبر وكبر المسلمون، وقال: رفعت لي صنعاء واليمن، فرأيت قصورها كأنها أنياب الكلاب وأنتم تفتحونها وتملكونها، ثم ضرب أخرى، فبرقت برقة عظيمة، فكبر وكبر المسلمون فقال: رفعت لي قصور الشام كأنها أنياب الكلاب وأنتم تفتحونها تملكونها، ثم ضرب أخرى، فبرقت برقة ثالثة، فكبر وكبر المسلمون وقال: رفعت لي قصور مدائن فارس وفارس وأنتم تفتحونها وتملكونها، فأبشروا، وتصدعت الصخرة فصعد رسول الله ﷺ من الخندق وهو مستبشر مسرور، ورتب أصحابه لحراسة الخندق، وجعله بينهم نوائب كما هو مذكور.

وكان بالخندق من الضيق ما تطفره خيول شجعانهم، فطفره عمرو بن عبد وُدّ، وعكرمة بن أبي جهل، وخالد بن الوليد، وضرار بن الخطاب؛ وأقاموا أياما يحاربون، ثم تواعد الكفار عشية أن يكونوا من غد يحملون حملة واحدة من كل جانب، ويقتحمون على المسلمين. فأرسل الله عليهم ريحا عاصفا قلعت أخبيتهم

وأبنيتهم، ونفرت خيولهم وإبلهم، وأخذهم من الرعب ما لم يملكوا أنفسهم، ومروا هرابا على وجوههم، وكفى الله المؤمنين قتالهم، وبات المسلمون من تلك الريح في كل عافية[1].

فإن قيل: ومن أين لكم صحة هذا أنه جرى؟ قيل له: قد جاء مجيئا إذا تدبّره من سمعه وفكر فيه علم وتيقن أن الأمر كذلك، فإن القرآن نزل به مذكرا هذه النعمة ومحتجا بهذه الآية وممتنا على المؤمنين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١١]، فلو كانت هذه الريح وغيرها من الأمور التي جرت العادة بمثلها لما امتن الله به ولا احتج والعدو والولي يسمعه، هذا لا يفعله عاقل فكيف بمن يدعي النبوة. ثم يؤكده بأن يجعله قولا لله وأن الله يذكرهم بهذه النعمة.

ثم قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب ١٢]، لِـمَا كان قد تقدم به البشرى، فكانوا يقولون: الواحد منا ما يستطيع أن يذهب لحاجته من العساكر التي قد أحاطت بنا، وهو يعدنا بملك اليمن وملك كسرى وقيصر.

ثم أَذْكَرَهم بقول طائفة أخرى ﴿يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣][2] وقد كان قوم من بني حارثة قالوا ذلك، أخبرهم الله بضمائرهم في قولهم، ولا يجوز أن يقول

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٩٠ ـ ٩٨.

(٢) ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي غير حصينة يخشى عليها.

ذلك إلا وهو كما قال.

ثم قال: ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾ [الأحزاب: ١٩][1].

﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب: ١٥] إلى قوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩] يصف جبنهم وخورهم وخداعهم و أنهم إذا زال الخوف وأمنوا قالوا: فعلنا وصنعنا واجتهدنا، ويظهرون احتقار العدو ويقولون إن عادوا عاودناهم، ثم قال: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ يحكي عن هؤلاء المنافقين وعن من قَلَّتْ بصيرته وعن من في قلبه مرض، أنهم يحسبون أن الأحزاب لم يذهبوا ولم ينصرفوا، وأنهم سَيَرُمُّون شعثهم مما نالهم من الريح ويرجعون، وأن عسكرا مثل هذا في الكثرة والقوة لا ينصرفون، ومن بإزائهم في ضعف وهم مع ذلك في قلة، و﴿يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

* * *

(١) ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ﴾ المدينة أي دخلها الأحزاب ﴿عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ أي من جوانبها جميعا. أي لو تمكنوا منهم ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي سُئِلوا من الداخلين الردة ﴿لَأٓتَوۡهَا﴾ أي لأعطوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾ أي ما تأخروا عن الإجابة إلى الردة إلا يسيرا ﴿أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡ﴾ بالمعاونة والنصر ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ﴾ أي جاء ما يخيفهم من جهة العدو ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ من القلق والخوف ﴿كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أي كالذي يغشى على عقله من أجل سكرات الموت ﴿سَلَقُوكُم﴾ أي استقبلوكم ﴿بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي بليغة يدَّعون لأنفسهم الشجاعة والنجدة كذبا وزورا.

إخباره عن ضمائر المنافقين
وسوء نياتهم، وهذا لا يفعله عاقل إلا أن يكون نبيا

فأخبر عن أسرارهم وعن ضمائرهم وواجههم بنفاقهم وسوء نياتهم، وهذا لا يفعله إلا نبي واثق بتأييد الله له وبنصره إياه، لأن من صواب الرأي ومحكم التدبير عند الحكماء والرؤساء وطلاب الملك وخطاب الدنيا أن يقبلوا الطاعة ممن أظهرها لهم وإن اتهموا ضمائرهم، وأن لا يَرُدُّوا ما ظهر من نصحهم، ولا يقولوا لهم: ليس ظاهركم كباطنكم وأنتم أعداء، ليس هذا من حقوق الرئاسة ولا يسوغ في تدبير السيادة ولا يقع هذا من عاقل إلا أن يكون نبيا، لأن الرئيس إذا فعل هذا حملهم على مكروهه، وبعثهم على مكاشفته واستفراغ الوسع في الإفساد عليه وفي قتله. وفي أمثال الحكماء: «لا تسمّه عاقّا فيعق»، وقال بعض الحكماء في وصاياه التي ترتضيها العقلاء:

اقبَل مقالة من يأتيك معتذرا	إنْ بَرّ عندك فيما قال أو فجرا
فقد أطاعك من يرضيك ظاهِرُهُ	وقد أجَلَّك من يعصيك مستترا

وأيضا لو لم يكن نبيا لا يأمن أن يكون باطنهم في طاعته مثل ظاهرهم، فإذا قال لهم قد نافقتم وهم بخلاف ذلك لكان طَعَنَ في قوله، وإن لم يواجهوه بالكذب قالوه مِن وَرَائه، وذكروه لأتباعه ولمن قد اعتقد صدقه، ويذكرونه لعدوه من اليهود والنصارى، فإنهم كانوا أشد الناس حرصا أن يقع له كذبة أو زلة، فهم كانوا يواجهونه بالتكذيب، وليس معهم حجة فكيف إذا صار لهم حجة. فتعلم أنه لم يقل ذلك إلا عن علم ويقين. وهذا باب كبير من الإخبار بالغيوب، وهو كثير في القرآن فاعرفه، فهو من الآيات العظام.

* * *

ثبات قلب الرسول والمؤمنين لما رأوا الأحزاب، وصدقهم ما عاهدوا الله عليه

ثم قال تعالى لهم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فقد كانوا رأوه ﷺ في تلك الشدائد والأهوال، ساكن القلب، طيب النفس، يُبَشِّرُهم بالنصر على هؤلاء وعلى أمم العرب والعجم.

ثم قال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وقد كان المشركون يقولون عند قول النبي ﷺ وهو بمكة: «إني سأصير في جماعات وعساكر»، يقولون: مُلْكُنا أبسط وحزبنا أغلب وجندنا أكثر، فأنزل الله إذ ذاك وقبل الهجرة: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١٠]، فلما رآهم ـ أي الأحزابَ ـ المؤمنون ذكروا هذا الوعد من الله عز وجل فازدادوا إيمانا. ولهذا الوعد نظائر وأمثال كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ ومثل قوله: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [البقرة: ١٨٦]، وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ لم يُرد به الذكر باللسان، وإنما أراد ذكرَ القلب والفكرَ في آيات الله ودلائله وحججه، وهذا أعظم الذِّكْرَين وأجلهما وأنفعهما، والذكرُ باللسان بعده، ولا يغني عن ذكر القلب شيءٌ ألبتة.

ثم قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فأخبر عن ضمائر المؤمنين السابقين والمهاجرين

والأنصار، وأن باطنهم في الإسلام كظاهرهم، وسريرتهم كعلانيتهم. كما أخبر عن باطن المنافقين ومن في قلبه مرض، وفي إخباره عن بواطن المؤمنين من الدلالة مثل ما في إخباره عن ضمائر المنافقين، فتأمل ذلك لتعرفه فشرحه يطول.

وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي منهم من قتل في سبيل الله أو مات وهو مقيم على موالاة الله وإيثار مرضاته، ومنهم من بقي ينتظر ونيته وطويته ألا يزول عن ذلك، وما بدلوا تبديلا ولا غيروا.

وفكر في قوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فانظر كيف تَمنَّن عليهم بأنه صرف عنهم هؤلاء الجنود وهذه العساكر بالريح وكفاهم قتالهم، وما نال المسلمين من الريح أذى مع قرب المسافة. بل باتوا منها في كل عافية وبات أولئك في كل بلية، وهذا بخلاف ما جرت به العادة، ولا يقدر على صرف الريح في الجهات وإجرائها على هذه السبيل إلا الله عز وجل.

* * *

واقعة بني قريظة
ونزولهم على حكم سعد بن معاذ

وهمّ النبي ﷺ بالانصراف إلى المدينة والرجوع إليها بعد انصراف الأحزاب، فأتاه جبريل يقول له عن الله: لا تنزع درعك حتى تصير إلى بني قريظة، فسار إليهم ونزل عليهم، فألقى الله في قلوبهم الرعب منه ﷺ مع كثرتهم فامتنعوا بحصونهم، وقال ﷺ: يا يهود يا إخوة القرود[١]، فقالوا يا محمد: ما عهدناك فحّاشا، فقال ﷺ:

---

(١) في سيرة ابن هشام أن النبي ﷺ لما دنا من حصون بني قريظة قال: يا إخوان القرود هل أخزاكم الله

غدرتم بي ونبذتم عهدي، إنا إذا حللنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

وقد كان بنو قريظة في كثرة وبأس ونجدة، فقذف الله في قلوبهم الرعب عند نزول رسول الله ﷺ. فقالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ. فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فجاء على حمار أقمر[1]، وقد كان أصابه يوم الأحزاب سهم، وكان يقول: اللهم لا تمتني حتى تريني في بني قريظة ما أحب، فقال له رسول الله ﷺ: إن بني قريظة قد رضوا بك وبالنزول على حكمك، فقال له الأوس: يا أبا عمرو هم حلفاؤك، فقال سعد: قد آن لي أن لا تأخذني في الله لومة لائم؛ لينزلوا حتى أحكم. فلما نزلوا قال: قد حكمت بقتل مقاتلتهم، وسبي ذريتهم، وغنم أموالهم، وأن تكون للمهاجرين دون الأنصار[2].

فقال رسول الله ﷺ: قد حكمت بحكم الله، وهو معنى قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾[3] [الأحزاب ٢٦ ـ ٢٧]، فانظر كيف يمتن عليهم بهذا، والعدو والولي يسمع، ولا يجوز أن يمتن عليهم إلا بما قد كان علموه.

فانظر كم عَلَمٍ في قصة الأحزاب، وكم آية، وكم دلالة، وكم أعجوبة.

* * *

وأنزل بكم نقمته، قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا. سيرة ابن هشام ٢: ٢٣٤ **عثمان**

(١) حمار أقمر: أي لونه إلى الخضرة أو أبيض فيه غبرة.

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٩٨ ـ ١٠٤.

(٣) ﴿صَيَاصِيهِمْ﴾ أي حصونهم، أي ﴿و﴾ سيورثكم ﴿أرضا لم تطؤوها﴾ بعد، وهي الأرض التي فتحوها بعد ذلك مثل خيبر ومكة وأرض الروم وفارس. والوطء عبارة عن الإيقاع والاستيلاء أي لم تستولوا عليها ولم توقعوا بأهلها.

مكاتبة ملوك الدنيا ودعوته إياهم إلى الإيمان به، وإخباره إياهم بظهوره وغلبته عليهم، وما اشتملت عليه هذه القصص من العجائب والآيات

واعتبر رحمك الله سيرته في المكاتبة والمراسلة، فإنه فعل ذلك بجبابرة الأرض وملوك الدنيا من العرب والعجم في أقطار الدنيا، فدعاهم إلى رفض ما هم عليه، والدخول في طاعته، وامتثال أمره، والخضوع له، وأخبرهم بذات نفسه وبما يدعو إليه، وأخبرهم بأن الله عز وجل اصطفاه وحده واختاره وحده، ووعده بالظهور والغلبة لملوك الأرض وجبابرتها، وأن السعيد من بادر إلى طاعته من قبل أن تسبى أمواله وتستباح حريمه ويسفك دمه، فما ترك شيئا مما يغضبهم ويغيظهم ويبعثهم على قتله واستئصاله وبواره وبوار أصحابه إلا أتى به وفعله، وهذا ما لم يكن مثله ولا يقدم عليه عاقل إلا وهو على غاية الثقة بالسلامة من العواقب، وأن العاقبة تكون له لا لعدوّه.

***

كتاب الرسول إلى كسرى مَلِك فارس

أما ترى كيف أغضب كسرى كتابُهُ حين أنفذه مع عبد الله بن حذافة السهمي وهو: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمَنَ بالله ورسوله، وشَهِد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

فمضى بكتابه، فلما بلغه كتابه غاظه ذلك وأغضبه، حتى كتب إلى صاحبه باذان وهو خليفته باليمن وملكها يأمره بإشخاصه إليه[1]، فأرسل باذان في ذلك، فسرّ ذلك أعداء رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى وقريش والعرب واستبشَروا، وقال بعضهم لبعض: كُفيتموه كُفيتموه. فلما وصل الرسول إليه قال له رجل منهم: انطلق معي إلى الملك باذان فنكتب معك كتابا إلى الملك شاهنشاه ينفعك عنده ويكفّ عنك، وإن أبيت فهو من قد علمت، وهو مهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك، فقال له رسول الله ﷺ: أقم إلى غد حتى أجيبك. فلما كان الغد صار، فقال ما تقول يا محمد؟ قال ارجع إلى صاحبك فإن ربّي قد خبرني أنه قُتِل البارحةَ كسرى، قتله ابنه شيرويه على كذا كذا ساعة من الليل، فقال له هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا منك أيسر مِن هذا، فنكتب بهذا عنك ونخبر الملك باذان بذلك قال: نعم، أخبراه ذلك عني، وقولا له: إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهي إلى منتهى الخف والحافر، إلى أن قال: سيأتي هذا الدين على ما أتى عليه الليل.

وقد كان قال ﷺ لعبد الله بن حذافة لما رجع إليه وأخبره بأن كسرى استخف به ومزق كتابه، فقال ﷺ: أما إن الله عز وجل سيمزق ملكه[2].

فانظر إلى هذه الأقوال المغضبة كيف تتوالى لهم منه، وانظر إلى هذه الثقة وهذا الثبات.

***

---

(١) أي بأخذ الرسول إلى كسرى.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٦٤) «أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بكِتَابِهِ رَجُلاً وأَمَرَهُ أنْ يَدْفَعَهُ إلى عَظِيمِ البَحْرَيْنِ فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إلى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، قال الراوي: فَحَسِبْتُ أنَّ ابْنَ المُسَيِّبِ قالَ: فَدَعَا عليهم رَسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ». والقصة بتمامها كما ذكرها القاضي بالمعنى في تاريخ الطبري ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣.

كتابه إلى قيصر ملك الروم

وقد كان رسول الله راسل قيصر ملك الروم بدحية بن خليفة الكلبي، فأكرمه وأكرم كتاب رسول الله ﷺ، وسأل من عنده من أهل مكة وتجار قريش عنه ﷺ وعن أخلاقه وطرائقه وسيرته، واستقصى ذلك، فإذا هو النبيّ الذي تقدمت البشارة به، وردّه مكرما، فقال النبيّ ﷺ: لقد عرف الحق ولكن ضنَّ الخبيثُ بمُلْكِه وعاجِلِ دنياه، فآثرها على دينه[1].

***

كتابه إلى المقوقِس ملك الإسكندرية

وأرسل إلى المقوقس ملك الإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة بكتابه إليه[2]، فدفعه إليه فقرأه، ثم أقبل على جلسائه فضحك وقال لهم: كتب إليّ يصف لي حسن دينه ويدعو إليه، فما منعه إن كان رسولَ الله أن يسأل الله فيسلط البحر عليّ فيغرقني فيُكْفَى مؤونتي ويأخذ ملكي، فقال له حاطب: فما منع عيسى ابن مريم وهو كما زعمت إذ أخذته اليهود فربطوه في حبل وحلقوا وسط رأسه وجعلوا عليه إكليل شوك، وجعلوا على عنقه الخشبة التي صلبوه عليها، ثم خرجوا به وهو يبكي حتى صلبوه على الخشبة ثم طعنوه بالحربة حتى مات، فما منعه أن يسأل ربه أن ينجيه منهم ويهلكهم ويُكفَى مؤونتهم ويظهره وأصحابه عليهم، وما منع يحيى بن زكريا

---

(١) متفق عليه.

(٢) هو حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، صحابي شهد الوقائع كلها مع رسول الله ﷺ بعثه النبى بكتابه إلى المقوقس، ومات في المدينة سنة ٣٠هـ. الإصابة ١: ٣٠٠ **عثمان**

حين سألت امرأة الملك أن يأمر بقتله، فقتله وبعث إليها برأسه حتى وضعوه بين يديها، فما منعه أن يسأل ربه أن ينجيه منها ويهلك الملك؟

فأقبل المقوقس على جلسائه فقال: والله إنه لحكيم. وما يخرج الحكيم إلا من عند الحكماء، ما تقولون، قالوا: نقول: صدق أيها الملك، قد رأينا ما رأيت. وعاود قراءة كتاب النبي ﷺ، واحتبس حاطب عنده مدة، وسأله عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وعن سيرته، وردّه مكرما[1].

***

مكاتبته ملوك الشام وملوك اليمن وغيرهم ودعوتهم إلى الإيمان به وإلى الاختلاع من ملكهم وعزهم

وأرسل النبي ﷺ إلى غير واحد من ملوك الشام يدعوهم إلى طاعته. وكان فيمن أرسل الحارث بن عمير الأزدي، فقتله شرحبيل بن عمرو الغساني[2]، فأنفذ رسول الله ﷺ بعده غير واحد ولامهم على غدرهم وقتلهم الرسل، وقال لهم: أنتم مغلوبون وسلطاني يعلو عليكم، فأغضب ذلك ملوك الروم ونصارى العرب. وأرسلت نصارى العرب إلى ملك الروم: انتهز الفرصة مادام هذا الرجل في ضعف، فأَنْفَذَ جيشا في مائة ألف قاصدا لرسول الله ﷺ يقودهم ياتوقس البطريق، وعلى نصارى العرب من غسان وقضاعة وغيرهم شرحبيل بن عمرو الغساني، فانتهوا إلى مؤتة فكفاه الله أمرهم كما هو معلوم.

---

(١) دلائل النبوة ٤/ ٢٩٨.

(٢) كان ذلك في سنة ٨ من الهجرة، فقد بعثه الرسول بكتاب إلى ملك بُصْرَى، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسّاني فقتله، وعلى إثر مقتله كانت غزوة مؤتة. الإصابة ١: ٢٨٦. **عثمان**

وأرسل إلى ملوك اليمن وملوك البحرين وعُمان رسلا معروفين، وقد علمت رحمك الله أنه دعاهم إلى الاختلاع من ملكهم والخروج من عزهم إلى التواضع والتذلل، وإلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، وهذا غير تدبير البشر وحكماء الملوك، وهذا عندهم من سوء التدبير، فتعلم بعقلك أنه لم يفعل ذلك إلا وهو على يقين من السلامة من سطواتهم وكيدهم وشرهم[1].

وتعلم أن السبيل التي سلكها رسول الله ما سلكها عاقل، ولا تخطر على قلبه، ولا تسمو إليها همته ولا يحدث بها نفسه إلا أن يكون رسول الله واثقا بوحي الله.

***

(١) راجع تاريخ الطبري ٢/ من صفحة ١٢٨ إلى ١٣٤، وابن كثير ٤/ من صفحة ٥٠٣ إلى ٥١٧.

أبواب أخرى عظيمة من أعلام نبوته
من إخباره عن بواطن ناس، وعما سيقع من آخرين

وهو بانفراده حجة تامة، بل في كل موطن منه حجة ودلالة.

أولاً: إخباره عن المتخلفين من الأعراب عن عمرة الحديبية وعن اعتذارهم بما هو غير صحيح

فمن ذلك قوله عز وجل إخبارا عن المخلفين عن عمرة الحديبية من الأعراب، وعن اعتذارهم عن التخلف عنها بما ليس في قلوبهم[1]: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١١ ـ ١٢].

فانظر كيف يخبر عن عدوه أنهم سيقولون ما فيه حجة عليهم قبل أن يقولوه، فيقولون ذلك ويفعلونه كما أخبر عنهم، وهذا من عجيب الأمور.

ولها نظائر، مثل قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١]

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢٢/ ٢١١، تفسير البغوي ٧/ ٣٠٠.

أخبر الله تعالى في هذه الآيات أن منكري الحشر قالوا مستبعدين لوقوعه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي ترابا ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ يقول الله تعالى: لو لم تكونوا بعد الموت عظاما ورفاتا بل كنتم حجارة أو حديدا أو خلقا مما يعظم في رأيكم فسيعيدكم بعد موتكم، أي إنكم تعودون بعد موتكم كائنا ما تكونون بعده، وأخبر الله تعالى أنهم ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ فأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾، وهو جواب مسكت لهم ومزيل لاستبعادهم مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، ثم أخبر الله تعالى عن هؤلاء المنكرين للبعث أنهم ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ أي يحركونها استهزاء بك ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾، وهذه أخبار وقعت كما أخبر بها الله تعالى.

ومنها قوله تعالى عن الأعراب المخلفين عن عمرة الحديبية: ﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الفتح: ١٥]، قال الله تعالى ذلك مخبرا أن المخلفين عن رسول الله من الأعراب عن عمرة الحديبية سيقولون عندما يذهب رسول الله والمؤمنون إلى فتح خيبر: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾ طمعا في الغنيمة، وقد تخلفوا في وقت مجالدة الأعداء ومحاربتهم ومصابرتهم، فأمر الله رسوله أن لا يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم، ولأن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية وحدهم بمغانم خيبر لا يشاركهم فيها غيرهم(١)، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، ومثل هذا كثير.

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢٢/ ٢١٥، وتفسير البغوي ٧/ ٣٠٢، وتفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٧.

فإن قيل: فما تنكرون أن يكون قد أخبر عنهم بعد أن قالوا؟ قيل له: هذا لا يفعله عاقل بأن يقول لأمر قد كان وقد وجد وفرغ منه: هذا سيكون، فيكذب هذا الكذب الظاهر عند قوم يعلمون أنه قد كذب، وهو يدعي الصدق والنبوة وأنه وحده حُجَّة الله وصفوة الله، وأنه لا أحد معه في ذلك ولا بعده إلى يوم القيامة، فاعرف هذا وراعه في أماكنه من القرآن إذا تلوته.

وتأمل قوله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٥]، فانظر كيف يقول لهؤلاء لما جاءوا معتذرين وسامعين ومطيعين: إنكم قد قلتم بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، وإن قعودكم ليس لشغلكم بأموالكم و أهليكم، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا.

فإن العاقل لا يفعل هذا بمن أظهر له الطاعة وإن كان متهما لباطنه، بل يظهر له القبول، هكذا حق الرئاسة وهو الذي تقضتيه السيادة، وهو الحزم. ومن سوء التدبير إظهار تهمة مثله، وهذا لا يفعله إلا من كان نبيا أو رسولا لله صادقا كما قد تقدم شرح ذلك لك.

ومما يؤكد ذلك، أنه ﷺ كان يوصي أمته بالمداراة وبالصفح وبترك المكاشفة، ويقول: هذا هو الحزم. وقد كان ﷺ واجدا على بعض أحياء العرب، فوردوا عليه وهو معرض عنهم، فقام رجل منهم فأنشده:

فَحَيِّ ذَوِي الأَضْغَانِ تَسْتَبِقِ وُدَّهُمْ　　　تَحِيَّتَكَ الحسنى فقد يرفع النَفَل[1]

---

(١) النفل: الشدة.

وإن أظهروا سوءًا فأَظْهِرْ كرامةً   وإن كتموا عنك الحديثَ فلا تَسَل
فإِن الذي يُؤْذِيكَ مِنْهُ استماعُه   وإن الذي قالوا وراءَك لم يُقَل

فأقبل ﷺ ورضي عنهم وقال: إن من الشعراء لَحُكَمَاء، وإن من البيان لسحرا[1]، وأعاد قول الشاعر: «وإن الذي قالوا وراءك لم يقل». استحسانا له واستصوابا، فلما صار إلى أمر الله عز وجل ما رضي إلا بمواطأة القلب للسان، وأن يكون الظاهر مثل الباطن، ثم ما رضي بأن يكون هذا القول منه ومن عنده حتى قال هذا القول قول الله لا قولي، وقول خالقكم وخالق العالم بضمائركم وما أخفيتم.

وتأمل قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ من الذين لم يكونوا منافقين، ولكن لم يستحكم الإيمان في قلوبهم. من أجل ذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، أي في دعوى الإيمان.

فانظر كيف يقول لهؤلاء الذين بهم ضعفُ بصيرةٍ وقد جاؤا مذعنين وسامعين ومطيعين: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾. فلا يَسُوغُهم دعوى الإيمان مع ضعف البصيرة، ويقول: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠]، فيعطيهم العطاء الجزيل ويقول: هؤلاء الذين ضعفت بصائرهم أعطيهم أتألف قلوبهم لانحطاط منزلتهم عن منازل المهاجرين والسابقين والأنصار،

(١) أورد نحوه المتقي الهندي في كنز العمال ٣/ ١٤١٨.

فيسميهم باسم المنقصة ويلبسهم جلباب المذلة، وقد أعطاهم تلك العطايا الوافرة، وهذا خلاف تدبير عقلاء الناس وحكماء البشر، فإن هذا عندهم تضييع للمال وتنفير للناس الذين لم يعطهم الجزيل، وجناية على الملوك، ونقضُ عُرًى الملك، وهدمٌ لأركانه.

***

ثانياً: إخباره عما في بواطن المنافقين من النفاق وعما على ألسنتهم من الكذب

وفي هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا من ذلك الجنس الذي قدمنا، وهي في قوم من المنافقين معروفين، وهم عبد الله بن أبيّ بن سلول الخزرجي وأتباعه، وهذا كان سيدا في الخزرج مطاعا عظيم الشأن، وكان متقدما في الأوس والخزرج جميعا، وكان رأس المنافقين، يطيعونه ويرجعون إليه، وكان قد حسد رسولَ الله ﷺ، وكان سعد بن عبادة يقول للنبي ﷺ: اصبر عليه يا رسول الله واحتمله، فوالله لقد نظمنا خرزات تاجه لنسوده حتى جاءنا الله بك[1].

وكان معه على النفاق جماعة من الأوس والخزرج يؤملونه ويرجون أن تكون الرئاسة له، وكانوا يعذلون قومهم من الأنصار في محبتهم لرسول الله ﷺ وأتباعه.

وكانت الأنصار تحب إسلامه وإجابته وإخلاصه، فيذكرون له صحة الإسلام وحسنه، ويوبخونه في إبطائه عنه، فيجيبهم إلى ذلك فيسلم؛ ثم ينظر في أمره وأنه ليس له منزلة خبّاب بن الأرتّ، وسهيل بن سنان، وزيد بن حارثة، وبلال مولى أبي بكر الصديق، وعمّار بن ياسر، وأمثالهم من الموالي مع حبه للرئاسة إذ هو رئيس وسيد قبل الإسلام، فيتحسر، ويحمله الحسد، فيرجع ويتردد.

* * *

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٢٣٧ ولكن نقله كالطبري في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية من قول أسيد بن حضير.

ثالثاً: ما كان وقع بين أحد المهاجرين وأحد الأنصار من الشجار، وقول عبد الله بن أُبَيّ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، ونزول سورة (المنافقون) في ذلك، وإخبار الله تعالى فيها عن بواطن المنافقين وعن كذبهم

من هذا الجنس ما كان في بعض غزوات رسول الله ﷺ، وهي غزوة المريسيع وتسمى غزوة بني المصطلق، والقصة: أنه قد ازدحم الناس على الماء لضيقه، فوقع بين الجهجاه الغفاري صاحب عمر بن الخطاب وأجيره وبين رجل من الأنصار، فقال الغفاري: يا لَلْمُهاجِرينَ وقال الأنصاري: يا لَلأنصار[1]، وبلغ ذلك عبد الله بن أبيّ بن سلول وهو في مجلسه وفي جماعة من خواصِّه وخَدَنِه ـ أي أصدقائه ـ وعبيده وأهل بيته، وكان في هذه الغزاة، فأظهر التعجب من أن يقال: يا لَلْمُهاجرين، وأن يكون أحد يُعازُّ[2] الأنصار وقومَه من الأوس والخزرج، وأخذ يلوم الأنصار في مجيئهم بهم، وأنهم جاؤوا بقوم فقراء فواسوهم، ومطرودين فآوَوهم وأنزلوهم ديارهم، ومخذولين فنصروهم، فلما قووا واشتدوا واتْبُوهُم وقالوا: يا للمهاجرين، وهذا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك، وينبغي لهم أن يقطعوا النفقة عنهم حتى ينفضوا عن هذا الرجل[3]، ولئن رجعنا إلى المدينة لنأخذنهم بهذا، ولنَنْضَحَنَّ لهم ـ أي نرميهم ونحاسبهم عليها ـ، وليخرجن الأعز منها الأذل.

---

(١) و في سيرة ابن هشام: أن الذي نادى أولا هو الأنصاري إذ قال: يا معشر الأنصار، والأنصاري هو سنان بن وبر الجهني. انظر لتفصيل الحادث سيرة ابن هشام ٢: ٢٩٠ **عثمان**

(٢) أي ينادي قومه ويستنفرهم ضد الأنصار كما فعل الجهجاه بقوله: يا للمهاجرين.

(٣) أي كان يتكلم عن الأنصار ويقول: ينبغي لهم...

وكان قد قال هذا بحضرة ثِقاتِه، وظن أن ذلك لن يبلغ رسول الله ﷺ، فجاء زيد بن أرقم الأنصاري وكان من أهل بيته، فأعاد على رسول الله ﷺ المجلس، فذكر ﷺ ذلك للأنصار، فجاؤوا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول فذكروا له ذلك، وأن زيد بن أرقم حكى ذلك عنه، فقال: ما قلت هذا، وحلف، وقال: قد كذب من ذكر ذلك عني، وأنا أَعْرَفُ بحق رسول الله ﷺ من أن أقول هذا، وزيد بن أرقم غلام حدث لا يدري ما يقول، فقالوا له كذا الظن بك، وأقبلوا على زيد بن أرقم يَعذِلونه، وجاء هو إلى رسول الله ﷺ مع أصحابه وخاصته يُكَذِّبون زيدا فيما حكاه، ويحلفون على ذلك، وأنهم يعتقدون في قلوبهم وضمائرهم نبوة رسول الله ﷺ وصدقه، فقبل رسول الله إيمانهم وسمع منهم، وأقبل عليهم، لا يُكذِّب زيدَ بن أرقم ولا يصدِّقه، بل أمسك عنه.

أخذه ﷺ الوحيُ كما كان يأخذه، فأقبل على أصحابه ودعا بأبي بكر وعمر، وتلا السورة سورة المنافقون، وأخبرهما بصدق زيد بن أرقم، وأنه على حداثته قد أجاب وصدق، فقال له عمر بن الخطاب يا رسول الله لم لا تأذن في قتل هذا، تقدم إلى بشر بن البر الأنصاري أو إلى غيره يقتله[1]، وتلا رسول الله ﷺ السورة على الأنصار، فقاموا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول فتَلَوا ذلك عليه وعرَّفوه ما كان، وعذلوه ولاموه ولاموا أصحابه ومن حوله ممن يريد هذا، وقالوا: إلى كم يا ويحك، وإلى متى تكون هذه الفضائح ويفضحكم الله مرةً بعد مرةٍ؟ توبوا وارجعوا، فقالوا: نتوب ونرجع.

وجاء ابنٌ لعبد الله بن أبيّ بن سلول واسمه عبد الله إلى رسول الله ﷺ، وكان مخلصا وكان برّا بأبيه شديد المحبة له، فقال: يا رسول الله، قد بلغني ما كان من أبي وما أحسب ولدا أبرّ بوالد مني، ولكني لا أرضى له ما يأتيه، وقد بلغني ما أشار به

(١) هو في سيرة ابن هشام: عباد بن بشر الأنصاري. **عثمان**

عمر، فإن أردت قتله فمرني بذلك، فإني والله أقتله مع حبي له وبرّي به، وإن قَتَلَهُ غيري خشيت ألا أصبر أن أرى قاتل أبي في الناس فأقتله فأُدْخَلَ النارَ، فقال له النبي ﷺ: لا تقتله وتأنّ به.

ولما رجع رسول الله ﷺ من هذه الغزاة يريد المدينة، فلمَّا قرب اعترض ابن عبد الله بن أبي بن سلول هذا أباه، واعتقل جمله وثنى ركبته، فقال له أبوه: مالك يا بني وما تريد، فقال له: والله لا دخلتَ المدينةَ أو تقول: رسول الله ﷺ الأعزّ وأنا الأذل، فما زال يدافعه ويسأله تركه وتخليته فلا يفعل، ويمر به الناس على طبقاتهم في سيرهم، فمنهم من يسأله الصفح عنه والتخلية له، ومنهم من لا يفعل، وأصحابه وأعوانه يرون ذلك به ويشتد حسرتهم عليه، فما أفرج ابنُه عنه حتى قال ذلك، ونادى على نفسه(١).

فتأمل ما في هذا من دلالات وعلامات وآيات بينات تدلُّ كلَّ عاقل استدل بها على نبوة محمد ﷺ وصدقه، وفيه من ذلك أكثر مما شرحنا، فتأمله تجده.

وهؤلاء المنافقون كبراء ورؤساء في قومهم، وكانوا مطاعين ولهم أتباع، وقد كان اليهود يجلسون إلى عبد الله بن أبي بن سلول ويعظمونه ويُجِلُّونه ويزيدون في ذلك لأجل عداوته للنبي ﷺ، ويبعثون الأوس والخزرج على طاعته، ويقولون: سيدكم القديم، ولحمكم ودمكم، وإنما محمد وأصحابه دخلاء فيكم.

فإن قال قائل: قد لعمري كان هذا من سيرة محمد ﷺ وأفعاله وهو بخلاف سيرة حزمة الملوك، ولن يقوم الـمُلكُ بمثل هذا التدبير، ولكن إنما فعل محمد هذا في آخر أمره وحين صار بالمدينة وصار في عساكر وجماعات، وحين استتب أمره، فألا فعل هذا بمكة؟

---

(١) راجع تاريخ الطبري ٢/ ١٠٩ ـ ١١٠، والبداية و النهاية ٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٨.

قيل له: ما في هذا طعن ولا جئت بشيء، بل ما حصَّلتَ ولا تدري ما تقول، ولو سَكَتَّ لكان أستر لك، لأنك ما زدت على أن قلت: هذا كان بالمدينة ولم يكن بمكة، وكان حين صار في عساكر وجماعات، فما في هذا من الطعن، ولو قد تدبرت لعلمت أن هذا زائد في حجته. لأنه بالمدينة ما رجع عن دعوى النبوة والصدق والعصمة كما كان بمكة، وحين صار بالمدينة وهو في عسكر، وعدوه في عسكر يقصده ويطرقه، فهو إلى الرجال وإلى التدبير بتدبير حزمة الملوك وطلاب الدنيا ومداراة من يتهم باطنه وترك مكاشفة مثل هذا أولى، فما زدتنا بسؤالك هذا إلا قوة في الحجة.

وقولك: ألا كان هذا بمكة؟ فكيف يكون بمكة وما هناك منافق ألبتة؟، وكيف ينافقونه بمكة، وهو وأتباعه كانوا بها مقهورين مغلوبين، وبها من المسلمين من يكتم إيمانه خوفا من قريش، والذين كانوا يظهرون إيمانهم بمكة قبل الفتح هم أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وأشباههم من تلك الجماعة المعروفة، على ما عليهم في ذلك من الشدة والأذية والبلية من قومهم، وسواهم من الرجال والنساء كانوا يضعفون عما يقوى عليه أولئك، فيكتمون إيمانهم، فمن أين يكون بمكة منافق، والأمر بالضد مما كان بالمدينة، فكأنك تقول له ﷺ: لِمَ لَمْ تكذب وأنت بمكة كما صدقت وأنت بالمدينة؟

وأيضا فهو كان بمكة وحيدا فريدا، ومن معه في ذلة وقلة وقبل أن يتبعه أحد، فما لَانَ لعدوه بل كاشف وبالغ فيما يُغْضِبهم ويَغِيظُهم وجَبَهَهم بالإكفار والتجهيل بمثل قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، ومثل قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ

﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ومثل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، ومثل قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، إلى غير ذلك من نظائره مما لا يكاد يحصَى لكثرته، وهذا لا يفعله حازم ولا عاقل إلا أن يكون نبيًّا كما تقدم لك شرحه في غير موضع من كتابك هذا.

***

رابعاً: إخباره عن طويات المتخلفين عن غزوة تبوك، وعما كانوا يسرونه فيما بينهم، وعما سيفعلونه بعد عودة الرسول إليهم

ومن هذا الجنس قوله تبارك وتعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبي في غزوة تبوك لقتال الروم، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]، ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي غنيمة قريبة ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي قريبا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لخرجوا معك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ لكم إذا رجعتم إليهم ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فَتبَيّنْ رحمك الله ما في هذا، فقد تقدم لك شرح نظائره.

ثم قال في أناس قالوا: استأْذِنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٣ ـ ٤٥]، وهذا في قوم معروفين استأذنوه عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ ومن أجل ذلك أعقبه بقوله تعالى ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي عن التخلف عن الغزوة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾، وبقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ...﴾.

ثم قال فيهم: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] [التوبة: ٤٦-٤٧]، وهذا خلاف تدبير عقلاء البشر، فإنهم إذا خلَّفوا مَن خلَّفوا خوفا من ضرره وهربا من شره، وقدَّموا من قدَّموا ليهلِك فيستريحون من شره، لا يُفصحون بذلك ولا يظهرونه، وإنما يظهرون خلافه، فيقولون لمن خلَّفوه: إنما خلَّفتك لحاجتي لتكون من ورائي ولثقتي بك ولتعويلي عليك، وكذا يقولون فيمن يقدمونه.

ثم قال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨]، يريد ما كان من حرصهم على قتلك واستئصالك حتى طمعوا فيك، لوحدتك ثم لضعف من اتبعك، ولقلتهم حتى جاء ما وعد الله من النصر والظفر والظهور.

أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة، رمته العرب عن قوس واحدة، وكادته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله تعالى يوم بدر وأعلى كلمته، دخل عبد الله بن أُبيّ وأصحابه الإسلام ظاهرا، ثم كلما أعز الله الإسلام و أهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

---

(١) ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي خروجهم للغزو ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ حبسهم وشغلهم عن الخروج ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟﴾ أي قال الله تعالى ذلك أي أراده ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من أهل الأعذار ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فسادا وخذلانا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ أي أسرعوا بالنميمة ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ بينكم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي تفريق الكلمة ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ مصغون إليهم.

ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، وقد كان ﷺ قال للجدِّ بن قيس: هل لك في جلاد بني الأصفر. يعني الروم. فقال هو وغيره: بل تأذن لنا فنقيم ونتخلف ولا تفتنا فتغلظ المحنة علينا بأمرك إيانا بالخروج وترك إعفائنا منه، فلعل ذلك أن يثقل علينا فنخالف أمرك فيه.

فقال الله: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي فيما ذكروا أنهم يحذرونه من المعصية والخلاف سقطوا، والنار من ورائهم محيطة بهم على أفعالهم ونفاقهم وقعودهم عنك.

ثم قال: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٥٣]، وليس من تدبير عقلاء البشر أن يقول لمن أظهر طاعته وأنفق ماله وبذل مهجته: إن هذا لا ينفعك ولا يقبل منك.

ثم قال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، وهذا من ذلك الجنس في المكاشفة.

ثم قال: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٧٤]، فقد كان للجد بن قيس ولعبد الله ابن أُبَيّ وأضرابهما ممن نافق من الأوس والخزرج أموال ظاهرة ونِعَم وأولاد، وهم جماعة كثيرة، فأخبر الله نبيّه بسوء أحوالهم في الباطن، وأن أموالهم وبال عليهم، والله يعذبهم بها بما يكلفهم من إنفاقها، فهم ينفقون أموالهم ويُكِدُّون أبدانهم ويقاتلون أولياءهم مع أعدائهم، وهذا من ذلك الجنس.

ثم قال: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[1] [التوبة: ٧٤]، وهذا في قوم من المنافقين معروفين اجتمعوا، فقال بعضهم لبعض: لئن كان ما يقول محمد حقا لنحن شرّ من الحمير، فقال رجل كانوا يظنونه منهم وهو مسلم: والله الذي لا إلٰه إلا هو إنه لحقّ ولأنتم شرّ من الحمير، ثم أتى النبيّ ﷺ فذكر ذلك له، فدعاهم فقال: أنتم القائلون كذا وكذا، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله ذلك، فقال رجل منهم: قد والله قلنا، وأرى الله قد عرض علي التوبة وبذلها لي، والله لأقبلنها؛ فتاب واعتذر، وهو معروف[2].

وقد قلت لك: إنك بعقلك تعلم أن هناك قوما هذه صفتهم، وقد قالوا ما حكاه الله عنهم وإن لم نعرف أسماءهم وأعيانهم.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فقد كان رسول الله ﷺ يعطيهم من الغنائم إذا حضروا الحرب على ظاهر الإسلام، ويعطيهم من الصدقات بظاهر الفقر، فأذكرهم الله بهذه النعم، وهذا كقولك ما لي إليك ذنب إلا نصحي لك ومحبتي إياك.

* * *

(١) ﴿وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي اسلامهم ظاهرا ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ من قتل النبي ﷺ حين عاد من تبوك، وكانوا اثني عشر من المنافقين اعترضوه في العقبة وهموا بقتله، فنبهه حذيفة بن اليمان، وكان قائد ناقته ﷺ، فصرخ بهم رسول الله ﷺ فولوا مدبرين. وقيل فيما هموا به غير ذلك.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٤ وتفسير ابن كثير ٤/ ١٨٠.

خامساً: إخبار الله تعالى

عن الذين يلمزون المطوِّعين في الصدقات

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٥]، وقد كان النبي ﷺ حث الناس على الصدقة تجهزًا لغزوة تبوك، فجاء عمر بصدقته، وجاء عبد الرحمن بِصُرَّة يعجز عنها الكَفّ، وجاء عثمان أيضا بما هو معروف من عظم صدقته، وكذلك غيرهم من الصحابة. وجاء رجل يقال له أبو عقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون: لو كان لنا مال لأعطينا أكثر مما أعطى عبد الرحمن، وقالوا لصاحب الصاع: إن الله لغني عن صاعك هذا، فلمزوا مِنْ إعطاء الكثير ومِنْ إعطاء القليل، فلهذا قال الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧٩]، فلهذا فصل الله عز وجل بين الفريقين(١).

وأما قوله: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ فإن الله لما جازاهم على سخريتهم جاز أن يقال: سخر منهم، وهذا جزاءٌ كقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، و﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، فالأولى سيئة والثانية جزاء.

ثم قال: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗا﴾ [التوبة: ٨١]، وهؤلاء قوم معروفون بأعيانهم تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك وقالوا هذا القول، وكان قد خَرَجَ في أشد ما يكون من الحرّ.

وكانت نصارى العرب قد خرجوا إلى ملك الروم يحثونه على قصده لرسول الله

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٣٨٣.

ﷺ، وقالوا له: هو وأصحابه في جهد وضرّ شديد، فانْتَهِزْ الفرصةَ فيهم. فبادَرَهُ رسولُ الله ﷺ وخرج بأصحابه وهم في ضرّ شديد وإعواز وعدم القوت، وتوجه نحو الشام في عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وأقام بتبوك ومَلِكُ الروم بدمشق، فراسله النبي ﷺ ودعاه إلى إجابته والدخول في طاعته، ووبخه، وكان له معه ما هو معروف[1].

***

(١) انظر تفسير الطبري ١٤/ ٣٩٩، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٨٩.

سادساً: إخبار الله عن أحوال المعتذرين من الأعراب وعن بواطنهم

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[1] [التوبة: ٩٠]، والـمُعَذِّر بالتشديد هو المقصر الذي لم يستفرغ وسعه، والـمُعْذِر بالتخفيف الذي قد قدم فيما بينه وبين أخيه وصاحبه ما هو غاية في العذر، وكان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ: المُعْذِرون بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر، لأن الله قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لم يأتوا فيعتذروا، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم، ويقول: لعن الله الـمُعَذِّرِين، يعني الذين يعتذرون بغير عذر.

ثم قال عن المعتذرين بغير عذر: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦][2].

---

(١) هذه الآية شروع في بيان أحوال المعتذرين من الأعراب، إثر بيان أحوال المعتذرين من أهل المدينة، فعلى قراءة التشديد كانوا من منافقي الأعراب، كاذبين في الاعتذار، وعلى قراءة التخفيف وهي مروية عن ابن عباس رضي الله عنه كانوا مؤمنين صادقين في اعتذارهم، وعلى الأول يكون المراد من قوله تعالى عقب هذا الكلام: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هم المعذِّرون من الأعراب، ويكون العدول عن الإضمار إلى الإظهار، لإظهار ذمهم بعنوان الصلة، ويكون كذبهم بادعائهم الإيمان، ويكون قعودهم عدم خروجهم إلى الغزو، وعلى قراءة التخفيف، يكون قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ حكاية عن غير المعذِّرين من منافقي الأعراب، ويكون المراد بقعودهم قعودهم عن الاعتذار، وبكذبهم إظهارَهم الإيمان.

(٢) قال الله تعالى هذا عن الذين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن غزوة تبوك وهم أغنياء، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، أخبر الله تعالى رسوله وهو في السفر أن هؤلاء المتخلفين سيحلفون له إذا انقلب إليهم من سفره ليرضى عنهم.

وكـذا يجـب على المسـلم أن يرضى ما رضـي الله وعمّن رضي الله ويسـخط ما سـخط الله، ولهـذا قـال رسـول الله ﷺ: «لا يؤمـن أحدكم حتـى يرضى بقـدر الله[1]» فالرضـى بقـدر الله واجـب، وسـخط المعاصـي فـرض لازم، فالويـل لمـن رضـي بمعاصـي الله، والويـل لمـن لم يرض بقـدَر الله.

***

(١) الحديث: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره». رواه الترمذي وأحمد.

سابعاً: قصة مسجد الضرار، وإخبار الله تعالى عن النيات الخبيثة لأصحابه ومتخذيه

قد قص الله تعالى قصة مسجد الضرار وأسفر عن النيات الخبيثة لأصحابه ومتخذيه بقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١١٠]، أي ومن المنافقين: الذين اتخذوا مسجدا ضرارا.

كان رجل من كبار الأوس يقال له أبو عامر عبد عمرو بن صيفي، وكان يعرف بأبي عامر الراهب، وقد كان أظهر الترهب وأنه يطلب الحنيفية ودين الحق. فلما قدم النبي ﷺ المدينة لقيه أبو عامر فقال: يا محمد إِلَامَ تدعو؟ فقال إلى دين الحنيفية الذي تطلبه بزعمك، فقال له: ما أنت عليه، فقال له رسول الله ﷺ: بلى، ودعاه فأبى، وحسد رسول الله ﷺ، وقال له أبو عامر: الكاذِبُ منا أماته الله غريبا شريدا طريدا، يُعَرِّض برسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: نعم فعل الله ذلك بالكاذب منا، ثم أقبل أبو عامر على قومه ينهاهم عن اتباع رسول الله ﷺ وعن طاعته ويجتهد، وأعلام رسول الله ﷺ وآياته تتزايد وتظهر، ويكثر أتباعه من قوم أبي عامر فيزداد غيظا. واتخذ مسجدا يجمع إليه الناس فيحادثهم وينهاهم من اتباع رسول الله ﷺ،

ويزعم أنه على الحنيفية، وأن دينه سيظهر ويصير في جماعة وعز، فكان يجتمع إليه قوم من المنافقين، ويجلس إليهم اليهود ويُقَوُّون منهم الخلاف على رسول الله ﷺ، ثم إن أبا عامر خرج إلى مكة وبعثهم على غزو النبيّ وحربه، ويقول: أنا معكم وقومي من الأوس معكم، فإذا لقيتم محمدا صرنا إليكم. وكان معهم في وقعة أحد، فلما تنازلوا نادى أبو عامر قومه معاشر الأوس، أنا أبو عامر فقالوا: لا مرحبا بك يا فاسق، وسبّوه ولعنوه، فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر؛ وقد كان خرج إلى مكة من قومه جماعة كثيرة وهم على رأيه في رسول الله ﷺ، وكانوا نحو خمسين رجلا، فقاتلوا المسلمين مع قريش قتالا شديدا، ثم صار أبو عامر إلى الروم ولقي قيصر ملك الروم بالشام، فدعاه إلى قتال رسول الله ﷺ والمسلمين وحرّضه على ذلك، وهوّن أمرهم عنده بضعفهم وفقرهم وقلة عددهم وكثرة عدوّهم، وخوّفه العواقب إن هو لم يفعل ذلك بما لا يأمنه من قوة الإسلام. ثم إن أبا عامر مات بالشام طريدا غريبا وحيدا كما دعا رسول الله ﷺ، وهذا أيضا من أعلامه في إجابة دعوته(١).

***

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٨٦، والبداية والنهاية ٤/ ٦٧٦.

ثامناً: قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا وما اشتملت عليه من أعلام النبوة، ومن الإخبار عمّا في ضمائرهم

وانظر إلى ما في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨][(١)]، وهذه نزلت في هؤلاء الثلاثة من المؤمنين خاصة، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة ابن ربيعة، وكلهم من الأنصار، وكان هؤلاء تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندموا واغتموا غمّا شديدا وحزنوا لذلك حزنا عظيما ضاقت صدورهم به، فأخبره الله عز وجل عن صدق نياتهم وخلوص ضمائرهم وما فيها من الحزن والغمّ بتأخرهم؛ وما كان ليتلو ذلك إلا وقد علم وتيقن ما في ضمائرهم، وفي هذا من الدلالة مثل ما تقدم، والكلام فيه مثل الكلام في ذلك، فاعرفه.

وكان تخلف عن رسول الله ﷺ في هذه الغزاة خلق كثير من المسلمين نحو ثمانين رجلا، وذكروا ما أخرهم، وصدقوا عن أنفسهم، ومنهم من لحق به بتبوك قبل أن يرجع إلى المدينة. وكانت هذه الغزاة صعبة شديدة، خرجوا في الحر الشديد، وكانوا في إضاقة وفي قلة من الزاد، وكان الزمان حريقا.

وأقبل ﷺ من تبوك، حتى إذا دنا من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا عنه من المؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: لا يُكَلَّمَنَّ رجل منهم ولا يُجَالَسْ حتى آذن لكم،

---

(١) والمراد والله أعلم: أنهم خُلِّفوا عن قبول التوبة عن الآخرين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك مثلهم، حيث جاء الآخرون إلى رسول الله ﷺ يعتذرون عن التخلف بأعذار فقبل منهم واستغفر لهم، وأما هؤلاء الثلاثة فلم يقبل منهم وأرجأ أمرهم إلى نزول القرآن في قبول توبتهم.

وأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمؤمنون حتى إن الرجل لَيُعرِض عن أبيه وعن أخيه، وحتى إن المرأة لَتُعرِض عن زوجها. فمكثوا أياما، ويجعلون يعتذرون إلى النبيّ ﷺ بالجهد، ويحلفون له، فرحمهم ﷺ واستغفر لهم. وقالت بنو سلمة لكعب بن مالك: امش إلى رسول الله ﷺ فاعتذر إليه وبايعه لعله يقبل منك، فأقبل معهم ورسول الله ﷺ جالس في المسجد يبايع، فسلم عليه، فأعرض عنه، فقيل: إن كعبا قال: لِمَ تُعْرِضُ عني يا رسول الله، فو الله ما نافقت ولا ارتبت ولا بَدَّلت، فقال رسول الله ﷺ: فما خلفك عني؟ قال: أما إني لا أعتذر إلى رسول الله ﷺ بعذر، لقد كنتُ شابا موسِرا، ولكن أصابني فتنة فتخلفت. فسمع مرارة بن ربيعة وهلال بن أمية بالذي قال كعب فقالا مثل قوله، فأعرض عنهم رسول الله ﷺ، فقاموا من عنده، فقالت بنو سلمة لكعب: والله ما أصبتَ ولا أحسنتَ، ولو اعتذرتَ لقبل منك، فقال لهم كعب: والله لا أجمع اثنتين: أتخلف وأكذب، وقد اطلع الله على ما في نفسي، فقالت بنو سلمة: والله إنك لشاعر مُفَوَّه بليغ جريء على الكلام، فقال كعب: لن أجترىء على الكذب.

فمكث هؤلاء الثلاثة قريبا من شهرين لا يكلمهم أحد من المسلمين ولا يجالسهم، حتى أعرض عنهم نساؤهم، ووَجِلوا أشد الوجل، وخرجوا من أهاليهم إلى البرية، وطلبوا الفساطيط يأوون إليها بالليل ويتعبدون الله.

وكتب جَبَلَة بن الأيهم ملك غَسَّان إلى كعب بن مالك أنه بلغنا أن صاحبك نَبَا بِكَ وأقصاك، هلُمَّ إلينا فإن لك متحولا ولا تقم على الهوان؛ فأقبل كعب بكتابه إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال يا رسول الله: ما زال إعراضك عني حتى رغب فيّ المشركون يدعونني إلى الشرك، فلم يراجعه رسول الله ﷺ. فرجع كعب أحزن ما كان وأشده كربا، وقد أقام أياما في الفسطاط ينتظر التوبة، فضاقت عليه الأرض

برحبها، فرجع إلى سلع[1] فكان يقيم به بالنهار صائما ويأوى إلى داره بالليل، حتى نزلت التوبة له ولصاحبيه ورضي الله عنهم، ورسول الله ﷺ في بيت أم سَلَمَة، فقام الرسول من الليل فتوضأ واستن (أي استاك) ثم قال لأم سلمة: الحمد لله الذي أنزل لإخواننا التوبة، فقالت: من هم يا رسول الله؟ فقال: كعب ابن مالك وصاحباه، فقالت أم سلمة: أفلا أبعث إليهم وأبشرهم؟ فقال رسول الله ﷺ: أصبحي، فصلى رسول الله ﷺ الصبح وانصرف، فاجتمع إليه المهاجرون والأنصار فقال لهم: قد تاب الله على إخوانكم الليلة، ففرح المسلمون بذلك فرحا شديدا، وسعى أبو بكر وعمر يبتدران كعبا ليبشراه، فسبق أحدهما صاحبه، فارتقى المسبوق على سلع فصاح: يا كعب بن مالك، أبشر بتوبة الله، فقد أنزل الله فيكم القرآن. وكعب جالس في مسجد قومه فسمع الصوت، فوقع ساجدا يبكي سرورا بالتوبة، واجتمعت إليه بنو سلمة رجالهم ونساؤهم يهنئونه بالتوبة، وأقبل كعب سريعا إلى رسول الله فبايعه واستغفر له وبشره بالتوبة التي نزلت فيه وفي أصحابه، وقرأ عليه: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ إلى آخر القصة[2].

وهذا كعب بن مالك أحد الشعراء والسادة والبلغاء، وكذلك صاحباه من السادة، وكانت هذه حالهم في تخلفهم، وما امتُحِنوا به وما صدقوا به عن أنفسهم، والإخبار عما في ضمائرهم، لتعلم حسن هذا التدبير، وإدلال رسول الله ﷺ بالصدق والأمانة والبعد من كل ريبة ومن كل حيلة.

***

---

(١) لتفصيل حادثة الثلاثة الذين خلفوا ومنهم كعب رضي الله عنه انظر سيرة ابن هشام ٤: ٥٣١ ـ ٥٣٧ أمر البشر. **عثمان**

(٢) راجع تاريخ الطيري ٢/ ١٨٦، والبداية والنهاية ٤/ ٦٧٩ ـ ٦٨٣.

تاسعاً: إخباره بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، ونبذة من أمثلة ذلك

وهو قوله عز وجل: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[١] [الأنفال: ١٢]، فكان ذلك كما أخبر، حتى تم أمر المسلمين وكانت العقبى لهم، وإن كان في خلال ذلك قد كانوا ينالون من المسلمين ويقتلون منهم إلا أن العقبى كانت لهم عليهم كما قد تَبَيَّنْتَ، ولهذا قال ﷺ: «نُصِرتُ بالرعب»[٢]. وقد كان المسلمون يرون ذلك، ويتحدث المشركون بما يجدونه منه، وقالت بنت للحكم بن أبي العاص لجدها: ما رأيت قوما كانوا أسوأ رأيا ولا أعجز في أمر رسول الله ﷺ منكم يا بني أمية، فقال: لا تلومينا يا بنية لا أحدثك إلا ما رأيت بعينيّ هاتين، واعدنا مع قريش لنأخذه، فلما دنونا إليه سمعنا صوتا خَلْفَنا ظننا أنه ما بقي بتهامة جبل إلا تفتت، فغشي علينا وما عقلنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله، ثم تواعدنا ليلة أخرى فلما جاء نهضنا إليه، قال فرأيت الصفا والمروة قد التقى أحدهما بالآخر فحالا بيننا وبينه، فوالله ما نفعنا ذلك حتى رزقنا الله الإسلام[٣].

---

(١) هذا الكلام قاله الله تعالى للملائكة حين أمد المؤمنين بهم يوم بدر، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وإلقاء الرعب في هذه الآية وإن كان خاصا بوقعة بدر إلا أن إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا أمر عام، واقع منذ بعثته ﷺ إلى يوم القيامة، والمصنف أورد الآية كمثال لإلقاء الرعب للإشارة إلى الأمر العام، وأيدها بالحديث المتفق على صحته: «نصرت بالرعب من مسافة شهر». متفق عليه. هذا في أصل الرعب وهو موجود دائما في حال ضعف النبي ﷺ وحال قوته، لكنه يختلف قوة وضعفا بحسب تلك الأحوال.

(٢) متفق عليه.

(٣) كان الحكم بن أبي العاص أحد نفر يؤذون رسول الله ﷺ: وهم أبو لهب، وعقبة ابن أبي معيط، =

ولقد قال لهم أبو جهل: هل يُعفّر محمد وجهه بين أظهركم، قالوا: نعم قال: فالذي يُحْلَفُ به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فقيل له ذات يوم: هو ذاك يصلي، فانطلق إليه ليفعل به ما قال، فما رأيناه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده، قالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: بيني وبينه خندق وهول وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا[1].

واجتمع مرة الملأ من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فقالوا: قد التبس علينا أمر محمد، فلو علمنا رجلا يعلم الشعر والسحر والكهانة بعثنا به إليه يكلمه ويأتينا ببيان أمره، فقال عتبه بن ربيعة: أنا أعرف الكهانة والشعر والسحر، وقد علمت منه علما، فأنا آتيه فلا يخفى عليّ أمره، فأتاه فقال: يا محمد، أأنت خير أم عبد الله؟ أأنت خير أم هاشم؟ أأنت خير أم عبد المطلب؟ فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا وتفعل وتفعل، إن كانت بك الرئاسة جعلناك رئيسا علينا حتى تموت، وإن كان بك الباه زوجناك عشرة نسوة تختارهن من قريش، وإن كان بك المال أعطيناك ما تستغني به وعقبك، والنبيّ ﷺ ساكت؛ فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ: يا أبا الوليد قد قُلْتَ، فاسمع: ثم قرأ ﷺ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ إلى قوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسك عتبة على فم رسول الله ﷺ وقال: أنشدك بالرحم لـمَّا كففت. ثم رجع إليهم فقالوا له: يا أبا الوليد رجعت بغير الوجه الذي ذهبت، فقال: يا قوم أمسكوا عن هذا الرجل فإن تم أمره فشرفه لكم، ومضى إلى منزله، فقال أبو جهل: ما أرى عتبة إلا قد صبأ

= وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي، والحكم، وكانوا جيران الرسول، ولم يَسلم منهم إلا الحكم. سيرة ابن هشام ١: ٤١٦. **عثمان**

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٢٦.

واتبع محمدا، انطَلِقُوا بنا إليه، فأتوه، فقال أبو جهل: ما نراك إلا قد صبأت واتبعت محمدا، فغضب وأقسم ألا يكلم محمدا أبدا، قال: ولكني أتيته، وقص عليهم ما قاله له، قال: فقرأ عليّ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت على فيه وناشدته بالرحم، وعلمت أن محمدا لا يكذب، وخفت أن يأتيكم العذاب[1].

وقال الزبير بن العوام وهو يذاكر الناس بحال رسول الله وحالهم بمكة قبل الهجرة: رأيت نفرا من المشركين حول الكعبة ورأسهم يومئذ أبو جهل، وأقبل رسول الله ﷺ وهم يتآمرون بمناهضته، فقال لهم: قَبُحْتُم وقَبُحَ ما اجتمعتم له، قال: فخرسوا فما منهم إنسان يكلمه، ولقد رأيت أبا جهل وهو يعدو في إثر رسول الله ﷺ يعتذر إليه ويقول: يا محمد أمسك عنا ونمسك عنك، ورسول الله ﷺ يقول: لا أمسك عنك حتى تؤمن بالله أو أقتلك، فقال أبو جهل: وأنت تقدر على قتلي، قال له رسول الله ﷺ: الله يقتلك ويقتل هؤلاء معك، فوّلى أبو جهل وأصحابه فما بقي من أولئك أحد إلا قتل، والصحابة يتذاكرون ذلك ويتعاودونه.

وقصة أخرى كانت لقريش مع رسول الله ﷺ بمكة، قد قَدِمَ رجل من أراش بإبل له إلى مكة، فابتاعها منه أبو جهل بن هشام فمطله بأثمانها، فأقبل الأراشيّ حتى وقف على نادي قريش، فقال: يا معشر قريش، إني غريب وابن سبيل، وقد غلبني أبو الحكم بن هشام على حقي، فرجل منكم يأخذ حقي منه؟ ورسول الله ﷺ جالس في ناحية المسجد. فقال أهل المجلس للأراشيّ[2]: ترى ذلك الرجل، يعنون رسول الله، إنه نديم أبي الحكم، اذهب إليه فهو يأخذ لك حقك منه، يهزؤون

---

(١) راجع البداية والنهاية ٣/ ٢٧٥ ـ ٢٧٨.

(٢) أراشي نسبة إلى قبيلة عربية.

به، لما يعلمون من شدة عداوة أبي جهل لرسول الله ﷺ، والأراشي لا يعرفه، فأقبل الأراشيّ حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حقي قِبَلَه وأنا غريب وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي حقي فأشاروا عليّ بك، فخذ لي منه بحقّي رحمك الله، فقام رسول الله ﷺ معه، فلما رآه أهل المجلس قد قام معه قالوا لرجل منهم: اتبعه وانظر ما يصنع.

فجاء رسول الله ﷺ إلى أبي جهل فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال محمد: اخرج إليّ، فخرج إليه وما معه روحه، وقد امتقع لونه، فقال له رسول الله ﷺ: اعط هذا الرجل حقه، فقال: نعم، لا يبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فقال للأراشيّ: الحق بشأنك، فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرا، فقد والله أخذ لي حقي، وجاء الرجل الذي بعثوه معه، قالوا له: ما الذي رأيت؟ قال عجبا من العجب، والله ما هو أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه، فأعطاه حقه. ثم لم يلبث أن جاء أبو جهل فقالوا له: مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت، وتحدثوا بأنهم هم أشاروا على الأراشيّ محمدًا هزءًا بالأراشي لمَاًّ سألهم وجيها عندك ونديما يأخذ له حقه، وما ظنوا أن رسول الله ﷺ يسأله ولا إن سأله في الأراشيّ إلا منعه وحرمه ونال منه ومن محمد، فقال لهم أبو جهل: ويحكم! والله إن هو إلا أن ضرب عَلَيَّ بابي وسمعت صوته فملئت رعبا وخرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني(١).

ومرة أخرى اجتمع الملأ من قريش في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣/ ٢٥٠.

وبآلهتهم كلها لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت بنته فاطمة عليها السلام تبكي حتى دخلت عليه فقالت: يا أبت إن هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك ولو رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك فقال: يا بنية أدني وَضوءًا، فتوضأ ثم دخل المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم وسقطت أذقانهم على صدورهم، فلم يرفعوا إليه بصرا ولم يقم إليه منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم وأخذ قبضة من تراب ثم قال: شاهت الوجوه، ثم حصبهم بها فما أصاب رجل منهم من ذلك الحصباء إلا قتل كافرا.

ومرة أخرى كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت ويده في يد عثمان بن عفان، وفي الحجر عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل، وأمية، فمر بهم رسول الله بين أبي بكر وعثمان، فلما حاذاهم أسمعوه ما يكره، وأدخل أصابعه في أصابع عثمان وطافوا جميعا فلما حاذاهم أيضا قال أبو جهل: والله ما نصالحك ما بلّ بحر صوفة، أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا. ثم مضى عنهم وصنعوا به في الشوط الثاني كذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، وقام أبو جهل يريد أن يأخذ مجمع ثوبه، فدفعه عثمانُ في صدره فوقع لقفاه، ودفع أبو بكر أميةَ بن خلف، ودفع رسولُ الله ﷺ عقبةَ بن أبي معيط، فأفرجوا عن رسول الله ﷺ، فقال لهم ﷺ: أما والله لَيَحُلَّنَّ بكم عقابه عاجلا، فما منهم رجل إلا رُعب وأخذه أفكل[1]، ثم قال لهم وهم في تلك الحال من الرعب: بئس القوم أنتم لنبيّكم، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أبي بكر وعثمان، فقال: «أبشرا فإن الله مظهر دينه ومتمم كلمته وناصر نبيّه، إن هؤلاء

---

(١) أفكل كأحمد أي رعدة.

الذين ترون يُجْري الله ذبحهم بأيديكم عاجلا، فقال عثمان وهو يذاكر الصحابة بهذه القصة: فو الله لأجرى الله ذبحهم على أيدينا يوم بدر.

وقال بعض العرب: وقد كان مع عدو رسول الله ﷺ في وقعة حنين: إن محمدا لما أخذ كفا من الأرض ورمانا به وقال: شاهت الوجوه، وجدنا في قلوبنا الرعب.

ولسنا نقول: إن الله كان يمنع منه ﷺ في كل وقت ويرعب عدوه منه في جميع الحالات، بل قد ضربوه وسحبوه وخنقوه ووضعوا التراب على رأسه والسّلا والفرث وأخافوه، ولكن بيّنا أن الرعب قد وقع كما قال الله، وقامت به الحجة وانتقضت به العادة، فليس يقدح في ذلك أن لا يكون في كل وقت، كما أن العادة انتقضت بقتال الملائكة يوم بدر، فليس يقدح في ذلك ألا يكونوا قاتلوا يوم أحد(١).

***

(١) وأولى مما قاله المصنف أن يقال: إن أصل الرعب مستمر من أول بعثته إلى يوم القيامة، لكنه يختلف قوة وضعفا بحسب قوة النبي ﷺ وقوة أمته وضعفها، وإنما فعلوا به ما فعلوا خوفا منه ومما سيؤول إليه أمره من ظهور دينه وقضائه عليهم وعلى أديانهم.

عاشراً: قصة جلاء بني النضير من اليهود
وما تقدمه من خيانتهم وهمهم بقتل الرسول، وإخباره عما أسرّه المنافقون من قولهم لبني النضير:
﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾
وإخباره عن كذبهم في قولهم هذا

من الدلالة على نبوته، أن بني النضير من اليهود غدروا به بعد مهادنة كانت بينه وبينهم، وذلك أن اليهود وفيهم بنو النضير استعادوا الأمل في القضاء على المسلمين بعد غزوة أحد، فأخذوا يتسلحون ويتعاونون مع أعداء المسلمين، وكان المسلمون مطلعين على أعمالهم هذه ودسائسهم، وكان الرسول ﷺ يتغاضى عنها، ثم خرج هو ونفر من أصحابه إلى بني النضير يستعينهم في دية قتيلين قتلهما عمرو بن أمية الضمري خطأ بموجب المعاهدة التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، وجلس إلى جنب جدار، فاتفقوا على أن يعلو أحدهم سطح المنزل، فيلقي على الرسول صخرة أو رحى كبيرة فيتخلصوا منه، فأعلم جبريل الرسول بما بيتوه فقام مسرعا إلى المدينة، فأرسل إليهم: أنكم غدرتم بي ونقضتم الصلح الذي كان بيني وبينكم، ومع هذا يصعد عمرو بن جحاش ليطرح عليّ صخرة ليقتلني حتى أطلعني الله على ذلك، فاخرجوا من جواري. فأرسل إليهم عبدُ الله بن أبي بن سلول بغير واحد من أصحابه يشجعهم ويقول لهم: لا تخرجوا من دياركم فإنّا معكم ومن ورائكم، فإن قاتلكم محمد قاتلنا معكم ونصرناكم، وإن أخرجكم خرجنا معكم، فأطلع الله نبيّه على ذلك، فقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٢].

فتلا رسول الله ﷺ هذه على الناس وأخبرهم بما كان من المنافقين وبما أسرّوه إلى اليهود ونادى بفضحهم، ثم سار إلى بني النضير ونزل عليهم وأخرجهم من ديارهم وأجلاهم، فلم يخرج معهم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه كما ضمن لهم، وقد قاتلهم النبيّ ﷺ فما نصروهم[1].

فتأمل كيف أخبر بما أسرّوا، وبما تراسلوا، وبما قد كان من كيدهم، وعما لا يكون أن لو كان كيف يكون، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، ثم كان جميع ذلك كما أخبر وكما فصل، وفي هذا غيوب كثيرة لا تكون لأحد من المتخرصين، إلا لنبيّ صادق من الله.

* * *

(١) راجع تاريخ الطبري ٢/ ٨٣، البداية والنهاية ٤/ ٢٥٩ وما بعدها.

خاتمة في دفع بعض الشبه عن رسالة الرسول ﷺ

بيان بطلان دعوى المستترين بالتشيع

أنه يجوز على رسول الله ﷺ التقية وكتمان الحق وإظهار الباطل مما يفقد الوثوق برسالته ويكون منافياً لها

فتدبر ما يقرأ ويُكْتَب لتعرف أعلام النبوة، وتظهر لك حيل المحتالين على المسلمين في تشكيكهم فيها، وإخراجهم من الإسلام من حيث لا يشعرون، فإن قوما من الذين قدمنا ذكرهم حين كادوا الإسلام تستروا بالتشيع، وقالوا: يجوز على أنبياء الله وحُجَجِه(١) تزكية المشركين ومدح الكافرين وشتم النبيّين والبراءة من الصديقين على طريق الخوف والاتقاء، وإنما قالوا ذلك لِماَ قد قهرهم من مدح رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين لأبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعة من المهاجرين والأنصار، فقالوا: إن هذا المدح على طريق الخوف من هؤلاء واتقاءً لهم ولبأسهم، وأنت ترى مكاشفة رسول الله ﷺ للأعداء في حال الوحدة وهو خائف يترقب، وهو في أيديهم وفي قبضتهم مقهورا مغلوبا، وقد تقدم شرح ذلك، وتقدم لك أيضا أن هؤلاء المهاجرين والأنصار قد علمنا أنهم أحباب رسول الله ﷺ وأولياؤه وثقاته وأمناؤه، وأنه كان يحبهم ويتولاهم، وأن العلم بذلك قبل العلم بنبوته، وأنه قد فرض على أمته وأهل طاعته محبتهم وموالاتهم، كما فرض عليهم

---

(١) جمع حجة يقصدون بهم الأئمة من أهل البيت.

البراءة من الوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة بن ربيعة وأمثالهم من أعدائه من قريش، ومن اليهود والنصارى على ما تقدم لك من شرح ذلك، وقد تقدم لك أيضا أن أنبياء الله وحججه لا يجوز أن يتقوا ـ أي يعملوا بالتقية ـ وإن خافوا وإن غُلِبُوا وإن قُهِرُوا، لأن ذلك يفقد الوثوق برسالته ويورث الريبة في أقواله وأفعاله، وهذا منافٍ لطبيعة الرسالة.

***

ومما يناسب هذا عرض أقيال العرب على الرسول أن يجعل لهم يوما يجالسهم فيه، وللفقراء والموالي يوما، ونزول الآيات في منع الرسول ﷺ من ذلك وبيان أن الرسول ﷺ كان يقدم الناس على حسب سابقتهم، لا على حسب مناصبهم

وأعجب الأمور أن رؤساء الجاهلية وأقيال العرب والمتبوعين والمطاعين كعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس، وعامر بن الطفيل، وأضرابهم قالوا لرسول الله ﷺ: إنا نحب أن نجلس إليك ونسمع منك ونحن وجوه الناس، وإنما حولك هؤلاء الفقراء والعبيد كصهيب بن سنان، وخبّاب بن الأرتّ، وعمّار ابن ياسر، وبلال، وأرواح ثيابهم كأرواح الجلود العطنة، ونكره أن ترانا العرب معهم، فاجعل لنا يوما ولهم يوما، فهمّ رسول الله ﷺ بذلك ولم ير به بأسا، رجاءً لإسلام هؤلاء وأنهم متبوعون مطاعون يسلم بإسلامهم الخلق الكثير، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] [الأنعام: ٥٢]، وقد كان قوم من هؤلاء

(١) راجع تفسير الطبري ١١/ ٣٧٤.

الرؤساء الذين قدمنا ذكرهم قالوا: يُقَدِّمُ هؤلاء العبيد والموالي والفقراء علينا، فأنزل الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٣ ـ ٥٤].

وفي هذا المعنى نزل قوله عز وجل: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

فانصرف رسول الله ﷺ عن ذلك العزم ولم يفرد أولئك الرؤساء بمجلس يخصهم، وقدّم هؤلاء الفقراء والعبيد والموالي، فكانوا أقرب الناس إليه، يجلس إليهم ما جلسوا، ولا يقوم عنهم حتى يقوموا. وقد كانوا عرفوا ذلك منه، وكانوا إذا أقبلوا يقول لهم: سلام عليكم مرحبا بكم، بأبي من عاتبني فيهم ربّي، اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين، يريد المتواضعين للمسلمين.

فتأمل هذا التدبير، وكم كان من الرؤساء من قريش وغيرهم يبطئهم عن الإسلام أنهم قد علموا أنهم إذا أسلموا لم يتقدموا عند رسول الله ﷺ على هؤلاء الموالي والعبيد، بل لم يكن رسول الله ﷺ يسوي بينهم، وإنما كان الناس يتقدمون عنده على السابقة والهجرة والبصيرة.

فلما فتحت مكة وأسلمت العرب ويئس عدو الإسلام من الطمع فيه تحدث أبو سفيان وأمثاله من بني عبد مناف، أن الذي أخرنا عن الإسلام أنا حسدنا بني عمنا من بني هاشم.

ولقد أوفى الحارث بن هشام على مرقب[١] حين خرج من مكة، فلم يبق بها نافخ ضرمة إلا خرج مودعا له ومستوحشا لفراقه، فقال: ما بلد أحبّ إليّ من بلدكم ولا قوم أحب إلي منكم، ولكن حدث هذا الأمر فسبق إليه رجال ليسوا من أقدارنا، ولئن سَبَقَنَا عمار وبلال وصهيب إلى الإسلام فلن يسبقونا إلى الجنة، وأنا حبيس في سبيل الله ما حييت. فكان منه ومن عكرمة ابن أخيه وغيرهما من بني مخزوم وهم كانوا أعداء رسول الله ﷺ ومن مُسْلِمَةِ الفتح من الجهاد في سبيل الله وفي قتال المرتدين بعد وفاة رسول الله ﷺ حتى ردوهم إلى دين الإسلام، ومن جهاد الفرس والروم، ومن الصبر على تلك الشدائد، ما هو مذكور في كتب العلماء.

وفي هذا المعنى ما كان آذِنُ عمر بن الخطاب يَخْرُجُ وببابه سادات العرب فيقول: أين بلال؟ أين عمار؟ أين صهيب؟ أين خبّاب؟ فينهضون مقدّمين مكرّمين، وبالباب سهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وعيينة بن حصن، وأمثالهم من السادة. فنظر إليهم سهيل بن عمرو وقد تمعرت وجوههم من جلوسهم بالباب والإذن لأولئك قبلهم، فقال لهم: ما لكم معشر العرب تتمعر وجوهكم، هؤلاء قوم دُعُوا ودعينا فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم اليوم بباب عمر، لَمَا أعدّ الله لهم في الجنة غَدًا أفضل، وهذا سهيل بن عمرو كان من أعداء رسول الله ﷺ ومن أشدهم عليه، وهو من مُسلِمَة الفتح، فاسمع قوله وتأمل أمره.

وكم كان يحدّث معاوية وآل أبي سفيان وآل مروان في ملكهم وفي سلطانهم بعد مضي أئمة الهدى أن الذي أخرهم وأخر أباهم عن الإسلام الأنفة أن يكونوا كمن قد قدمنا ذكره.

---

(١) أي موضع عالٍ

ومنهم من أخره الحسد والمنافسة، ومنهم من أخره منع إخوانه وساداته. وهذا باب مفرد.

وقد علمت أن الملوك والجبابرة قد تكون لهم الهفوات والزلات فتقف عليها ثقاتهم ووزراؤهم وشركاؤهم في الملك ومن يخافهم على دمه في التحدث بعيوبهم، فيحدثون به في حياتهم ويلقونه إلى ثقاتهم، ولا يملكون أنفسهم لثقل الكتمان على الناس، فأما إذا مات الملك أو الرئيس فيحدثون به كل أحد مجاهرين، هكذا جرت العادة ودلت عليه العبرة، وهؤلاء تحدثوا بهذا في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته، لتعلم وثاقة أمر النبوة وأن أمرها وأساسها وضع على مثل الجبال.

وما كنا في هذا الباب وإنما كنا في بطلان قول الذين رموا الأنبياء بكتمان الحق وإظهار الباطل، فاتصل الكلام بما أشبهه فخرجنا إلى هذا.

***

إبطال دعوى الرافضة أنه يجوز للرسول التقية وكتمان الحق وإظهار الباطل

ثم عدت إلى بيان بطلان قول هؤلاء فتأمل قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ﴾ [عبس: ١ ـ ١١].

وقد كان بعض سادات العرب وأغنياؤهم قصد رسول الله ﷺ ببعض شأنه، فأقبل ﷺ على كلامه رجاء إسلامه وأتاه في تلك الحال ابن أم مكتوم ـ وكان أعمى ـ

يكلمه، فتشاغل رسول الله ﷺ عن جوابه بذلك السيد فعاتبه الله هذا العتاب في شيء هذا قدره[1].

فكيف يسوغ أن يظن عاقل متأمل بالنبيّ ﷺ ما ادعاه هؤلاء عليه مما هو منافٍ لطبيعة رسالته!!

***

قصة تزوج الرسول
بزينب بنت جحش بعد طلاق زيد إياها

تأمل قوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وهذه نزلت في قصة زينب بنت جحش، وكانت بنت عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد زوجها بزيد بن حارثة وكان مولى[2].

وكان قد زوّج أيضا ضباعةَ بنت الزبير بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ المقدادَ بن الأسود وكان من الموالي، أراد رسول الله ﷺ إبطال مذاهب الجاهلية في الأَكْفَاءِ، وكانت زينب هذه شرسة الأخلاق كثيرة النِّقَار لزيد والخصومة له، وكان ذلك يشق على رسول الله ﷺ ويكره أذيّة زيد، وكان زيد لا يصبر ولا يطيق أخلاقَها، وكان رسول الله ﷺ كالمتندم على تزويجها به، ويقول في نفسه: ليتني كنت تزوجتها، فكنت أحق باحتمالها والصبر عليها من زيد وغيره لقربها مني، وكان زيد إذا همّ بطلاقها نهاه رسول الله ﷺ عن ذلك، وقال: «اصبر واحتمل وأمسك

(١) راجع تفسير الطبري ٢٤/ ٢١٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٢.

عليك زوجك»، فلم يصبر زيد، فطلقها، فأحب رسول الله ﷺ أن يتزوجها فكره استحياء من زيد وغيره، فقال الله عز وجل له هذا القول في شيء ليس بمعصية، ثم أمره بالتزويج بها لِـمَا أراده ونواه من صلة رحمه، ولئلا يُحرَج المؤمنون في التزوُّج بأزواج أدعيائهم ومن يتبنّونه ولم يكن من أصلابهم، فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾(1) [الأحزاب: ٣٧].

فتأمل هذه الأقوال في هذه الأمور الصغار، وتأمل دعوى هؤلاء على رسول الله ﷺ كأنما يحدثونك عن مُسَيْلَمَة أو عن كسرى وقيصر في سيرتهم، لا عن محمد رسول الله ﷺ وسيرته وتدبير الله له.

❊ ❊ ❊

دفع شبهة أن الصحابة
قد اتبعوا محمدا ﷺ لأجل الغنائم

فإن قيل: أو ليس قد أباحهم الغنائم، فما تنكرون أن تكون إجابتهم له لهذه العلة؟ قيل له: هذا لا يَسأَلُ عنه مَن يعقل ولا من يفكر، لأن القوم قد اعتقدوا صدقه ونبوته، فكانت إجابتهم له لهذا تقربا إلى الله عن رضى بذلك، فمن ادعى غير هذا فقد أنكر المعلوم، أو يكون لم يسمع الأخبار.

فهم إنما أجابوه على أن ينفقوا أموالهم ويسفكوا دماءهم ويقتلوا آباءهم وأبناءهم في طاعته ولأجله، فكيف يسوغ لعاقل فكّر وتدبّر أن يقول: إنما أجابوه طلبا للدنيا ورغبة في الراحة والدعة، والأمرُ بالضد من ذلك.

---

(١) راجع تفسير الطبري ٢٠/ ٢٧٤، تفسير البغوي ٦/ ٣٥٤.

وبعدُ فإنْ لم يكن نبيّا فهم لا يدرون هل يصل إلى غنيمة؟ ولعله لا يتم له شيء مما يَعِدُ، فما كانوا ليتبعوه لما يظنه الخصم.

ولولا أن هذا القول بأنهم قد تبعوه لأجل الغنيمة قد كان في أهل الذمة وطبقات الزنادقة، وتعدى إلى قوم زعموا أنهم من المسلمين لَمَا ذكرناه، ولكنه شيء يستزلون به المسلمين الذين لا ينظرون ولا يفكرون فيما هذا سبيله، ويغترون بالظاهر.

***

شبهة أن الانتصار ليس من دلائل النبوة، فقد حصل الانتصار لكثير من طلاب المُلك كبني العباس

فإن قيل: أفليس بنو العباس، قد كانوا مقهورين ومغلوبين ببني أمية، فدَعَوا إلى أنفسهم بخراسان[1] فأجيبوا، وصاروا في عساكر وجماعات، فغلبوا بني أمية على الملك، وقتلوهم وأخذوا كل ما في أيديهم إلا بلاد الأندلس من أرض المغرب، فلِمَ لا يكون سبيل نبيكم وغلبته هذه السبيل؟ وإلا فقد لزمكم أن تقولوا بنبوة بني العباس كما قلتم بنبوة صاحبكم.

قيل له: قد فرغنا من هذا مرة وتبيّنا الجوابَ فيه، وهو أنا لم نقل بنبوة محمد ﷺ لأنه صارت له رئاسة وصار متبوعا وصارت له عساكر، ولكن لأنه أخبر بالأمور قبل كونها على غير مجرى العادة، بل على ما هو نقض للعادات، لأنه أتى الناس وهو وحيد فقير أجير، فأغضبهم وغاظهم وجادلهم وعادوه، وأخبر أنهم سَيُغْلبون، وأنه

(١) يشير القاضي الى الدعوة العباسية التي حمل العبء الأكبر في تأسيسها ابراهيم بن محمد بن علي بن عبيد الله بن العباس، وقد بويع بعده لأخيه أبي العباس عبد الله بن محمد وذلك في سنة ١٣٢هـ. **عثمان**

يغلبهم ويقهرهم، وقالوا: بل نحن نغلبك ونُدَبِّرُك، وكان موجَب التدبير ومقتضى الحزم أن تكون الغلبة لهم لا له، إلا أن يكون من قبل الله ورسولا لله، لأنهم واليهودَ والنصارى والفرسَ والمجوسَ يد واحدة في عداوته والقصدِ لقتله، وإطفاء نوره ولمنع اتّباعه، والرجال والكراع[1] والسلاح مع عدوه لا معه، فآلت الأمور إلى ما قاله، وكما أخبر، وعلى ما فسر.

و لم تكن هذه سبيل بني العباس؛ فإنهم ما ادعوا نبوة ولا رسالة، ولا أتوا مثل ما أتى من الإخبار بالغيوب.

***

شبهة أن أمر محمد ﷺ قد تم بالسيف وليس بالآيات والمعجزات، ودفعها بوجه واضح مبسط

فإن قيل: أَوَليس مع ادعائه النبوة قد حمل السيف على من خالفه، وحارب بمن أطاعه من عصاه، فما تنكرون أن يكون الذي تم له من أوله إلى آخره إنما تم بالسيف وبالمكابرة، لا بالآيات والمعجزات؟

قيل له: ما أنكرنا أنه حمل السيف، وإنما كلامنا في الذين صاروا سيوفا له وعساكر وبهم استطال على عدوه، فإن هؤلاء قد أجابوه بلا دنيا ولا سيف كما قد قدّمنا وبينا، وبمصيرهم إلى طاعته صحت أعلام نبوته وظهرت دلائل رسالته، لأنه ما خَلَقَ قوما حملوا السلاح معه، وإنما أجابه المهاجرون والأنصار الذين هم من قريش وغيرهم من العرب، وقد أتاهم بإكفارهم وإكفار آبائهم على ما شرحنا وبينا،

---

(١) الكراع: جماعة الخيل.

وهو من الوحدة والفقر على ما ذكرنا، فمكث بمكة بعد ادعائه النبوة خمس عشرة سنة يدعو إلى دينه، فيجيبه النفر بعد النفر على خوف شديد، وقد تجردت قريش وغيرهم من أعدائه له ﷺ ولمن اتبعه وأطاعه، فيقصدونهم بالضرب والتعذيب الشديد، ويمنعونهم الأقوات، ويتعاهدون على أن لا يبايعوهم ولا يشاروهم ولا يناكحوهم، وقد كتبوا في ذلك الصحف[١]، وقد قتلوا منهم قبل الهجرة رجالا ونساء، وكانوا يرصدون لرسول الله ﷺ ولدعاته إذا خرج إلى الموسم لدعاء الناس وإظهار ما معه وتلاوة القرآن، فيقولون للعرب: هذا منا وقد صبأ[٢] وهو ساحر كذاب، فلا تطيعوه ولا تسمعوا لما معه، فنحن أعلم به، وقد سفه أحلامنا، وضلل أدياننا، وأكفر آباءنا، وفرق آلافنا، وأفسد أحداثنا وعبيدنا ونساءنا.

ثم كان هو ﷺ يُرْجَمُ ويُضْرَبُ الضرب المُبَرِّح، ويداس ويطرح على رأسه الفرثُ والترابُ، ويلقى من المكاره هو ومن اتبعه ما يطول شرحه[٣]. فلم يكن لأصحابه مع شرفهم وشرف أهلهم قرار، ولا أمكنهم المقام للشدائد التي تنالهم، حتى فروا بدينهم في الأمصار والبلدان حتى عبروا البحار وصاروا إلى أرض الحبشة[٤]، فَتَعَرَّفُ قريش

---

(١) لما رأت قريش أن أمر النبي ﷺ في ازدياد وأن عمه أبا طالب يحميه منهم ائتمرت بينها أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على أن لا يُنكحوا إلى بني هاشم وبني المطلب ولا يَنكحوهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعوا منهم، وقد انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شِعْبِه إلا عمه أبو لهب فإنه ظاهر قريشا. وقد أقام المسلمون على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جُهِدُوا. الطبري ١: ١١٩٠. **عثمان**

(٢) صبأ: خرج من دين إلى دين آخر.

(٣) انظر الطبري ١: ١١٩٨ ـ ١١٩٩. **عثمان**

(٤) كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثة النبي ﷺ، وقال بعض المؤرخين: إن عدد المسلمين المهاجرين كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة. الطبري ١: ١١٨١، وقال بعضهم بل =

أخبارهم وإلى أين توجهوا، فترسل في طلبهم، وتغري بهم وتُنَفِّرُ عنهم وتنفق في ذلك الأموال. فأرسلوا إلى النجاشي ملك الحبشة وهو إذ ذاك نصرانيّ بمن ينفّره عن المسلمين الذين فرّوا بدينهم إلى أرض الحبشة، وحَمَلت إليه قريش هدايا ولاطفوه، وقالوا له: إن هؤلاء قوم منا، وقد اتبعوا رجلا منا فأفسدهم، وهو عدونا وعدو النصارى، وهو يقول في المسيح: إنه عبد مخلوق، فسَلِّموهم إلينا.

وكان هناك عثمان بن عفان ومعه امرأته رُقَيَّة بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ومعه أسماء بنت عُمَيْس، وخالد بن سعيد بن أبي أحيمة، والزبير بن العوام(١)، وعمار بن ياسر(٢)، وأبو حذيفة بن عتبة(٣)، ونحو مائة من وجوه المهاجرين، وكانت لهم مع رسول قريش إلى النجاشي مجالس وخصومات طويلة، فصارت العقبى للمسلمين، وقامت حجتهم، وعرفها النجاشي ملك الحبشة، فأسلم واستبصر(٤).

وما زال رسول الله ﷺ يَعْرِض نفسه على أهل المواسم إذا اجتمعت قبائل العرب، وخرج إلى الطائف(٥) يدعو إلى الله ويقول: أنا رسول الله فمن يجيرني حتى

= كانوا اثنين وثمانين رجلا. الطبري ١١٨٣. **عثمان**

(١) الزبير بن العوام الصحابي المشهور المتوفي سنة ٣٦هـ، ولمعرفة خالد بن سعيد بن أبي أحيمة (العاص) انظر الإصابة ١: ٩١، ولبنت عميس وجعفر الإصابة ١: ١١، وأسماء هي زوجة خالد بن سعيد. **عثمان**

(٢) عمار بن ياسر الصحابي الجليل المتوفي سنة ٣٧هـ، وقد شهد بدرا وأحدا والخندق وليلة الرضوان، انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ٢: ٤٦٩. **عثمان**

(٣) هو أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، هاجر إلى الحبشة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو. **عثمان**

(٤) كان النبي ﷺ يَذكُر النجاشي بالخير دائما، وقد نعاه بنفسه للمسلمين سنة تسع من الهجرة. **عثمان**

(٥) كان ذلك بعد وفاة أبي طالب عم الرسول ﷺ، فقد خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثَقِيف فرده =

أبلغ رسالة ربي؟ وقريش تتبعه وتمنع من اتّباعه. وقد عرض نفسه على القبائل[1]، ومعه أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب، وعمه أبو لهب يقول لتلك القبائل: نحن أهله وأعلم به فلا تسمعوا منه ولا تقبلوا قوله، فَتَلَقَّى تلك القبائلُ رسولَ الله بالجفاء، ويقولون له: قومك أعلم بك، ولو كان عندك خير لاتّبعوك، فأمْسِك عنا، إلى أن انتهى إلى ربيعة وإلى ذهل بن شيبان، فكلمهم وتلا عليهم القرآن، فقالوا: إنا على هذا الماء من ذي قار، وقد أخذ علينا كِسْرى ألا نحدث حدثا، ولا نؤوي محدثا، وهذا الذي أتيت به ودعوت إليه تكرهه الملوك، فإن شئت أن نجيرك إلا من الملوك فعلنا، فقال ﷺ: ما أسأتم بالرد إذ أفصحتم بالصدق، إن هذا الدين لا يكون من أهله إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن أظهركم الله عليهم، وأورثكم أرضهم وديارهم و أموالهم وأفرشكم نساءهم أتطيعونه وتعبدونه حق عبادته؟ فتعجبوا من قوله ومن إقدامه على أن مُلْك كسرى يزول بدعوته ويصير مُلْكه لأصحابه، استبعادا لذلك، واستعظاما لمُلك كسرى أن يزول بجبابرة الملوك الأقوياء الأغنياء، فكيف يزول بهذا الوحيد الفقير؟ ثم يقولون: هذا عاقل، ولم يكن ليقول هذا ويعرّض نفسه للملوك إلا وهو على ثقة، ثم انصرف عنهم وما أجابوه.

وما زال يدعو ويعرض نفسه في المواسم إذا اجتمعت العرب، إلى أن لقيته الأنصار[2]، فسمعت منه وأجابوه وأسلموا، وخرجوا إلى المدينة ودعوا إلى

= سادتها: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو ردا قبيحا، وأغرَوْا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى التجأ إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة. الطبري ١: ١٢٠٠. **عثمان**

(١) انظر تفاصيل عرض النبي نفسه على القبائل في الطبري ١: ١٢٠٠ ـ ١٢٠٩. **عثمان**

(٢) كان أول من تلقى الرسول من أهل المدينة ستة نفر من الخزرج قدموا مكة في موسم الحج، وعادوا =

الإسلام، ثم عاد قوم آخرون في سنة أخرى وبايعوه وهو مقيم بمكة، ثم عادوا في سنة ثالثة مع آخرين فبايعوه ورجعوا إلى المدينة، وظهر الإسلام بها.

والأنصار رضي الله عنهم إنما هم قبيلتان عظيمتان من قبائل اليمن، ذو بأس وشدة و أموال، وذو شوكة شديدة وعدد وعدة، قد ترددوا إليه، وسمعوا دعوته واحتجاجه، فأجابوه على البراءة من أديانهم التي كانوا عليها، ومن آبائهم، وعلى أن يبذلوا أموالهم ودماءهم، وعلى معاداة ملوك العرب والعجم في طاعته وله ولأجله. وكم قد أسلم وأجاب على هذه السبيل من قبائل العرب، كقبيلة أسلم، وكقبيلة غفار، وهما من قبائل خزاعة وكنانة[١]، وكالذين أسلموا من عبد القيس[٢]، وهم من فرسان ربيعة ورجالهم، ومن قبائل فَزارة[٣]، ومن قبائل جُهَيْنة، على هذه السبيل. وكم أسلم من أهل اليمن من ملوكها من حمير وغيرهم، إلى من أسلم من ملوك عُمان من ولد الجَلَنْدِيّ بن كُرْكُرْ[٤].

= إلى المدينة بعد أن أسلموا، فدعوا قومهم إلى الإسلام، وتوالت الوفود من المدينة إلى مكة في مواسم الحج اللاحقة، وكانت بيعة العقبة الأولى التي حضرها اثنا عشر رجلا من الأنصار، ثم كانت العقبة الثانية التي شهدها سبعون رجلا ومعهم امرأتان من نسائهم. انظر تفاصيل ذلك في الطبري ١: ١٢٠٨ ـ ١٢٢٢. **عثمان**

(١) انظر إسلام قبيلة أسلم وقبيلة غفار وفزارة وجهينة وفضائل هذه القبائل في البخاري ومسلم باب المناقب. **عثمان**

(٢) وكان قدوم وفد عبد القيس في السنة العاشرة للهجرة. **عثمان**

(٣) كان إسلام فزارة وكثير من قبائل العرب في العام التاسع للهجرة، وكان على رأس وفدهم إلى النبي خارجة بن حصن. الطبري ١: ١٧٢٠. وقد سمي العام التاسع بعام الوفود لكثرة ما ورد المدينة من قبائل العرب معلنة إسلامها. **عثمان**

(٤) انظر لفضل عمان والجَلَنْدِيّ صحيح مسلم في المناقب. وكان عمرو بن العاص رسولا من الرسول =

وكم قد أسلم من العجم والأنباط بصنعاء الذين كانوا جنود كسرى، وأخرجهم مع سيف بن ذي يزن لينتصروا لسيف من ملوك الحبشة الذين قتلوا أباه.

فالذين أجابوه ﷺ وبهذه الشرائط وبلا حرب خلق كثير، وأمم عظيمة هي مذكورة، يعرفها أهل العلم، ومن أراد أن يعرف ذلك حتى يصير في مثل حالهم قَدَرَ على ذلك ووجد السبيل إليه، فهؤلاء الذين أسلموا لله ومن خوفه وتقربا إلى الله، وهم عساكره.

ولما نشأت بدعة الخارجية(١)، وهي أول بدعة نشأت في الإسلام، ثم بعدها وبعد دهر طويل نشأت بدعة الإرجاء(٢)، ثم بعدها بدهر طويل نشأت بدعة القدر، وبعد بدعة القدر بدهر طويل نشأت بدعة الرفض(٣). فكان العلماء يقولون: لا تسبّوا أصحاب محمد ﷺ فإنهم أسلموا من خوف الله، وأسلَمَ الناسُ من خوف أسيافهم.

= ﷺ إلى ملكي عمان جيفر وعبد ابني الجَلَنْدِيّ. السيرة الحلبية ٣: ٢٥٢. **عثمان**

(١) طائفة من المسلمين كانوا من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثم خرجوا عليه بعد قبوله للتحكيم واتهموه بالكفر لذلك، وطلبوا منه أن يتوب ويجدد إسلامه، وقالوا: إن مرتكب الكبيرة كافر. وقد حاول علي أن يقنعهم فلم يستطع فحاربهم، ثم حاربهم خلفاء بني أمية. لم يبق منهم الآن إلا عدد قليل في عُمان وليبيا والجزائر. **عثمان**

(٢) المرجئة على النقيض من الخوارج، فقد قالوا: إن مرتكب الكبيرة مؤمن، وأنه لا يضر مع الإيمان كفر، وهم على درجات في عقيدتهم هذه. **عثمان**

(٣) الرافضة طائفة من غلاة الشيعة، ويسميهم القاضي أحيانا بالباطنية، وأصح الأقوال في سبب تلقيبهم بذلك أنهم طلبوا من زيد بن علي بن الحسين (وتنسب إليه الزيدية) أن يسب أبا بكر وعمر فرفض ذلك فرفضوه، ولم نجد ضرورة لتفصيل القول في هذه الطوائف لأنه ليس من مجال حديثنا. **عثمان**

وفاض الإسلام بالمدينة وفي هذه القبائل، وأقيمت فيها الصلاة، وأديت الزكاة، وأقيمت الجماعات والجمعة، وأقرئ القرآن، وصارت المدينة دار الهجرة؛ ورسول الله ﷺ مقيم بمكة محصور في الشِعب يُؤذَى ويُقصَد بأنواع المكاره هو ومن اتبعه، إلى أن هاجر إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق الهجرة المعروفة.

فبهؤلاء الذين أجابوا بلا حرب وقبل الحرب احتججنا، وهو موضع دلالتنا في هذه الآية التي أخبر وهو في تلك الحال: إنكم ستجيبونني، وإن كانت لنا في الحروب والمحاربين دلائل أخرى لعلنا نذكرها لك في كتابك هذا إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

شبهة أن أمر محمد قد تم بدفاع عمه أبي طالب عنه وبنصر أبي بكر وعمر له

فإن قيل: أو ليس قد كان يدافع عنه عمه أبو طالب وإن كان على غير دينه، ويشفع إلى قريش فيه، ويعاتبهم في بابه، ويذكرهم بصدقه وأمانته، وقد كان ﷺ معروفا فيهم قبل الرسالة بمحمد الأمين، ويسألهم الكف عنه وعن أذيته، وقد نصره أبو بكر الصديق وصدّقه وكاشف[1] في بابه، وأنفق ماله في نوائب الإسلام وفي عتق المعذبين في الله واتبعه من أهل مكة جماعة، وأسلم عمر قبل الهجرة وكاشف، وقال: لا نعبد الله سرا، فكيف ادعيتم له الوحدة وعليه الغلبة وهو بمكة؟

---

(١) كاشفه بالعداوة: باداه بها. انظر القاموس: مادة كشف **عثمان** أي كاشف أعداءه بالعداوة.

قيل له: قد علمنا أنه حين دعا كان وحده والناس كلهم على خلافه، وليس في إجابة هؤلاء ومدافعة أبي طالب طعن فيما استدللنا، بل هو من الدلائل على ما قال ﷺ قبل أن يجاب: إنه يستجاب وينصر، ثم مع نصرة هؤلاء وإجابتهم له ﷺ ومدافعة أبي طالب، ما خرجوا ولا هو خرج من أن يكون ويكونوا بمكة مقهورين مغلوبين، حتى فروا من عدوهم بدينهم.

***

شبهة أنه لِمَ لَمْ يصطلم الملئكةُ العدوّ يوم بدر، ولِمَ لَمْ يؤيد الله المسلمين بها يوم أحد

وقد سأل الخصوم فقالوا: إذا كان الملائكة ثلاثة آلاف أو خمسة والمسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر فكيف لم يصطلموا عدوّهم وإنما هم في نحو ألف؟ وكيف لم يُعِنْه بالملائكة يوم أحد وقد قتل أصحابه، وهو قد كان يوم أحد إلى الملائكة أحوج؟

قيل له: قد علمنا بما قدمنا أن الملائكة قد شهدتهم يوم بدر بدلالة امتنانه على المسلمين بذلك والعدوّ والولي يسمعه، فليس في سؤاله قدح في هذا العلم، فإن بيّنا وجه حضورهم فمن طريق التطوع، وهو أنه ليس في حضور الملائكة عليهم السلام سقوط الفرض عن المسلمين في مجاهدة عدوّهم، ولا في إذن الله للملائكة في محاربة العدو، ولكنهم حضروا ليثبتوا الذين آمنوا وليُرعِبوا الذين كفروا وليقتلوا الواحد بعد الواحد تثبيتا للمؤمنين وإرعابا للكافرين وإيضاحا للمعجزات، وكذا قال الله وقد ذكر نزول الملائكة: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال ١٠]، وقال في موضع آخر في هذه القصة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى =

مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ [الأنفال: ١٢].

وأما قصة أحد، فليس إذا أنزل الله الملائكة يوم بدر وجب أن ينزلهم يوم أحد، وليس إذا عافى الله نبيه وقتا وجب أن يعافيه في كل وقت، بل قد يمتحنه بالمرض في وقت ويكلفه الصبر، وكذا ينصر وقتا بالملائكة ويخليه من ذلك وقتا آخر فتشتد محنته ويلزمه الصبر؛ وإنما يسأل عن هذا من ادعى أن الله ينصر أنبياءه في جميع مواطنهم بالملائكة، وهذا سؤال يذكره ابن الراوندي بعد موافقته أبا عيسى الوراق وابن لاوى اليهودي، وأمثالهم من الملحدة وأعداء رسول الله ﷺ. وهذا غاية كيدهم، وقد بذلوا جهدهم واستفرغوا وسعهم فما فضحوا بذلك إلا أنفسهم، ولو سكتوا لكان أستر لهم، ولو آمنوا لكان خيرا لهم، لتعلم أن الإسلام نور لا يطفأ، وأن مطاعن الخصوم فيه لا تزيده إلا قوة كالذهب الذي لا يَكْلَفُ وكلما سبكتَه وعرَضتَه على النار زاد جودة وصفاء.

قد كان أعداء رسول الله ﷺ في زمانه من قريش، واليهود والنصارى أكبر عقولا وأشد كيدا وأكثر شغلا بالتتبّع على رسول الله ﷺ وطلب عثراته، ولهم فضل المشاهدة، فلو وجدوا مطعنا لسبقوا إليه ولوافقوا عليه، فقد كان ينبغي لهؤلاء المتأخرين من أعدائه أن يعلموا هذا فيُمْسِكوا، ولكن الجهل والغباء قد سد مسامعهم وغطّى على أبصارهم، ويأبى الله إلا فضيحتهم وهتيكتهم؛ وهم لم يسألوا عن الآيات التي كانت تنذر ولا عن المواعيد التي تقدمت بها قبل كونها مع كثرة ذلك واعتداد الله به، وما سألوا إلا عن الملائكة ليأسهم من تلك وطعنهم في هذه، وقد تبينت خيبة أملهم في هذه أيضا وفي شهود الملائكة مع ما قدمنا من الدلالة، فأمر الملائكة عليهم السلام، وحضورهم يوم بدر، وقتال من قاتل منهم، من الأمور المشهورة.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤] فقلل المشركين في أعين المسلمين ليتجرَّؤوا عليهم ولئلا يهابوهم، وقلل المسلمين في أعين المشركين، ثم ملأ قلوبهم رعبا منهم ليكون ذلك آية للفريقين. وقد كان المشركون من قريش خرجوا من مكة على خيولهم مستظهرين، ووعيدهم أن يغلبوا كل من يلقونه ولا غالب لهم من الناس، فلما نجت عيرهم ذات الأموال، قال عتبة بن أبي ربيعة: ننصرف فقد نجت عيرنا من محمد وأصحابه، فقال أبو جهل: لا ننصرف ونقيم ونجزر الجزور ونأكل ونطعم الناس ونأخذ محمدا وأصحابه فإنهم في ضعف وقلة، فلما التقى الجمعان ورأوا قلة المسلمين وضعفهم رَهَبوهم وزال ما كانوا يظنون.

وقد ذكر الله للمسلمين أمرهم فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٧ ـ ٤٨]، إلى آخر القصة، ولعظم الآيات ببدر ذَكَّرَ اللهُ تعالى بها في كثير من المواضع، فقال عز وجل في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢١ ـ ١٢٨]، وهذا معطوف على قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي مرتبط به أي ليس

لك ولا لغيرك شيء من هذا النصر، وإنما هو من الله وحده في إنزال الملائكة، وفيما ألقى من الرعب، وفيما غشّى من النعاس، وفيما بلّغ من الرمى، وغير ذلك. وكان المشركون مغيظين وحنقين ومحفظين يتمنون أن يبرز إليهم رسول الله ﷺ، وأصحابه، لا يشكون في أنهم إذا وقعت عيونهم عليهم اصطلموهم واستأصلوا الإسلام، وشفوا غيظهم من رسول الله ﷺ، فجاءهم ما لم يحتسبوا.

***

شبهة فرار الأنبياء من أعدائهم

فإن قيل: فإذا كان الله قد وعد هؤلاء الأنبياء ـ بزعمك ـ بالنصر والظهور فلِمَ يفرّون من أعدائهم؟ فقد فرّ موسى من فرعون ببني إسرائيل ليلا وخفية، ومَنَعَ من إيقاد النيران لئلا يراها فرعون وجنوده فيستدلوا بها عليهم، ومعه الآيات والمعجزات، وفرّ عيسى من مكان إلى مكان بزعمكم وزعم النصارى، فإنها تقول في أخبارها وأناجيلها: إن يوسف النجار فرّ بعيسى وأمه إلى مصر من بيت المقدس خوفا من هيرودُس(١) ملك بني إسرائيل، فأقاموا بها ثنتي عشرة سنة، ومعه بزعمكم وزعم النصارى الآيات والمعجزات، وفرّ صاحبكم من قريش وأقام بالغار ومعه أبو بكر ثلاثة أيام، ومعه كما زعمتم الآيات والمعجزات.

قلنا: ليس في فرارهم طعن في أعلامهم، وما قالوا: لا نفرّ ولا نتوقى، فيكونَ في فرارهم تكذيب، فإن كل شيء وَعَدوا به وقالوه قبل أن يكون قد كان وتم على ما قالوه وشرطوه قبل أن يكون، وليس في فرارهم أيضا مقاربة

---

(١) هيرودس أو هيرودوس هو حاكم فلسطين الروماني آنذاك. وانظر لقصة هَرَبِ يوسف النجار وعيسى عليه السلام وأمه مريم: الإصحاح الثاني ١٣ متى. **عثمان**

لعدوهـم ولا مداهنـة، بـل إنمـا احتاجـوا إلـى الفـرار لتـرك المداهنـة والمقاربـة، ولشـدة المكاشـفة لعدوهـم، والمبالغـة في إسـخاطه وإرغامـه، ولو قاربـوا العدوّ واتقـوه لمـا احتاجـوا إلـى الفرار.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله المصطفى المختار الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم الغُرّ الميامين.

ورحم الله القاضي عبد الجبار الهمداني،

وأحاطه بستره ومغفرته

آمين.

انتهت مراجعة هذا الكتاب ٣٠ شعبان من سنة ١٤٤٠ للهجرة النبوية الموافق آيار ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١٩ للميلاد.

ثم في شهر رمضان المبارك يوم ٢٦ منه من تلك السنة.

ثم في شهر شوال يوم ٢٩ من تلك السنة.

ثم في شهر رجب يوم ١١ من سنة ١٤٤١ للهجرة النبوية.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ديباجة الكتاب	٥
بيان أن الأديان مؤسسة على أصلين: الإلهية والنبوة وأنها لا تتم ولا تثبت إلا بثبوت النبوة.	١٥
ضرورة التحقق من صدق رسالة محمد ﷺ، وبيان أن أوثق البراهين على ذلك البراهين القرآنية	٢٤
إثبات وجود الله تعالى	٣٠
مقدمة هذا البحث	٣٠
التمهيد	٣٢
المطلب الأول: هل للدين أساس من الصحة؟ وهل يُهمّ الإنسانَ درسُ ذلك؟	٣٣
الفصل الأول: بيان أن الدين كما أنه حقيقة هو حاجة بشرية للحفاظ على الأخلاق	٣٥
الفصل الثاني: لا يتم بناء الأخلاق على الدين ما لم يُعتقد أن الدين حقيقة	٣٦
الفصل الثالث: العلم بوجود الله وبوجوب وجوده في القمة من جميع العلوم و المعارف.	٣٨
المطلب الثاني: المقارنة بين الإسلام والنصرانية المحرفة	٤١
الفصل الأول: لبيان أن النصرانية قد أضرت ببني آدم عامة وبالمسلمين خاصة	٤١
الفصل الثاني: في بيان أن الأصل الثاني لداء الإلحاد المنتشر في العالم الإسلامي هو تقليد المثقفين في العالم الإسلامي للملاحدة في الغرب وقد أوردنا تحته مسائل مهمة متعلقة به	٤٤

الموضوع	الصفحة

الدين الصحيح موافق للعقل؛ لا يخالف العقل، وليست أصوله فوق إدراكه: ٤٧

بيان أن دعوى النصارى أن الدين فوق العقل اعتداء على الدين وعلى العقل وعلى الله، وإساءة للمسيح بإشراكه بالله: ٥٠

استهانة النصارى بالعقل أدت إلى انتشار الإلحاد في العالم، وإلى الاستخفاف بالعلوم العقلية، وإلى فشو اللاأدرية، فالنصرانية هي أصل الداء وجذر البلاء: ٥١

الإسلام على العكس من النصرانية أصوله مبنية على العقل كما أنه صديق للعلوم النافعة العقلية منها والتجريبية: ٥٣

لو كان دين فلاسفة الغرب الإسلام لكانت فلسفتهم منسجمة مع دينهم، ولساد الأخلاق الفاضلة بلادهم، ولكانت فلسفتهم أقوم مما عليه الآن، ولأَثْرَوا علم الكلام الذي هو الفلسفة الإسلامية بجهودهم. ولما ألحد المثقفون في العالم الإسلامي: ٥٤

بيان أن العقل والعلم لا يتعارضان مع الدين الصحيح، وتخبط الذين يعتقدون التعارض بينهما: ٥٥

المقصد الثالث: في موقف العقل والعلم من الدين، وفيه إثبات وجود الله تعالى بالدليل العقلي ونورد تحته مسائل مهمة متعلقة به ٥٨

بطلان زعم من يزعم أن قواعد الدين لا تأتلف مع العقل أو مع العلم: ٦٠

لا أقوى حجةً من المؤمنين بالله، وبيان سبب إلحاد الملاحدة، وبيان أن الإلحاد يؤدي إلى الزعم بأن الأثر التافه يحتاج إلى المؤثر دون الأثر العظيم: ٦١

العالم ممكن بمادته وصورته لا يقضي حاجة وجوده من نفسه، بل يحتاج في ذلك إلى واجب الوجود: ٦٣

الدلائل القرآنية على وجود الله تعالى: دليل الخلق والإنشاء، ودليل النظام، ودليل الفطرة . ٦٦

دليل الخلق والإنشاء ٦٩

بطلان القول بالطبيعة: ٧٠

الموضوع	الصفحة

اتفاق العقلاء على إثبات القديم: ٧١

بطلان الدور والتسلسل: ٧٢

بيان بطلان سؤال من خلق الله: ٧٣

ليس عند الماديين دليل واحد على فكرتهم: ٧٤

دليل النظام أو دليل الآفاق والأنفس ٧٥

دليل الأنفس: ٧٧

دفع شبهة واردة على دليل النظام: ٧٩

دليل الفطرة ٨١

خاتمة في بيان أن معرفة الله تعالى معرفة ضرورية ودفع بعض الشبه عنها.......... ٨٤

بيان أن إرسال الله للرسل وإظهاره لخوارق العادات على أيديهم أمران جائزان عند العقل وما يتعلق بذلك ٨٦

الرسالة من الله مبنية على تحقق عالم الغيب، وعلى جواز خرق العادة: ٨٧

من الغيب حقيقة الإنسان:.. ٨٧

من الغيب العلاقة بين السبب والمسبب: ٨٨

الحل المعقول لمشاكل الخلق هو الإيمان بالله وبقدرته المطلقة: ٨٩

الفارق بين المحال العقلي والممكن الخارق للعادة: ٩٠

كل مخلوقات الله تعالى معجزات: ٩١

جواز خرق العادة، وتعريف المعجزة:.................................... ٩٢

الخوارق للعادة بعد ثبوتها تكون من المجربات، وبيان أن التجربة تدل على تحقق الأمر الذي ثبت بها، ولا تدل على امتناع خلافه واستحالته: ٩٣

الموضوع	الصفحة

خلاصة هذا البحث: ٩٥

حاجة الناس إلى رسل الله وبيان أن إرسالهم مقتضى حكمة الله ورحمته بعباده ولطفه بهم ٩٦

ما لأجله خلق الله الإنسان، وبماذا يستحق الخِلافة في الأرض، وبيان أن أحق الناس بالخِلافة وبسياسة الناس هم رسل الله ومن هم على منهجهم ١٠٥

ما يعرف به صحة النبوة من المعجزات نوعان: ١٠٨

تقسيم كل من المعجزات الحسية والعقلية إلى أقسام ١١٠

المعجزات العقلية ستة أنواع: ١١١

بيان أن المعجزات الحسية لا يتم دلالتُها على صدق مدعي النبوة ما لم تكن مدعومة بالمعجزات العقلية.. ١١٤

شرائط ثبوت النبوة عند الناس ١١٨

تقسيم المعجزات المعنوية إلى ما يرجع إلى حال مدعي النبوة وإلى ما يرجع إلى ما أتى به ... ١١٩

١ ـ المعجزات الراجعة إلى حال الداعي: ١١٩

٢ ـ المعجزات الراجعة إلى ما أتى به ودعا إليه: ١٢٣

شهادة هرقل برسالة محمد ﷺ.. ١٢٤

شهادة أحد نوابغ نصارى لبنان بعظمة محمد ﷺ ١٢٦

الفرق بين المعجزة وغيرها من العجائب وخوارق العادات ١٢٩

اختلاف أسباب إيمان الصحابة بالرسول وكثرتُها ١٣٢

أوجه الإعجاز في القرآن ١٣٧

خلاصة الأبحاث المتقدمة المتعلقة بالرسالة وبالمعجزات ١٤١

مهذب تثبيت دلائل النبوة ١٤٣

الموضوع	الصفحة

عصمة الله تعالى لمحمد ﷺ مع ما كان عليه من تضليل كل العالَم، وتسفيه أحلامهم، وعَيْب أديانهم، وسبّ آلهتهم ١٤٥

ثقته ﷺ بالله تعالى في إخبار الله إياه بانتصاره على الناس ١٤٧

ما كان وَعَدَ الرسول ﷺ وقال وهو في وحدته: إني سأصير في جماعات وعساكر، فكان كما قال وأخبر ١٤٨

الفرق بين مجيء محمد ومجيء أنبياء بني إسرائيل ١٤٩

وفور عقل محمد ﷺ ومن تبعه من المهاجرين والأنصار ١٥١

إخباره ﷺ بعصمة الله تعالى له، وبتأييد الله له ونصره، وبظهور دينه في الآفاق، وتحَقُّقُ ما أخبر به ١٥٣

إجازة الرافضة لأنبياء الله ولحججه مداهنة الكفار و تزكيتهم، وذمّ المؤمنين الصادقين... ١٥٥

محاولة أعداء الرسول من قريش والعرب واليهود والنصارى وغيرهم قتله، وعصمة الله إياه منهم ١٥٦

دعوى الرافضة أن جل المهاجرين والأنصار كانوا ينافقون الرسول، وأن المؤمنين المخلصين منهم كانوا أفرادا مغلوبين، وبيان بطلان ذلك ١٥٧

قصة أبي لهب وإخبار الله بأنه لا يغني عنه في الصد عن دين الله مالُه وما كسب، وبأنه يموت هو وامرأته كافرَين ١٦٤

إخباره في سورة الكوثر بأن شانئه هو الأبتر، فظهر أمره، وانبترت ديانات قريش وسائر العرب، وفيه دلالة على صدق الخلفاء الثلاثة وصداقتهم للرسول وإخلاصهم له، والرد على الرافضة..١٦٧

محاولةُ المشركين مقاربتَه وتنازُلَه عن بعض ما جاء به، وفَشَلُهم في ذلك، وإخبارُهُ بأنه لا يكون ولن يكون ذلك أبدا ١٦٨

الموضوع	الصفحة

إخبار الرسول ﷺ بوعد الله تعالى بنصر المهاجرين والأنصار وبتمكينهم في الأرض.... ١٧٠

صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان من القرآن العظيم ١٧١

معجزة الإسراء وما حواه من العجائب ومن الآيات على نبوة الرسول ﷺ، وفي الباب أن الطاعنين في الصحابة قصدهم الطعن في رسول الله ١٧٣

إخباره عن مجموعة ممن اشتدوا في عداوته بخزيهم في الدنيا وبموتهم على الكفر دون الآخرين منهم ١٧٩

قصة انشقاق القمر وما حوته من العجائب والآيات، ودفع بعض الشبه عنها ١٨١

ما كان بمكة من إنباء الرسول بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، فكان كما أخبر ... ١٨٥

صدق أبي بكر الصديق، ومواقفه العظيمة في الإسلام، وبيان أن غرض أول من طعن فيه وفي إخوانه من المهاجرين والأنصار الطعن في رسول الله ﷺ وفي القرآن وفي الإسلام ١٨٧

انقضاض الكواكب على وجه انتقضت به العادة ١٩٠

توعُّد الرسول ﷺ المشركين بالحرب والهزيمة، فكان الأمر كما أخبر........... ١٩٤

من أعلامه التحدي بالقرآن الكريم، وعجز الناس كلهم عن معارضته ١٩٧

القرآن حجة من ثلاثة أوجه........................... ١٩٨

من أعلام نبوته إخباره عما في الكتب المنزلة السابقة من أخبار الأنبياء وغيرهم مع أنه لم يقرأ النبي ﷺ كتابا ولا اختلف إلى أهل الكتاب ١٩٨

من أعلام النبوة إخبار الرسول عن هزيمة المشركين من قريش، فكانت يوم بدر ٢٠٣

إخباره بإتمام الله دينه، وبظهوره على الأديان كلها، وبغلبة سلطانه سلطان الملوك والجبابرة، فآل الأمر إلى ما أخبر........................... ٢٠٤

الموضوع	الصفحة

لَمْ نَقُلْ بنبوة محمد لمجرد أنه قد غلب، بل لأن غَلَبَه قد وقع كما أخبر وأنذر، ونبذة من الشواهد على ذلك ٢٠٦

أمر الردة عقب وفاة الرسول، وقتال أبي بكر للمرتدين مع كثرتهم وقلة المسلمين ثقة منه بوعد الله ووعد رسوله، وظهورُه عليهم.. ٢٠٧

غزو المسلمين فارس والروم بعد وفاة الرسول ﷺ، وما جرى بين ملوكهم وقادتهم وبين رسل المسلمين من المساجلات والمحاورات الغريبة، وغلبة المسلمين مع قلتهم وضعفهم عليهم.. ٢١١

تعجب ملوك الفرس والروم وقادتهم من انهزام جيوشها الكثيرة القوية أمام جيوش المسلمين القليلة الضعيفة.. ٢١٧

نقل جواسيس الفرس والروم أخبار المسلمين الطيبة لملوكهم وقادتهم، وإخبارهم أن شعوبهم تُفضِّل المسلمين لعدلهم فيهم عليهم ٢١٨

تعجب ملوك الفرس والروم من غلبة سلطان المسلمين الضعيف السيِّء التدبير على سلطانهم القوي المحكم التدبير.. ٢٢٠

إخباره بأن الأرض يرثها الصالحون من عباد الله ٢٢٣

دلالة القرآن على صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى أن الصحابة من المهاجرين والأنصار كانوا من عباد الله الصالحين ٢٢٤

من آياته ما أخبر به من قيام حجته وظهور أمره ودينه على الدين كله.. ٢٢٦

من أعلام النبوة أكل الأرضة من صحيفة القطيعة كل موضع فيه ذكر عقوق أو قطيعة ٢٢٩

الهجرة إلى المدينة وما احتوت عليه من أعلام النبوة العظيمة الباهرة.. ٢٣١

جملة من فضائل أبي بكر في القرآن، وبيان أن غرض أول الطاعنين فيه الطعن في رسول الله ﷺ.. ٢٣٤

الموضوع	الصفحة

البشرى برد الله الرسول إلى مكة بعد هجرته منها التحدي بالقرآن وعجز الناس كلهم عن معارضته ٢٣٦
عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن ٢٣٩
حفظ الله لرسوله وهو في المدينة كما حفظه في مكة ٢٤٠
نصر الله في بدر وما حواه من آيات بينات ٢٤٢
تحدي الرسول اليهود بأن يتمنوا الموت، وإخباره بأنهم لا يتمنونه ٢٤٥
إخبار الرسول بِهَمِّ اليهود بإلقاء الحجر عليه لقتله ٢٤٩
إخباره عن موالاة المنافقين لليهود والنصارى، وعن أنهم سيَندمون على ذلك ٢٥٠
إخباره بأن من ارتد من المؤمنين عن دينه أتى الله بمن يغلبه ويقهره ٢٥١
صحة إمامة أبي بكر مؤيدة بالآيات حيث وصفه الله ومن معه بأنهم يحبون الله وأن الله يحبهم.. ٢٥٢
كان عَلِيٌّ على عهد الخلفاء الثلاثة أعز المؤمنين وأحبهم للخلفاء وأشدهم طاعة لهم، وقد كان الخلفاء الثلاثة بطانة رسول الله وخاصته ٢٥٣
قصة غزوة أحد، وتحقق وعد الرسول بالنصر يوم أحد، وما اشتمل عليه هذا اليوم من الآيات ٢٥٥
احتجاجه على النصارى بأن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، ودعوتهم إلى المباهلة، وانصرافهم عنها وقبولهم الجزية ٢٦٠
من دلائل التوحيد ٢٦٢
الإلـٰه لا يكون محتاجا وبيان أن قول النصارى بالأقانيم والتثليث والاتحاد مأخوذ من ملاحدة فلاسفة الإغريق، وبيان جهالات أرسطو ٢٦٤
إخباره عن أن الكفار سينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون... ٢٦٦
إخباره عن اليهود بأنه لا يؤمن منهم إلا قليل، وبأنهم لا يضرون المؤمنين إلا أذى، وبأنهم سيولون الأدبار ويغلبون عند القتال........................ ٢٦٦

الموضوع	الصفحة

إخباره عن الكفار بأنهم سيغلبون ٢٦٨

إخباره بأن المسلمين سيملكون المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وأن الكفار لا يدخلونهما حينئذ إلا أذلاء خائفين ٢٦٨

إخباره بأن مفتاح الكعبة يكون في يده يضعه حيث يشاء ما أخبر به من أن الله سيمكن لأصحابه في الأرض ويستخلفهم فيها ٢٧٠

صحة خلافة الخلفاء وبطلان مذهب الإمامية من القرآن ٢٧١

الأصل في الطعن في خلفاء رسول الله وفي المهاجرين والأنصار هو هشام ابن الحكم .. ٢٧٢

غزوة الأحزاب وما جرى فيها من العجائب والآيات العظام ومن نصر الله مما امتن الله تعالى بقسم منه في كتابه ٢٧٣

إخباره عن ضمائر المنافقين وسوء نياتهم، وهذا لا يفعله عاقل إلا أن يكون نبيا ٢٧٨

ثبات قلب الرسول والمؤمنين لما رأوا الأحزاب، وصدقهم ما عاهدوا الله عليه ٢٧٩

واقعة بني قريظة ونزولهم على حكم سعد بن معاذ ٢٨٠

مكاتبة ملوك الدنيا ودعوته إياهم إلى الإيمان به، وإخباره إياهم بظهوره وغلبته عليهم، وما اشتملت عليه هذه القصص من العجائب والآيات ٢٨٢

كتاب الرسول إلى كسرى مَلِك فارس ٢٨٢

كتابه إلى قيصر ملك الروم ٢٨٤

كتابه إلى المقوقِس ملك الإسكندرية ٢٨٤

مكاتبته ملوك الشام وملوك اليمن وغيرهم ودعوتهم إلى الإيمان به وإلى الاختلاع من ملكهم وعزهم ٢٨٥

أبواب أخرى عظيمة من أعلام نبوته من إخباره عن بواطن ناس، وعما سيقع من آخرين ٢٨٧

الموضوع	الصفحة

أولاً: إخباره عن المتخلفين من الأعراب عن عمرة الحديبية وعن اعتذارهم بما هو غير صحيح.. ٢٨٧

ثانياً: إخباره عما في بواطن المنافقين من النفاق وعما على ألسنتهم من الكذب ٢٩٢

ثالثاً: ما كان وقع بين أحد المهاجرين وأحد الأنصار من الشجار، ونزول سورة (المنافقون) في ذلك، وإخبار الله تعالى فيها عن بواطن المنافقين وعن كذبهم........................ ٢٩٣

رابعاً: إخباره عن طويات المتخلفين عن غزوة تبوك، وعما كانوا يسرونه فيما بينهم، وعما سيفعلونه بعد عودة الرسول إليهم ٢٩٨

خامساً: إخبار الله تعالى عن الذين يلمزون المطوِّعين في الصدقات.......................... ٣٠٢

سادساً: إخبار الله عن أحوال المعتذرين من الأعراب وعن بواطنهم.......................... ٣٠٤

سابعاً: قصة مسجد الضرار، وإخبار الله تعالى عن النيات الخبيثة لأصحابه ومتخذيه ٣٠٦

ثامناً: قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا وما اشتملت عليه من أعلام النبوة، ومن الإخبار عمّا في ضمائرهم.. ٣٠٨

تاسعاً: إخباره بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، ونبذة من أمثلة ذلك ٣١١

عاشراً: قصة جلاء بني النضير من اليهود وما تقدمه من خيانتهم وهمهم بقتل الرسول، وإخباره عما أسرّه المنافقونمن قولهم لبني النضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ وإخباره عن كذبهم في قولهم هذا ٣١٧

خاتمة في دفع بعض الشبه عن رسالة الرسول ﷺ ٣١٩

بيان بطلان دعوى المسترين بالتشيع أنه يجوز على رسول الله ﷺ التقية وكتمان الحق وإظهار الباطل مما يفقد الوثوق برسالته ويكون منافياً لها ٣١٩

الموضوع	الصفحة

عرض أقيال العرب على الرسول أن يجعل لهم يوما يجالسهم فيه، وللفقراء والموالي يوما، ونزول الآيات في منع الرسول ﷺ من ذلك وبيان أن الرسول ﷺ كان يقدم الناس على حسب سابقتهم، لا على حسب مناصبهم ٣٢٠

إبطال دعوى الرافضة أنه يجوز للرسول التقية وكتمان الحق وإظهار الباطل ٣٢٣

قصة تزوج الرسول بزينب بنت جحش بعد طلاق زيد إياها ٣٢٤

دفع شبهة أن الصحابة قد اتبعوا محمدا ﷺ لأجل الغنائم ٣٢٥

شبهة أن الانتصار ليس من دلائل النبوة، فقد حصل الانتصار لكثير من طلاب المُلك كبني العباس.. ٣٢٦

شبهة أن أمر محمد ﷺ قد تم بالسيف وليس بالآيات والمعجزات، ودفعها بوجه واضح مبسط ٣٢٧

شبهة أن أمر محمد قد تم بدفاع عمه أبي طالب عنه وبنصر أبي بكر وعمر له ٣٣٣

شبهة أنه لِمَ لَمْ يصطلم الملائكةُ العدوَّ يوم بدر، ولِمَ لَمْ يؤيد الله المسلمين بها يوم أحد... ٣٣٤

شبهة فرار الأنبياء من أعدائهم ٣٣٧

***